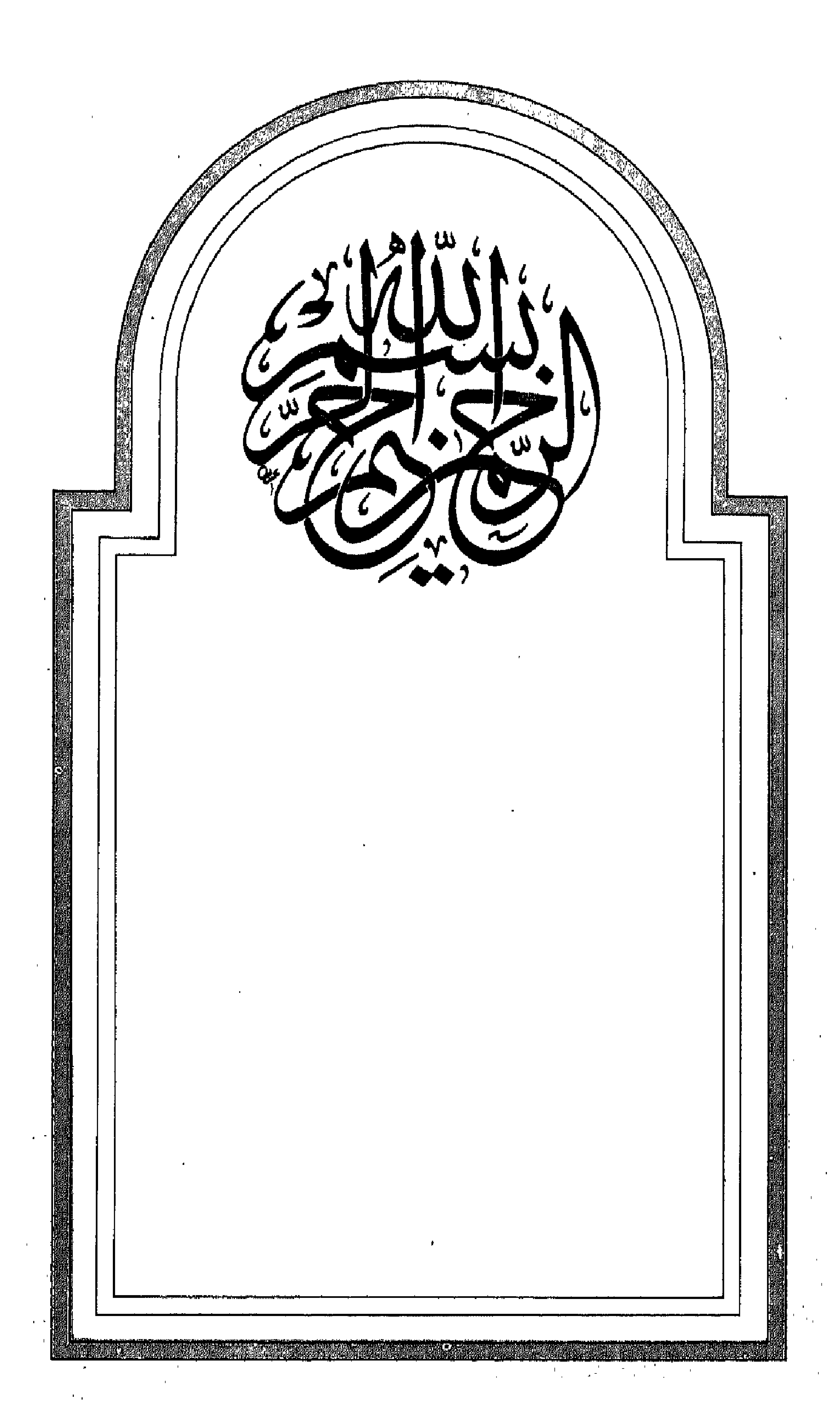
كتاب العربي

الإسلام والعروبة
في عالم متغيّر

الدكتور عبد العزيز كامل

الكتاب الثاني والعشرون
١٥ يناير ١٩٨٩


بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب العربي

مرآة العقل العربي



هذه السلسلة :

- تصدر عن مجلة العربي مؤقتاً فصلياً .
- تقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد، أو موضوعاً واحداً تتناوله عدة أقلام مما سبق نشره في مجلة العربي .

السعر :

الكويت ٣٠٠فلس، العراق ٤٠٠ فلس، السعودية ٦ ريالات، الأردن ٣٥٠ فلساً ، سوريا ١٥ ليرة، لبنان ٥٠ ليرة، مصر ٣٥ قرشاً، السودان ٣٠ قرشاً، المغرب ٦ دراهم، قطر ٧ ريالات، الامارات ٧ دراهم، سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة، اليمن الشمالي ٤ ريالات يمنية (ش)، اليمن الجنوبي ٣٥٠ فلساً يمنياً، ليبيا ٥٠٠ درهم، تونس ٥٠٠ مليم، الجزائر ٥ دنانير، البحرين ٤٠٠ فلس، بريطانيا جنيه استرليني ونصف، فرنسا ٢٥ فرنكاً، أوروبا جنيه استرليني ونصف، أمريكا ٣ دولارات أو جنيه استرليني ونصف .

الاشتراكات :

في الوطن العربي: ٢,٥٠٠ د. ك أو ٧ دولارات .

باقي دول العالم: ٣د. ك أو ٩ دولارات .

الدكتور عبد العزيز كامل

الإسلام والعروبة
في عالم متغيّر

● كتاب العربي ●
● سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي ●

الكتاب الثاني والعشرون
١٥ يناير ١٩٨٩

تقديم

الدكتور محمد الرميحي

تزاوج العروبة والاسلام
الصيغة الحضارية لتجاوز التخلف ؟

هذا الكتاب ليس فتحاً جديداً لباب الحوار الذي وصل في بعض أوجهه الى طريق مسدود، بين القائلين منا بأحقية العروبة بالأسبقية في دعوتنا للنهوض من التخلف. وبين القائلين منا بأحقية الاسلام بالأسبقية للنهوض من ذلك التخلف، لقد طرح ذلك الجدل من منظور سياسي بحيث اختلفت فيه وجهات النظر، ولكن الاستاذ الدكتور عبدالعزيز كامل اختار هذا العنوان «العروبة والاسلام في عالم متغير» كي يؤكد من جديد ـ وهو واحد من الكتاب المستنيرين في عصرنا ـ ما آمن به منذ البداية، أنه ليس هناك تناقض بين الإثنين.

لقد وصل الحوار بين بعض المؤيدين والمعارضين في وطننا حداً جعل نخبة متميزة من كتابنا ومفكرينا تعتزل ذلك الحوار، لأنهم إن دخلوا حلبته رماهم المتعصبون من هذا الطرف أو ذاك، إما بالخروج عن الاسلام ـ والعياذ بالله ـ أو التنكر للعروبة.

وكاتبنا ـ مثله مثل عشرات المهتمين ـ يؤكد في هذه القضية الحيوية أن بإمكاننا أن نكون عربا ومسلمين دون تناقض، ودون تردد. وما أحوجنا في هذا المقام ان نذكر كلمة لأول رئيس تحرير لمجلة العربي المرحوم الدكتور احمد زكي، عندما قال قبل خمس وعشرين سنة من اليوم قولا لابد من التفكير فيه بعمق، لقد قال (وعندي أن الذي يتبرأ من دينه مسلما كان أو مسيحيا لنصرة عروبته، ما أوشكه أن يتبرأ من عروبته نصرة لدينه، إذا تبدل حال بحال).

لقد سكن الغبار حول هذه القضية المفتعلة، فقد اكتشف الجميع أن الحراب الموجهة الى العروبة هي نفس الحراب الموجهة الى الاسلام. وكان طرح القضية خاطئا لأنه افترض تجاوزا أن موضوع الدعوتين واحد لا يسمح بالجمع بينهما، وهو افتراض خاطيء صدقه البعض فترة. إن الجانب الديني بمعناه الروحي والجانب الاجتماعي بمدلولاته الاقتصادية هما جناحان لانطلاق الأمة الى التقدم. ولقد ابتليت حركة الصحوة القومية ـ كما هي الصحوة الروحية في أوطاننا في وقت ما ـ بأمراض التعصب، وكان هذا البلاء إما بسبب التخلف بمسمياته الكثيرة، أو بسبب الهجمة الأجنبية الخارجية، فعجز أصحاب تلك الدعوة عن التخلص من أدران السياسة، وأكد كثيرون من الداعين حينئذ صورة التخلف الموروث بدلاً من بعث روح المحبة والتسامح.

إلا أن الدعوة الى العروبة ـ كما هي الدعوة الى الاسلام في عالمنا اليوم ـ تأخذ أشكالا جديدة، أشكالا تؤكد فهمنا للاسلام بدعوته الحضارية الشاملة، وأن الانبعاث الاقتصادي والاجتماعي المأمول لابد له من انبعاث روحي يصب في إطاره ويقود قيمه، كما

أن العروبة كدعوة تتخطى الاقليمية الضيقة، وتؤكد تعاوننا في هذه البقعة العربية حيث المخاطر التي تحدق بنا لا تستثني احدا، حتى لو تأخر ضررها عن بعضنا بعض الوقت.

من هذا المنطلق جاء هذا الكتاب يؤكد الإسلام دينا لمن يؤمن به، وثقافة لمن لا يؤمن به، كما يؤكد العروبة لأهلها أصالة وامتداداً، ولغيرهم مشاركة في الحضارة العالمية، ويؤكد الأمرين معاً حاضراً ومستقبلاً، وقد كتبه صاحب قلم متسامح، خبر الحياة الاكاديمية والسياسية، وخرج بمحصلة هي بالواقع ألصق، والى العقل والحكمة أقرب.

ولقد قسمنا هذا الكتاب الى أربعة فصول معظمها نشرها الكاتب في السبعينيات والثمانينيات في مجلة العربي.

تلك الفصول هي: القرآن والرسول، الاسلام والعالم المتغير، مع الشباب، وأخيرا قضايا عالمية. وعندما نقرأ هذه المقالات مجموعة بين دفتي كتاب واحد، نرى على الفور قيمتها الباقية التي تؤكد نزعة التسامح والاستنارة التي يحتاجها الكثيرون من الجيل العربي الجديد، الجيل الذي شب في السبعينيات على حروب أهلية في كثير من مناطق وطننا العربي، وعلى كره في القلب، أكثر مما شب على حب فيه.

كتاب يؤكد ما يجمعنا عربا ومسلمين أكثر مما يشير الى ما يفرقنا، وهو قليل. إننا أمام تحد حضاري، غزيرة ووفيرة مؤشراته.

«ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات». □

محمد الرميحي

الإسلام والعروبة في عالم متغير

بقلم : الدكتور عبد العزيز كامل

عنوان هذا الكتاب كلمات أربع : الاسلام . والعروبة . العالم . التغير . وهى جميعا قرآنية ، عميقة الجذور في حياتنا ، ممتدة الفروع في مستقبلنا .

إن الإسلام في القرآن الكريم هو ملة ابراهيم ، ودعوة الأنبياء ورسالة النبى الخاتم عليهم جميعا من الله الصلاة والسلام .

ولقد جاء الاسلام مصدقاً لما بين يديه من الكتاب . وان العروبة ـ مكانا ولسانا ورسولا ـ هى اختيار إلهى . والنظرة العالمية تقرؤها في صدر سورة الفاتحة « الحمدلله رب العالمين » والله وصف رسوله بقوله « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء . ١٠٧) والتغير من سنن الحياة « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد : ١١)

هذه هى الكلمات الأربع التي تكون عنوان الكتاب .

زمانا : كانت هذه المقالات على موعد مع مطلع القرن الهجرى الخامس عشر . وتواكبت مع استعداد العالم الاسلامي لاستقباله ، ثم شاركت في عقده الأول .

مكاناً : يسرّ الله لكاتبها حضور مؤتمرات القمة الاسلامية الخمسة : الأول بعد الحريق الآثم للمسجد الأقصى عام ١٩٦٩ الى المؤتمر الخامس في الكويت عام ١٩٨٧ . ثم الذروة العالمية التى بلغها العمل الاسلامي بالخطاب التاريخي لحضرة صاحب السمو الشيخ جابر الاحمد الصباح أمير دولة الكويت على منبر الأمم المتحدة في ٢٨ سبتمبر ١٩٨٨ باسم العالم الاسلامي .

هذا الى عضوية الكاتب في اللجنة العالمية المكلفة بمراجعة كتاب تاريخ الانسانية العلمي والثقافي باليونسكو / باريس ، واصدار طبعته الثانية . هذا المرجع الكبير الذي بدأ الإعداد لطبعته الأولى مع منتصف القرن العشرين وتوالى ظهور أجزائه في الربع الثالث من هذا القرن .

ومع تطور الدراسات التاريخية ، وتغير مراكز الثقل الحضارى العالمية ، ظهرت مناهج جديدة تقتضي إعادة عرض التاريخ الحضارى العالمي من منظور أكثر توازنا من المنظور الاوروبي المركزى الذى كان سائدا قبل ذلك .

هذا الى حضور مؤتمرات وزيارات امتدت من اندونيسيا شرقا الى الولايات المتحدة غربا ، وشملت الكثير من الأقطار العربية

والإسلامية ، زارها الكاتب مشاهداً أو محاضراً في مؤتمراتها .

وإن تقسيم هذه المقالات وهى فى ذاتها انطباعات من هذه الزيارات الميدانية ، ولها أعماقها التاريخية ، وتطلعاتها المستقبلية ، هذا التقسيم لا يقيم بين المقالات حدودا ، بقدر ما يحدد الخط الرئيسي فيها ، وهو خط متصل بالآفاق الأخرى التي عرضت لها المقالات في صورة تتبادل فيها التأثر والتأثير .

ومن المعروف الآن في الاتجاهات العلمية الحديثة أن جانبا منها يعنى بالدراسات التي تمس أكثر من موضوع ، وتقيم بينها المعابر التي تحاول أن تصعد الى مستوى قوانين تجمع بينها ، لترتفع منها الى مستوى أكثر ارتفاعا ، في تفاعل مستمر بين التحليل والتركيب ، وبين التعمق والشمول ، الذى يتوازن فيه الجزء والكل .

ولقد أفسحت مجلة « العربي » صفحاتها مشكورة لهذه المقالات في عهد رؤساء تحريرها الثلاثة الأساتذة : د . احمد زكي واحمد بهاء الدين ود . محمد الرميحي والزملاء الذين حملوا مسئولية جهاز التحرير والمراجعة فلهم جميعا خالص التحية والشكر .

وأدعو الله أن تظل « العربي » أرض لقاء بين أفكار وأجيال ، تتعاون على أن تكون الحياة العربية والاسلامية والانسانية أكثر ازدهارا وتعاونا ، وتكون عونا على نقل التجارب الفكرية والعملية .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا »

الفصل الأول

القرآن والرسول

* « كِتابٌ أنزلناه إليكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِ رَبّهِم إلى صِراطِ العَزيزِ الْحَميدِ ».

(ابراهيـــم : ١)



نظـرة الرسول الى الكـون

كان الكون كله قريبا من الرسول عليه الصلاة والسلام . وإذا كان الله قد جمع له في أصحابه أجناس البشر من العرب والروم والفرس ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعفاء ، فقد طوى له الزمان والمكان في الإسراء والمعراج :

طوى له المكان فأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به إلى السموات العلى .

وطوى له الزمان فلقي الأنبياء وجمعته معهم صلاة ، ودارت أحاديث . وشهد من غيوب الله ما يرتبط بالماضي وما يرتبط بالمستقبل ، وعاد بعد أن رأى من آيات ربه الكبرى . وبهذا الفضل الالهي ، كان خاتم الأنبياء والمرسلين هو « الإنسان الكوني » .

وإذا ما عدت إلى القرآن الكريم وجدت فيه صورة أخرى من اللقاء بين الإنسان والكون :

فالله يقص علينا أحسن القصص . يعلمنا بدء الحياة ومسارها ، وأنه خلق لنا السموات والأرض ، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، وأرسل إلينا

العربي العدد ٢٢٠ مارس ـ آذار ١٩٧٧م

رسله مبشرين ومنذرين . وإلى ربنا نعود في يوم تجد فيه كل نفس ما عملت محضرا . ففي القرآن معالم قصة الوجود واضحة : أين أنت من الكون ؟ وأين الكون منك ؟وانظر إلى صور من تتابع فضل الله في قوله : « ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شداداً ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا ، إن يوم الفصل كان ميقاتا » (النبأ : ٦ــ ١٧) .

واسأل نفسك : هل يصف الله لك الكون الكبير ، أم تحس أنه يصف لك بيتك الذي تعيش فيه ؟ وأنت بهذا في وجود صديق ؟

ولنحاول أن نرى كيف يؤكد الرسول ﷺ هذه النظرة في نفس المسلم :

في الصلاة

وأنت تحس هذه النظرة الكونية في الإسلام في عباداته ومعاملاته : ولنبدأ بالوضوء للصلاة والتطهر للعبادة .

يقول الرسول ﷺ : الطهور شطر الإيمان (رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري) .

ويقول ﷺ : من توضأ فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره . (متفق عليه عن عثمان) .

وما الوضوء ؟ إنه عبادة تستخدم فيها ماء طاهرا تغسل به أعضاء محددة من جسمك ، هي ــ عمليا ــ وسائل اتصالك بالعالم من حولك .

وما مصدر الماء ؟ إنه هذا الكون من حولك : من ماء المطر أو العيون أو الأنهار أو البحار . وأنت : حين تجمع هذا الماء بين يديك ، إنما تجمع جزءا من هذه الطبيعة حولك . جزءا طاهرا تمر به على أجزاء من جسمك . وكأنك تصافح الكون من حولك عن طريق هذا الماء . وكأن لهذا الماء معك حديث

ونجوى : إنه طاهر فكن طاهرا . إنه يسبح بحمد ربه فكن أنت مسبحا بحمد ربك .

ولنتأمل هذا الحديث الذي أمامنا : « من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره » . ليس الأمر في الوضوء حسيا فقط ، وإنما هو عبادة كاملة ، لها جانبها الحسى والمعنوى في ذات الوقت . عبادة أنت تذكر فيها فضل الله عليك وتستغفره مما اجترحت من إثم . وتدعو ربك حين تتم وضوءك ، أن يجعلك ويجعلنا من التوابين والمتطهرين .

وكذلك التيمم : أنت به تقصد الصعيد الطيب تمسح به وجهك ويديك . وما وضع اليد على الصخر أو على أديم الأرض الطيبة ؟ . إنه اتصال بهذا الكون الكبير ، وتذكر الأرض : ننبت منها ، ونثوي فيها ، ونخرج منها ، وبقدرة الله التي خلقت هذا كله وجعلته مسبحا بحمده ، ولكن لانفقه تسبيحه ، وإن كان كل قد علم صلاته وتسبيحه .

وتقف للصلاة متجها إلى القبلة من أي مكان أنت فيه . وبهذا تتخطى حدود المكان من حولك لتقف على نقطة من محيط دائرة كبيرة ، يقف عليها آلاف وآلاف من اخوانك المؤمنين ، ليلا ونهارا ، متجهين إلى البيت العتيق .

وتستطيع أن ترى منها دوائر صغيرة بعينيك ، إذا ذهبت إلى مكة ، وصليت مع اخوانك هناك دوائر دوائر حول الكعبة .

وتؤمن وأنت في صلاتك التي تعلمتها من أشرف الخلق ﷺ « صلوا كما رأيتموني أصلي » (متفق عليه عن مالك بن الحويرث)

إن كلمتك المؤمنة قادرة على أن تجد إلى ربها سبيلا .

ماذا يحدث للكلمة الطيبة ؟ إن ربنا يعلمنا فيقول « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » (فاطر : ١٠)

حركة الشفتين وخفقة القلب الطاهر ، تستطيع أن تصعد إلى السموات العلى ، وان تسجل عند الله « في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي

سفرة ، كرام بررة » (عبس : ١٣ ــ ١٦) .

في الصلاة تجد نفسك في لقاء مع الكون : أنت مع ربك . الأرض مع السماء . الكلمة مع الجزاء . الدنيا مع الآخرة . مكانك مع الكعبة .

وفي الصلاة أنت مرتبط بظواهر كونية : من طلوع الفجر إلى شروق الشمس وزوالها وطول ظلها وغروبها إلى غسق الليل .

وهذا الرباط الكوني في الصلاة ، متلازم مع رباط بالانسان تعلو به منزلة صلاة الجماعة ، والسعي الى المساجد .

في الصوم

وينطبق ذلك على الصوم أيضا : فمواقيته يحددها هلال رمضان ويعلمنا الرسول ﷺ فيقول : « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاكملوا عدة شعبان ثلاثين » .

(متفق عليه عن أبي هريرة) .

وفي يومك أنت مرتبط في عباداتك بحركة الشمس سحورا وإمساكا وإفطارا وقيام ليل . لاتتدخل إرادة بشرية في ذلك . وتحس أنك واخوانك ، في مشارق الأرض ومغاربها ، تؤدون عباداتكم مرتبطين بأهلة ، تعلمون بها عدد السنين والحساب ، وبشمس تجري لمستقر لها .

في الحج

والحج لقاء بين شعائر ومواقيت نأخذها عن رسولنا ، وجاءت من قبله لخليله ابراهيم عليه السلام .

والحج بدوره لقاء بين الانسان والانسان ، ولقاء بين الانسان والكون :

هذا أول بيت وضع للناس . وهؤلاء اخوتك جاءوا وقد تساقطت عنهم حواجز اللون والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية .
وهذا حجر له كرامته نستلمه ، ونحن نعلم أنه حجر لايضر ولا ينفع ، وأحجار أخرى نرجمها في « منى » بأحجار صغيرة نجمعها من المشعر الحرام .

وما الذي يميز حجرا عن حجر ليكون هذا مجال تقبيل ، وذلك مجال رجم ؟ هذا داخل في بناء الكعبة ؟ وذلك تصوير للشر ؟

وأنت في هذا متبع ومعتبر ومعظّم لشعائر الله .

وتستطيع أن تتابع العبادات لتجد فيها هذا الترابط القوي بين الانسان والكون ، ترابطا يجعل نظرة الانسان الى الكون ، نظرة المودة ، ومن فيه من الناس أهله ، وما فيه من الثمرات رزق ، للمحتاج فيه نصيب .

الزكاة

ويقودنا هذا كله الى كلمة عن الزكاة ، والزكاة زيادة ونماء . والعطاء ظاهره نقص ، ولكن :

ماذا تقول في الزارع حين يضع في الأرض بذوره ؟ ان الحبوب التي عنده تنقص أول أمرها ، فجزء منها أصبح في باطن الأرض ، ولكنه مطمئن إلى نمائها بعد هذا ، وأن هذه البذرة ستكون سنابل وثمارا .

والاسلام يعلمنا أن تكون ثقتنا بالله أكبر . وأن ما نغرسه في أرض الخير ينمو ويزكو ويرتفع . وأن قلوب العباد وحاجات المحتاجين ، هي أرض طيبة ، دعانا ربنا إلى أن نضع فيها بعض البذور . وحددت لنا السنة المطهرة الأنصبة التي نقدمها إلى الخير ، مما يفيض عن حاجتنا مع حساب الجهد المبذول فيها .

فإذا كانت الزراعة واستخراج المعادن وصيد البر والبحر تعاملا مع ما خلق الله من خيرات ، فإن الزكاة رباط اجتماعي واقتصادي يذكرنا دائما بخالق

هذه الخيرات ، الذي جعل عبادا يختبرهم في أن يملكوا ، وعبادا يختبرهم في أنهم لا يملكون ، لينظر منا أينا أحسن عملا وشكرا . وفرض على الجميع السعي ما استطاعوا ، وجعل الأرض مجال ذلك في قوله تعالى :
« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (الملك : ١٥) .

النبات والحيوان

وإن الصداقة مع الكون ، كما رأيناها مع الشمس والقمر والماء والصخر ، نراها أيضا مع النبات والحيوان .
١ ـ فإذا كان الحيوان للركوب والحمل والقتال ، فما ينبغي أن يتخذ تسخيره فيما لايجدي . وفي هذا يقول المصطفى ﷺ « لاتتخذوا ظهور دوابكم منابر . فإن الله تعالى إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض . فعليها فاقضوا حاجاتكم » . (أبو داود عن أبي هريرة) .

٢ ـ ونهانا عن التسلي بالتحريش بينها في حديث رواه الترمذي عن ابن عباس . (والتحريش اغراء بعضها ببعض) .
٣ ـ وتصل به الرقة إلى أن يقول « لاتسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة » (أبو داود عن زيد بن خالد) .
٤ ـ ويأمر أصحابه أن يعيدوا إلى حُمَّرة (عصفور) فرخها ، عندما رآها تفرش (أي ترفرف باسطة جناحيها قرب الأرض) ويقول لهم « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها اليها »
(أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه) . وتأمل تعبيره النبوي الكريم : من فجع هذه بولدها ؟

٥ ـ وينهانا في الغزو عن أن نقطع شجرة إلا لطعام ، كما ينهانا عن الاسراف في الطعام ويدعونا إلى القصد في ذلك كله .

البيت الكبير

إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان ينظر إلى الوجود نظرة حب يتدبر بها ما فيه من بديع صنع الله . ولم تكن حياته صراعا مع هذا الوجود أو تحديا له .

إنه بشر من خلق الله . وهذا الكون من خلق الله . هو مسبح بحمد ربه . وهذا الكون مسبح بحمد ربه . والله أعطى الانسان العقل والفكر وحرية الاختيار . وهذا الكون تحكمه قوانينه . والانسان خليفة الله على هذه الأرض . وله خلقها وخلق السموات .

وعلى هذا لانجد في الاسلام ولا في توجيه الرسول لنا الا حب الكون والانسان .

الكون هو بيتنا الكبير . الناس كلهم أخوة . الحياة عمل واختبار . نعمل في الحياة دون اخلاد إليها . نقوم بحق خلافة الله فيها . ما جاء من رزق اشتركنا فيه . لاتفرقة بسبب اللون أو العنصر أو الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي .

حاجة عالمنا الى هذه النظرة

وتختلف هذه النظرة المحبة الودود ، عن نظرات أخرى رأت في الكون مجال صراع وعداوة ، وصلت إلى تدمير مقومات غير قليلة في بعض بيئاته :

وانظر ــ كمثال ــ إلى ما حدث في أفريقية منذ عهد الكشوف الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر ومطالع القرن السادس عشر ، وراجع ما حدث

فيها عندما اصطدم الفكر المحلي بالفكر الوافد حول رأس الرجاء الصالح من البرتغال ، ومن جاء بعدهم من المستعمرين .

لقد وجدوا ــ كما يقول بازيل دافيد سون ــ مدنا تموج بالحضارة والتقدم . وشهدوا آلات جديدة لم يكونوا يعرفونها من قبل ، يستخدمها أهل البلاد في تنقلهم بين شواطىء شرق أفريقية والشواطىء العربية والآسيوية . وشهدوا صلات ود باركها الاسلام وحث عليها . وهي صلات يمكن أن نردها تاريخيا ــ فيما بين الجزيرة العربية وشرق أفريقية ــ إلى ما قبل الإسلام .

وجاءت مع الاستعمار مطامع ضارية ، تضرب بالمخلب ، وتنهش بالناب ، وتشعل النيران في المدن العامرة . وبدلا من مشاعل الحضارة التي كانت قائمة في هذه الأجزاء ، ارتفعت السنة اللهب ، وغطى دخانها الاسود وجه الحياة .

وغاب أندلس الشرق عن أنظار التاريخ .

نحو أربعين مدينة أقامها العرب ما بين مقديشو في الشمال وكلوا في الجنوب ، كشفت عنها بحوث وحفريات علماء الآثار . . ولنرجع ــ كمثال ــ إلى ما كتبه فريمان جرنفل عن هذه المواقع . . أطلال بقيت ، نمت حولها المراعي والاشجار وأزالت منها أحداث التاريخ ، وهطول الأمطار وجريان السيول ما أزالت . . ولكن المعول الأكبر الذي حطم هذه المواقع ، واليد الباطشة التي حركته كانت عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وأي رجاء صالح جاءنا عن هذه الطريق ؟

هذه النظرة المدمرة لم تنظر الى مقومات هذه البيئة نظرة حب ، ولا مودة ، ولك أن تقارن بين هذا الدمار الذي شهده شرق أفريقية في أندلسه المفقود ، وبين العمران الذي شهدته شبه جزيرة أيبيريا عندما عبرها المسلمون من عرب وبربر ، وأقاموا فيها الاندلس المولود ، ترعاه مبادىء ارتضاها رب الناس للناس ، حبا وبرا ، وشهدت بها ارض الأندلس حضارة عاد الأسبان أخيرا ، وبعد قرون ، يضمون ما بقي من أجزائها ، بعضها إلى البعض ،

ويرون فيها ـ بحق ـ صفحة رائعة من صفحات أمجادهم وبها يعتزون . ورأوا أن العقول التي أبدعت هذه الحضارة كانت لقاء بين دماء عربية واسبانية ، وتوجيهات من رب الناس إلى الناس ، ربهم الذي خلقهم جميعا . . وإذا ما كان العرب والبربر قد حملوا مشاعل هذه الحضارة عابرين بها مضيق جبل طارق . فإن ازدهارها كان في الاندلس : فوق أرضها وتحت سمائها ساهمت فيه عقول أبنائها ، وأيديهم ، غذتها دماء تستمد من رافدين أحدهما من الأرض التي يعيشون فيها ، والثاني من الارض التي جاءوا منها . نهر طويل ينبع من مهبط الوحي في الجزيرة العربية ويصب في الاندلس .

عودة

وشيئا فشيئا رأينا كيف أخذ العالم يثوب إلى مضمون هذه النظرة الاسلامية ، إلى هذا التطبيق الذي يحترم الانسان والكون ، والذي يرى في مكونات البيئة الطبيعية والحضارة عطايا إلهية ، ينبغي أن نقابلها بالشكر لابالجحود .

وقد تكون هذه العودة أكثر ظهورا في ميدان المحافظة على مقومات البيئة منها في المحافظة على الإنسان ، وعلى الرغم من الكثير الذي يقال عن حقوقه فإن العودة إلى حب هذا الكون والمحافظة عليه ، ومحاربة مظاهر الدمار والتلوث فيه ، والنظر البعيد إلى مستقبله ، والنظرة الشاملة إليه ، كل أولئك مما يباركه الإسلام ويسعى إليه .

هذه المقاومة لزحف الصحراء على أرض المراعي والزراعة .

هذا الحرص على الشواطىء من أخطار التآكل .

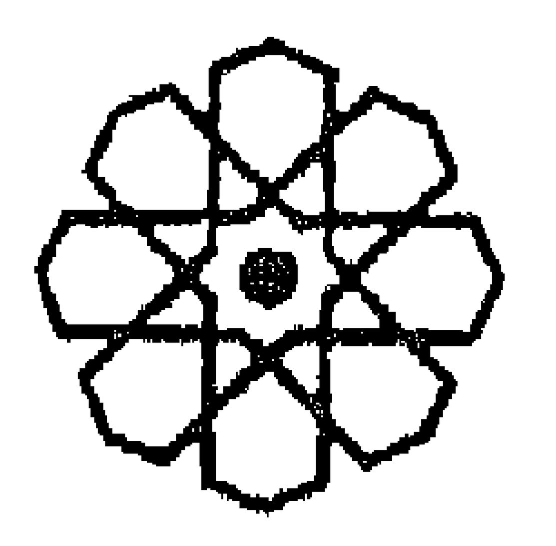
هذه العناية بمستوى الخصوبة في الأرض الزراعية .

هذه العناية برفع مستوى الانتاج الزراعي باختيار واستنبات بذور أقوى وأشد مقاومة للآفات .

نماذج ونماذج إذا كان غيرنا يسعى إليها ، من أجل رفع مستوى الحياة المادية ، دون ربطها بأصولها الدينية ، فما أحرانا ونحن نسعى اليها بدوافع الدين والحياة ، أن تكون لنا مساهماتنا الايجابية في هذا المجال .

مشاركة

وإن إيماننا بهذه النظرة التي يوجهنا إليها ديننا وعاش بها رسولنا ، يفرض علينا ألا تظل قوانا حبيسة الأماني ، وإنما علينا أن نطبق هذه النظرة في جامعاتنا ومعاهد بحثنا ومختبراتنا ، فتكون كلها ــ عمليا ــ معابد علم ، تعبر عن إيماننا ، بمزيد من الفكر والعمل والانتاج ، وتضيف إلى الجهود العالمية في عمارة الحياة وصداقة الكون ومكوناته ، ما نستطيع به أن نتقدم على طريقنا الصاعد حيث يلتقي الإيمان بالعلم والعمل .



نظرة الرسول إلى الانسان

نظرة الاسلام الى الانسان كما يحددها القرآن الكريم : اننا جميعا من نفس واحدة .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذي تَساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا » (النساء : ١) .

ونحن ـ كما يعلمنا الرسول الاعظم ـ أسرة كبيرة واحدة « ان ربكم واحد . وان أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب » قال هذا في خطبته المشهورة في حجة الوداع .

الوحدة في التنوع

وتنظر حولك فترى الناس مع وحدة الخلق والأصل متباينين : تختلف ألسنتهم وألوانهم وتصرفاتهم ، ويشرح لنا المصطفى (ص) ذلك في قوله : « ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض . فجاء بنو آدم على

قدر الأرض : منهم الاحمر والابيض والاسود : وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والخبيث والطيب » (رواه أحمد والترمذي وأبو داود عن أبي موسى - مشكاة المصابيح للتبريزي ١ : ٣٦) .

هذا الحديث يلفتك الى ما حولك من ظواهر الأرض في صخورها ، وتربتها المتباينة لونا ، وفي سطحها المتباين انبساطا ووعورة ، وأنت تنظر الى ذلك كله فتراه في تنوعه متكاملا . . إنه الارض التي تضم ذلك كله . وأنت ، ألست من هذه الارض؟ مصداقا لقول الله تعالى :

« والله أنبتكم من الارض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا » (نوح : ١٧ - ١٨) . فليكن الانسان وحدة هذه الارض مصغرة بكل ظاهراتها ، بل ان هذا الشعاع النوراني الذي تراه في وحدته ، ألا يجمع الوان الطيف كلها ؟ ومنه تبدو الالوان اذا ما مرت على منشور زجاجي ، أو انعكست كقوس قزح في صفحة السماء ؟

وأنت مدعو بدعوة الرسول الى أن ترى هذا الانسان في وحدته الاولى . . وألّا تفقد هذه الوحدة وأنت تراه متنوعا . واذا ما أخذنا اصطلاحا حديثا كان الوجود الانساني قائما على أساس « وحدة الانسان في تنوعه » .

لا عصبية

وهذا التباين لا يعدو عند المصطفى (ص) أن يكون مظهرا لقدرة الله تعالى . . وآيات للتدبر وزيادة القرب من الله بالعبادة ، ومن الناس بالإحسان اليهم .

أما أن يتخذ البعض - في عصور وأقطار - من هذا التباين مادة استعلاء

أو انتقاص ، ويحاولون تقسيم المجتمع على أسس لونية أو طبقية أو عنصرية فأمور جاء الاسلام ليضع لها ميزانا لا تضطرب به الحياة ولا يضل الأحياء .

يقول عليه الصلاة والسلام « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » (أبو داود عن جبير بن مطعم ـ المشكاة ٢ : ٥٩٥) .

ويفرق بين حب الانسان لقومه ، وهو أمر فطري ، وبين الانحياز اليهم بالباطل ويسأله رجل :

ـ يا رسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟

قال : لا . ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم (أحمد وابن ماجة ، المشكاة : ٢ : ٥٩٦)

وما زالت التفرقة العنصرية من أخطر ما تتعرض له الانسانية في عصورها المتتابعة ، وعليها تقوم أمم وشعوب وأديان ، تهدر كرامة الانسانية في جوهرها الواحد ، وتقف عند حدود القشرة اللونية أوالمكانة الاقتصادية والتقسيم الاجتماعي ، بينما أعطت جماعة المسلمين في مكة ومجتمعهم الاول في المدينة النموذج العملي لهذا الإخاء .

نماذج من فجر الاسلام

١ ـ فمن الناحية اللونية : كان فيهم بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي .

٢ ـ ومن الناحية الاقتصادية : كان فيهم الثرى السابق الى الاسلام كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، والفقراء كآل ياسر .

٣ ـ ومن الناحية الاجتماعية : كان فيهم قوم من ذؤابة قريش ، كمن

آمن من بني هاشم ، وقوم من غمار الناس .

٤ ـ وكان فيهم مهاجرون من مكة ، وأنصار من المدينة . وبعبارة أخرى :

جمعت المدينة بين عناصر من أصول عدنانية وقحطانية ، وهما القسمان الرئيسيان لعرب الجزيرة .

٥ ـ وكانت فيهم أعمار متباينة جمعها الايمان في ظلال الاسلام والنبوة . فمنذ الهجرة كان الرسول في الثالثة والخمسين من عمره . وكان مصعب بن عمير دون العشرين أو زهاءها . وكان عبدالله بن الزبير ـ ابن أسماء بنت أبي بكر ـ أول من ولد مسلما للمهاجرين في المدينة .

فالمجتمع الاسلامي الاول لا نستطيع أن نقيمه على أساس لوني أو طبقي أو اجتماعي وانما كان خلاصة للانسانية ونموذجا لها ، كما يبدو من الخريطة المرفقة .

ويطيب لكثير من الكتاب أن يذكروا أن الوظيفتين الرئيسيتين في مسجد المدينة وهما الإمامة والأذان كانتا تمثلان هذا الاخاء الانساني الكريم : الاولى للنبي العربي القرشي الهاشمي والثانية لبلال الحبشي .

التفاضل بالتقوى

ويوضح الرسول (ص) أساس التفاضل في الحياة . وانه أمر نسبي يستطيعه من أراد أن يبتغي الى ربه سبيلا ، فيقول حاثا الناس على العمل الصالح في خطبة الوداع :

« ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى . ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وهذا العمل الصالح تتنوع مظاهره ومجالاته ولكن هدفه واحد ، وهو صالح الدين والمجتمع ، مع اخلاص النية فيه لله .

واذا عدنا الى فصول المناقب من كتب الحديث الصحيحة وجدناها تذكر مناقب المصطفى (ص) والخلفاء الراشدين ، وبقية العشرة المبشرين بالجنة ، وأهل البيت النبوي وأزواج الرسول ، وتأتي بعد هذا مناقب الصحابة رضوان الله عليهم دون نظر الى أوضاعهم الاجتماعية أو الاقتصادية .

ومع أن المشركين كانوا اذا حاوروا الرسول (ص) يودون لو صرف الفقراء عن مجلسه ، الا اننا نقرأ توجيه الله لرسوله ورعايته لهؤلاء :

فعن سعد قال : كنا مع النبي (ص) ستة نفر فقال المشركون للنبي (ص) اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما . فوقع في نفس رسول الله (ص) ما شاء الله أن يقع . فحدث نفسه فأنزل الله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) . (الأنعام : ٥٢) رواه مسلم .

ويبدو من هذا الحديث ونظائره ، ما كان يحاول المجتمع الاسلامي أن يزرعه في حقل الانسانية ، من قيم جديدة ، وموازين للبشر على أساس من أعمالهم ، بعد أن تيبست أوضاعها قرونا على موازين التفرقة الاجتماعية والاقتصادية .

ومع أن أبواب المناقب تعرضت لكثير من التمحيص ، باعتبارها قد تكون مدخلا الى أنواع جديدة من التفرقة والتمييز بين القبائل ، يستند الى ما ذكر لها الرسول من فضل أو ما نسب الى الرسول أنه قاله ، فإن الحقيقة القرآنية الكبرى تبقى في اشراقها وحيا منزلا من عند الله . . . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وما دام التفاضل في الحياة بالتقوى ، وليس على الانسان في نظر الرسول قيد من وضع اجتماعي أو اقتصادي أو لوني ، فله أن يبدع في المجتمع قدر ما تستطيع مواهبه أن تطيق ، ولنأخذ نماذج لذلك .

١ ـ حين يجد الرسول (ص) من بعض أصحابه تفوقا في حفظ القرآن يدعو الآخرين الى الأخذ منهم فيقول « استقرئوا القرآن من أربعة : من عبدالله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل » متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو ـ المشكاة ٢ : ٢٧٠ .

٢ ـ وهو يشجع ثابت بن قيس بن شماس على الخطابة . وكان خطيب الانصار . . وعندما نزل قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . . » الى آخر الآية (الحجرات : ٢) جلس ثابت في بيته ، ظنا منه أنه رفع صوته فوق صوت النبي فحبط عمله ، فلما بلغ ذلك النبي (ص) قال : بل هو من أهل الجنة (رواه مسلم عن أنس . المشكاة ٣ : ٢٧٣) .

٣ ـ واذا كان خالد بن الوليد هو القائد الذي أرهق المسلمين في غزوة أحد ، واستطاع الالتفاف حول خطوطهم واختراقها ، وكسب منهم جولة من جولات هذه المعركة ، فان طاقته بعد اسلامه تحولت الى خدمة الاسلام ، ولم يكن موقعه وهو على الكفر في غزوة أحد ، حائلا دون أن يسند اليه الرسول المهام الكبيرة في الاسلام ، وأن يسميه « سيف الله » وهكذا كان في حروب الردة مع أبي بكر وفي فتوح العراق والشام في عهد الشيخين أبي بكر وعمر .

٤ ـ واذا ما ظهرت من أبي بن كعب مواهب في تعلم اللغات ، فليضم الى كتاب الوحي وليفعل ما يكلفه به الرسول من تعلم اللسان العبري فضلا

عما كان يجيد من ألسنة أخرى وليكن المؤتمن على قراءة ما يرد الى الرسول (ص) بهذه الالسنة من خطابات واعداد الردود عليها .

٥ ـ واذا ما ظهرت في أم عطية رغبة ودربة في تمريض الجرحى ورعاية شئونهم في المعارك والمدينة فليوفر لها الرسول (ص) هذه الفرص وليسند اليها هذه الأعمال .

وهكذا تستطيع أن تراجع من أنشطة الصحابة رجالا ونساء مجالات متعددة فتحتها لهم قدراتهم ، أو وجههم اليها الرسول (ص) ، ولم يضع قيدا على أي منهم اذا ما أراد أن يتقدم بخدمته الى المجتمع فيما يحسن .

مواقف الناس من الاسلام

ويعود الرسول (ص) في أكثر من حديث الى تشبيه صنوف الناس بصنوف الأرض في مدى تقبلها للخير .

وأنت في القرآن الكريم تجد كثيرا من الترابط بين آيات نزول الوحي ونزول المطر : هذا تحيا به القلوب ، وهذا تحيا به الأرض بعد موتها ، نكتفي منها بنموذج واحد من سورة الرعد :

« أنزلَ من السماء ماء فسالت أوديةٌ بقدرِها . فاحتمل السيلُ زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثلُه . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض . كذلك يضرب الله الأمثال . للذين استجابوا لربهم الحسنى . والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومِثْلَه معه لافتدوْا به . أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنمُ وبئس المهاد . أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ انما يتذكر أولوا الالباب » (الرعد : ١٧ - ١٩)

أما في الحديث الشريف فنقرأ قوله عليه الصلاة والسلام .

« مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب (وهي الأرض الصلبة التي تمسك الماء) أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » متفق عليه عن أبي موسى . (المشكاة ١ : ٥٤) .

وأنت اذا ما أدرت النظر حولك وجدت هذه الصنوف من البشر : القلوب الطيبة كأنها جنة بربوة ، تقبل أرضها الماء وتثمر ، يتمثل فيها القبول والعطاء ، وأرض صلبة لا تستفيد من الماء وانما يستفيد منه غيرها . وثالثة تمسك ماء يستقي منه الناس ، ولا تنبت كلأ ترعاه الماشية .

ولا يقتضي هذا ان تجمد القلوب على مواقفها : فالقلوب الصخرية قد تنفجر منها بعد حين ينابيع الخير ، وان من الحجارة ما يتفجر منه الانهار . . والصخر الأصم قد يتحول الى تربة خصبة مثمرة ، اذا ما تابع المطر النزول عليه أو جرى عليه الماء . والأرض المستوية قد تتجمع عليها الرواسب ، وتصبح صالحة للزراعة وقد يلين سطحها فيحفظ الماء للناس والانعام ، فالأمر تفاعل مستمر ، وبعض القلوب أسرع تقبلا من بعض ، فلنعرض قلوبنا للخير حتى تستقبل منه الكثير ، وتزداد مع الأيام له قبولا .

التراحم

ورسم الرسول (ص) بسلوكه وتوجيهه الأساليب التي تعين على تماسك المجتمع واحترام الانسان : صغيرا أو كبيرا ، رجلا أو امرأة ، مسالما

أو محاربا ، وكلها تنبع من أساس واحد هو محبة الانسان واحترامه . . ولنأخذ نماذج متكاملة لذلك :

١ ـ فهو يدعونا الى افشاء السلام بيننا . والسلام ليس مجرد كلمة تقال ولكن رغبة حقيقية في أن تقوم العلاقات على أساس من حب السلام وهو في ديننا من أسماء الله الحسنى . ويعلمنا المصطفى (ص) فيقول :

« لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنون حتى تحابوا . أولا أدلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم « مسلم عن أبي هريرة . المشكاة ٢ : ٥٣٧) .

٢ ـ ويدعونا الى التصافح والتهادي « تصافحوا ، يذهب الغل ، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء « مالك عن عطا مرسلا . المشكاة ٢ : ٥٥١)

٣ ـ ويدعونا الى صلة الرحم « من أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره فليصلْ رحمه » (متفق عليّه عن أنس . المشكاة ٢ : ٥٩٨)

٤ ـ ويخص الوالدين بمزيد من البر ، ويسأله رجل عن حق الوالدين على ولدهما فيقول في حديث من جوامع الكلم « هما جنتك ونارك » (ابن ماجة عن أبي امامة المشكاة ٢ : ٦٠٣) .. طاعتهما جنة والى الجنة تقود . .

٥ ـ ويمد يد البر والرحمة الى اليتيم فيقول خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه » (ابن ماجة عن أبي هريرة . المشكاة ٢ : ٦٠٩) .

٦ ـ وتمتد مظلة الخير في الاسْلام لتشمل الناس جميعا فيقول : الخلق عيال الله . فأحب الخلق الى الله من أحسن الى عياله (البيهقي في شعب الايمان عن أنس . المشكاة ٢ : ٦١٣) .

٧ ـ وتظل هذه الرحمة قائمة حتى اذا ما اضطر المسلم أن يحمل من أجل

الحق سلاحا ويوصي جيشه قائلا : « اغزوا باسم الله في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه . المشكاة ٢ : ٣٨١ الغلول..الخيانة في الغنيمة . والتمثيل : التنكيل .

وهذا التراحم ـ وهو أول ما يطالعنا به القرآن الكريم وصفا لربنا الرحمن الرحيم ـ يقتضي منا دائما أن نحفظ هذا الانسان وننميه وأن نوفر له البيئة الأسرية الصالحة ، حتى قبل أن يولد ، عن طريق اختيار الاب والام . وأن نرعاه في طفولته وفي صحته ، ثم نتابع رعايته في تعليمه ، واعداده للحياة وتأكيد الدين في قلبه وعقله ، ثم نفتح له باب العلم والعمل ما دام قادرا عليهما ، وباب الرعاية حين تقعد به القدرة .

وفي الاسلام لا ينفصل المضمون الاجتماعي عن المضمون الاقتصادي عن الأساس الديني الذي تقوم به الحياة .

واذا كان طلب العلم في الاسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فان الزكاة في الاسلام هي صنو الصلاة . ومسؤولية الدولة والمجتمع عنها قائمة . ولعل حروب الردة تمثل نموذجا فريدا في تاريخ الانسانية . وقفت فيه الدولة الى جانب حق الفقير بسلاحها ضد جموع الاغنياء ورغبتهم في التحلل من هذه الفريضة . ذلك لأن الفقير والغني والحاكم والمحكوم . . كلهم محاسب على ما يعمل ويجزى به .

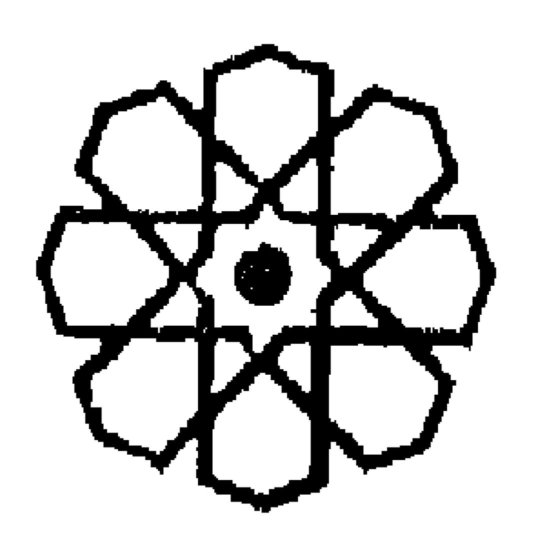
وفي حياتنا المعاصرة

والاسلام ـ على هذا الأساس ـ لا يقبل قسمة العالم الى الذين يعرفون والذين لا يعرفون . ولا قسمته على أساس الذين يملكون والذين لا يملكون .

ويستهدف اخاء شاملا يكون فيه العلم وموارد الحياة مجال تعاون انساني ، وليست أسلحة في يد الاقوياء يشهرونها في وجوه الضعفاء .

ان الانسان الذي ترسم صورته أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، هو الذي رأينا نماذجه في صدر الاسلام ، وحاولنا أن نبين أبرز ملامحه ، وما أشد حاجتنا كبشر الى أن نترجم هذا الهدى النبوي الى حياة نابضة .

ان هذا الهدى النبوي ليس ماضيا انقضى . ولكنه شروق متجدد يستوي عنده الماضي والحاضر والمستقبل ، وما أكبر أن تكون مجتمعاتنا الاسلامية نموذجا لهذا الهدى تقدمه الى الانسانية في مسيرتها المستمرة نحو تحقيق كرامة الانسان .



الهجرة حركة نحو المستقبل

هذا الحديث مع مطلع العام الهجري الجديد ١٣٩٧ . وهو تاريخ يستوقف النظر ، فبعد ثلاث سنوات ، ينتهي القرن الرابع عشر الهجري ، ويبدأ القرن الخامس عشر . وقد تداعى العالم الاسلامي خلال عامنا هذا ، ممثلا في مؤسساته الكبرى ، الى احتفالات ترقى الى جلال هذه الذكرى ، ولاتقتصر على لقاءات وكلمات تقليدية .

وسبق هذا احتفالات في عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٨م) كانت بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على بدء نزول القرآن الكريم ، ارتبطت في ذهني بمفهوم الهجرة .

وكان من قدر الله ، أن أحضر هذه الاحتفالات في سريلانكا (سيلان) ممثلا للحكومة المصرية ، وامضيت في هذه الزيارة نحو أسبوعين زرت خلالها مراكز التجمع الاسلامي في الجزيرة ، وهي منتشرة على سواحلها الأربع ، وعلى سهولها وجبالها .

العربي العدد ٢١٨ يناير ـ كانون الثاني ١٩٧٧ م

نشيد وزهور بيضاء

ومازلت اذكر يوم الزيارة الاول ، وكان برنامجا حافلا ، بدأنا فيه من كولمبو ـ العاصمة ـ وتابعنا زيارتنا الى كاليليا وكاندى ، ثم أخذت السيارة تصعد بنا الطريق مع الليل الى « نوارا ـ ايليا » (اي زهرة الجبل) ، لا تسمع على طول الطريق الا صوت خرير المياه تتفجر به العيون ، أو تتدفق به الروافد . وتزداد البرودة مع الارتفاع وتضيع آثار الجو الحار الرطب الذي تركناه وراءنا في كولمبو . حتى وصلنا الى غايتنا مع انتصاف الليل ، نستدفيء في حجراتنا ونستعين بالشاي الساخن على عناء الرحلة الطويلة .

كنا ظهرا في كاليليا ومن برنامج الاحتفال أن تلقي بنات صغيرات نشيدا اسلاميا ـ باللغة العربية ـ فيه مدح للمصطفى عليه الصلاة والسلام :

الخضرة حولنا في كل مكان ، الجبل يرتفع في عمق المنظر حتى تغيب ذوائبه في السحب العالية . البنات في ثيابهن البيضاء الكاسية ، تبدو منها الوجوه والايدي ، كأنهن زهور بيضاء وسط الخضرة ، صوت النشيد طفولي بريء تحس تموجاته كأنها أجنحة طيور نورانية .

تذكرت ابنتي الصغيرتين ، رأيتهما ـ بعين قلبي ـ بين المنشدات في الصف أمامي . بين الجميع ملامح متشابهة : الايمان بالله وحب رسوله (ص) . من فوق الجبال وعلى ضفاف الأنهار ومن قلب الصحراء وجوف الغابة يتجهون جميعا الى البيت العتيق ويحنون الى المدينة المنورة حيث هاجر الرسول (ص) وأقام قاعدة الاسلام الأولى .

ورأيت أمانة التوحيد والاخاء الانساني ، وديعة غالية ، يسلمها جيل الى جيل ، ويحملها ساكن السهل الى ساكن الجبل وراعي الابل الى ملاح السفين . ومع نهاية كل رحلة ، تبدأ رحلة جديدة ، في هجرة مستمرة بالحق لا تنقطع .

الذين هاجروا بالحق الى مشارق الأرض ومغاربها .

الذين حملوه الى الجزائر القصية والعالم الجديد .

الذين نقلوا مبادئه الى لغات هذه الشعوب جميعا .

الذين عاشوا به وجعلوا من حياتهم نموذجا حياله .

الذين طوروا وسائل الدعوة اليه ، لتعيش عصرها ، وتكشف مستقبلها .

كل أولئك مهاجرون ، تتحقق بهم روح الهجرة ، في حركتها الدائمة نحو المستقبل .

كانت هذه المعاني تدور في نفسي وأنا أسمع صوت الصغيرات في كماها . هناك مع السفوح الخضراء من جبال سريلانكا . وانا احاول أن أحبس دموعا توشك ان تفيض بها عيني مع الرذاذ الخفيف المتساقط .

وكنت احس لحظات انني لست في هذه الأرض وكأن اصوات مديح المصطفى (ص) تأتي من أفق أعلى ، أو ترفعنا الى أفق أعلى .

وتوقفت الزهور البيضاء عن النشيد في ختام حنون ، ودعيت الى الحديث ، فكان عن قصة الايمان وهجرته من قلب الجزيرة العربية حتى وصل الى هذه القلوب الطاهرة ، وكم من الآباء والأبطال المجهولين حملوا أمانته حتى جمعنا هذا اللقاء . وتحدثت عن واجبنا نحو أبنائنا في رعايتهم بالعلم والايمان والاخلاق والأخذ بيدهم على طريق المستقبل .

الايواء والانطلاق

ونعود الى الهجرة في نظرة تحليلية تبدو بها جوانب من حكمة الرسول (ص) في اختيار دار الهجرة .

لقد سبق له أن دعا أصحابه للهجرة الى الحبشة قائلا :

ـ لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد . وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه .

فهجرة الحبشة ـ بنص الحديث الشريف ـ مؤقتة . وهي محدودة الهدف والمدة : هجرة ايواء لمجموعة من المسلمين ، حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه .

وفي هذا تختلف اختلافا جوهريا عن الهجرة الى المدينة ، عندما قال للانصار في بيعة العقبة :

ـ أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

ولهذا الموقف مسئولياته التي أدركها الانصار من أول الامر . وقد يؤدي الى حروب من أجل ذلك . تعاهدوا مع الرسول على الوفاء بحق الاسلام وحمايته والبقاء في المدينة معا بعد النصر .

ويعود القوم في بيعة العقبة الأخيرة ، الى تأكيد ذلك وزيادة ، يقول عنها عبادة بن الصامت ، أحد نقباء الانصار :

ـ بايعنا رسول الله (ص) بيعة الحرب على السمع والطاعة ، في عسرنا ويسرنا ، منشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وان لاننازع الأمر أهله . وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

سيدعون الى الله وسيلقون عداوات على طريق الحق ، وقد يضطرون الى رفع سيوفهم دفاعا عن ذلك الحق ، وصيانة لقاعدة الاسلام في المدينة ، وحماية لانفسهم ونسائهم وذراريهم . وكل ذلك كان .

فرق كبير بين الهجرة الى الحبشة والهجرة الى المدينة . فهنا في قلب الجزيرة العربية ، يمكن أن تقوم للاسلام قاعدة ، ينزل فيها القرآن العربي المبين ، ويتابع مسيرته من نفس الأرض التي سعدت بالوحي أول مرة .

كان من الممكن أن تكون الهجرة الى الطائف حيث ثقيف وقوتها . وقد قصدها الرسول (ص) ، فرده أهلها ردا غير جميل .

وقد عرض نفسه على القبائل . ولكن العرض كان عربيا في أرض الوحي .

من أجل ذلك ما ينبغي أن ننظر الى الهجرة « كخروج » من مكة . كمجرد ترك موطن الى مكان آخر . ولكنها « حركة محسوبة » : فينبغي أن تتوفر في دار الهجرة الجديدة ، مميزات مكانية وبشرية تجعلهاقاعدةصالحةلانطلاق الاسلام .

وبعبارة أخرى نستطيع القول : إن الهجرة كانت من الجزيرة العربية الى الجزيرة العربية . كانت هجرة داخلية ، في موطن كبير اختاره الله لنزول وحيه وختام رسالاته بمجيء الاسلام .

وكانت لدار الهجرة الجديدة قوة جذب ، حلت بها محل الحبشة في الايواء فعاد من هاجر اليها ليسكن المدينة ، وليعمَل فيها مع العاملين ، وليتخذ منها سكنا وحصنا وقاعدة ينطلق منها الاسلام على صعيد عالمي يحمل به رحمة الله المهداة . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الانبياء : ١٠٧) .

العلم والايمان

وكما كانت الهجرة حركة محسوبة نحو المستقبل وانطلاقا الى آفاق جديدة ، كانت لقاء متوازنا بين التخطيط العلمي كأدق ما يكون التخطيط ، والايمان بالله أعمق ما يكون الايمان .

والذين شاركوا في نجاحها لهم مسئولياتهم من الناحية الموضوعية ، وتوقيت أدائها ، وطريقة هذا الأداء ، وتنسيق أداء هذه الجهود ، كل أولئك في اطار علمي واضح المعالم تظله رعاية الله وحفظه .

المصطفى (ص) المهاجر يحتاج في رحلته الى :

- صحبة تعرفه مواقع القبائل وتؤنسه .
- دليل يعرف الطرق .
- راع يعنى بالرواحل وليكون في عون الرسول (ص) وصاحبه ، ومن هؤلاء تكون الركب المبارك .

أبوبكر له معرفته بالقبائل والانساب . عبدالله بن أريقط دليل ماهر ، عامر بن فهيرة أردفه أبوبكر وراءه ليكون في خدمتهم .

ولكن قبل هذه الرحلة كانت استعدادات ومسئوليات محددة .

ولنلجأ فيها إلى طريقة « تقدير الموقف » نطرح السؤال أو المشكلة ونرى الاجابة .

* ان الرسول (ص) يعيش في مكة وهو محل ثقة القوم رغم العداوات من أجل الاسلام . يحاربونه ويثقون فيه . يكذبونه ويضعون عنده ودائعهم . فاذا ما هاجر فمن يرد الودائع ؟

ج ـ ان رد الودائع أساسي . فهو الصادق الامين وحاشاه أن يخون أمانته . وأقرب الناس اليه ابن عمه علي بن أبي طالب فلينم في فراشه ليلة الهجرة وليرد الودائع بعد هجرة المصطفى (ص) وليلحق به بعد ذلك .

* ولكن أيخرج الى المدينة مباشرة ، أم يختار مكانا قريبا يأوي اليه بعض الوقت ؟ واذا اختار فما أهم مواصفات المكان ؟

ج ـ كان أمامه أن يتجه الى الغرب نحو الساحل ثم يتابع سيره شمالا حيث الطريق أمامه ممهد ولكنه مكشوف . وكان أمامه ان يتجه شمالا حيث الهدف المقصود ولكنه سلك طريقا ثالثة :

لقد اتجه إلى الجنوب الشرقي ، وهو آخر وجه يظن أعداؤه أنه اتجه اليه ، واختار مكانا وعرا صعب المرتقى ، وهو ـ في الثالثة والخمسين من عمره ـ وتقول بعض الروايات ان أقدامه دميت على الطريق .

* هو في الغار يحتاج الى تتبع الموقف في مكة فمن يقوم بذلك ؟

ج ـ ان عبدالله بن أبي بكر ، : يقضي سحابة يومه بين القوم يسمع ما يقولون ، ويعود الى الغار مساء ليقدم الى الرسول (ص) « تقريرا يوميا » عن مكة ، وينطلق في الصباح الباكر الى مكة .

* وما شأن الطعام ؟

ج ـ تكفلت به أسماء بنت أبي بكر ، تعد الطعام وهي حبلى متم ، تحمله الى الغار .

* ان العرب مهرة في قص الأثر ، هذا عبدالله بن أبي بكر واخته يقطعان الطريق بين مكة والغار ؟

ج ـ كان على عامر بن فهيرة . راعي ماشية أبي بكر ، أن يروح الى الغار ويمضي بماشيته على آثار عبدالله واسماء وليحلب للرسول من البانها ما يشاء . فالتغطية على الآثار مكفولة ، كما أن الطعام والأخبار مكفولان .

توازن بين الايمان والعلم

* اذا كانت هذه خطوط الاتصال بمكة ، فما خط الاتصال بالمدينة ؟

ج ـ كان عبدالله بن أريقط يرعى الرواحل ويستطيع عامر بن فهيرة وهو راع مثله أن يلقاه ليخبره متى يحضر برواحله الى فم الغار . أرأيت كيف أن كل صغيرة وكبيرة من أمر الهجرة كانت محسوبة بدقة ، فاذا بذل الانسان هذا الجهد كله ، وقصر الجهد عن بلوغ الغاية أدركته رحمة الله ترعاه في أمره .

* ولكن ما دور الايمان هنا ؟

ج ـ أدرك القوم فم الغار حتى أحس بهم الرسول (ص) وصاحبه ابوبكر يقول : لو نظر احدهم الى موضع قدميه لرآنا . والرسول الكريم يطمئنه كما جاء في سورة التوبة « لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » .

* والطريق إلى المدينة ؟

ج ـ لك أن تقسمه الى ثلاث مراحل : الاولى مرحلة الغار ، والثانية سلوك الطريق الساحلي مع تجنب الجادات المطروقة ، والثالثة الطريق الجبلي مع اختيار اماكن غير مطروقة وان كان فيها بعض أخطار ، أعانهم الله عليها بهداية من حاولوا اعتراض طريقهم فيها من غير قريش .

صورة الهجرة تخطيطا وتنفيذا هي توازن بين الايمان والعلم . والايمان في جوهره علم . والعلم : أنت تسلك سبله مؤمنا بأن الله أمرك بهذا . وما أعمق قول الله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (فاطر : ٢٨) أهل خشيته ، وكلما ازدادوا علما ازدادوا اقترابا من ربهم . العلم الذي يسجد به العالم في محاريب الكون ايمانا بخالقه ، وشكرا لنعمه ، واحساسا ببديع صنعه .

صناعة المستقبل

إن الذين قاموا بالهجرة قبل الرسول (ص) ومعه ومن بعده الى المدينة ، بذلوا جهودهم من أجل صناعة مستقبل الاسلام . وعندما جاءوا المدينة وجدوا امامهم مشكلات متنوعة :

ـ توحيد الصف الاسلامي وتأكيد معاني الإخاء فيما بين المهاجرين والأنصار ، وفيما بين قبائل الانصار وبخاصة الأوس والخزرج .

ـ جيوب المنافقين ولها روابطها مع قبائل المدينة الكبرى وقبائل اليهود .

ـ اعادة التنظيم الاقتصادي في المدينة : مشكلات الربا . توزيع الثروات . الزكاة . التكافل .

ـ حماية المدينة داخليا وخارجيا ، واعداد القوة الضاربة اللازمة لذلك .

ـ العلاقات السياسية على مستوى الجزيرة مع قريش وشيوخ القبائل ، وعلى المستوى الدولي مع دول الفرس والروم

كثيرة كانت مشكلات المستقبل ، فوراء الهجرة من مكة الى المدينة ، هجرة دائمة من الحاضر الى المستقبل ، بحيث لا يصبح المستقبل مجرد تكرار للحاضر ، وانما صعودا به ليقابل مشكلات الحياة المتجددة .

فروح الهجرة تجديد وانجاز في اطار العقيدة التي أمرنا ربنا ان نقيم وجوهنا لها .

وتقتضي منا ، مع عالمنا الاسلامي المعاصر ، ان نتعاون في بناء مستقبله على وضوح ولكن أود أن أقول :

إن نمط العالم الاسلامي يمتاز بتنوع يدعو الى التكامل والتعاون . وان نواته ـ ممثلة في الوطن العربي ـ تعكس هذه الصورة .

اليد العاملة . رؤوس الأموال . الخبرة الفنية . الارض الزراعية . المراعي . الثروة المعدنية . الطاقة ، . . كل أولئك متوفر اذا نظرت الى العالم الاسلامي في وحدته الكبرى . وفي كل قطر من اقطاره مصدر من مصادر التطوير .

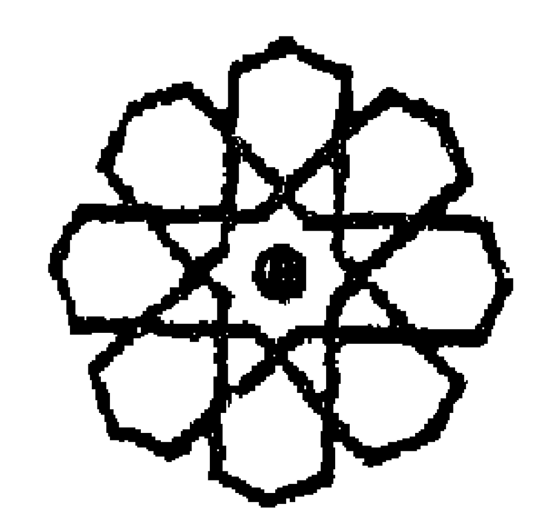
ونمط الاقطار الاسلامية اذا نظرنا الى كل منها على حدة ، يختلف عن نمط الوحدات السياسية الكبرى ، كالولايات المتحدة الامريكية أو الاتحاد السوفيتي أو الصين .

واذا كان غرب أوروبا بكل امكاناته يسعى إلى التعاون الوثيق بسوق أوروبية مشتركة ، ورغبة في إنشاء برلمان أوروبي وخطوات متتابعة في هذه السبيل ، فليكن من أهدافنا ان نخطط لهذا التعاون الاسلامي الكبير لنستقبل به القرن الخامس عشر الهجري ، ولنحاول مع توفر مصادر القوة فيه ، في هذه الحقبة من الزمن ان نجعل منه نهضة كالتي شاهدها الاسلام في القرن الربع الهجري مثلا

وأعلم أن مشروعات تستهدف هذا الغرض النبيل قدمت في لقاءات وزارية لمنظمة المؤتمر الاسلامي ، وغيره من اللقاءات التي عقدتها جامعات اسلامية ولكن الذي نحتاج اليه ، ان تتبلور هذه المشروعات في خطط واضحة المعالم ، متتابعة المراحل ممكنة التنفيذ .

وسيكون لهذا العمل أثر كبير على الأوضاع العالمية ، فالسلام في الاسلام له قداسته . وهو من أسماء الله الحسنى . والحضارة الاسلامية ـ بطبيعتها ـ تحارب القهر والاستغلال وامتصاص ثروات منتجي المواد الخام ، والخضوع لمن يحاولون أن يجعلوا من العلم سلعة أو سلاحا . ودخول هذه الاخلاقيات بقوة في التكوين الحضاري العالمي سيكون في ميزان الخير والسلام .

فهل نستطيع أن نهاجر بحاضرنا إلى هذا الغد ؟ هذا هو المأمول . وبه نستطيع أن نحقق روح الهجرة في حركتها الواعية الصاعدة الى المستقبل .



في ذِكرى المولدِ النبويّ الشريف (سيرة النبي)

. . . « الى يوم الدين لن يستطيع أحد أن ينافس المسلمين في فخرهم بحفظ أدق تفاصيل كل حادث في حياة الرسول ﷺ ، بطريقة دقيقة وواعية ، لايصل الى مستواها تسجيل حياة أي انسان آخر من قبل ، ولايمكن أن ننتظرها من بعد » .

علامة شبلي نعماني

لقاء

في ربيع ١٩٥٢ كنت في كراتشي . وهي وقتئذ عاصمة باكستان . وسعدت بلقاء مولانا سليمان الندوي في صباح باكر . وأحسست أول مالقيته أنني مع روح شفافة ، اكتفت من الجسد بالقليل الذي أبقته معاناة العلم والزهد وقيام الليل والمرض .

وكان من قدر الله أن يبارح « سليمان » دنيانا في عام ١٩٥٣ بعد حياة

العربي العدد ٢٣٢ مارس - آذار ١٩٧٨م

حافلة بدأت عام ١٨٨٤ . هذه الشفافية التي عاش بها ظلت ترق وترق حتى صعدت الى ربها تاركه وراءها انتاجا في رسوخ الجبال . . رحمه الله .

٢ ـ محاضرات السيرة

في لقائنا الأول دار الحديث عن دعم الصلات الثقافية بين أبناء العالم الاسلامي على أن يتفضل بتقديم جانب من انتاجه الى أبناء الوطن العربي .

وفي لقائنا الثاني ، قدم باكورة هذا التعاون ، الترجمة العربية لكتابه « الرسالة المحمدية » وهي ثماني محاضرات في السيرة النبوية ورسالة الاسلام .

وتلاقينا بعد هذا مرة ثالثة في جلسة مع استاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام (رحمه الله) وكان وقتئذ سفيرا لمصر في باكستان .

٣ ـ سيرة النبي

ودار الحديث في هذا اللقاء عن الكتاب الكبير « سيرة النبي » الذي بدأه « شبلي نعماني » (١٨٥٧ ـ ١٩١٤) وأتمه « سليمان الندوي » ولم يكن الدكتور عزام يعدل به كتابا آخر في السيرة في تراثنا الاسلامي . ويضعه على قمة عالية من قمم التحقيق العلمي والاحاطة ، ويتمنى ألا يحرم أبناء اللغة العربية من هذا العمل . حتى انني احسست بعزلة نفسية عندما كان الكتاب قريبا مني بلغته الأردية وحروفها العربية .

وتمر السنون وأسائل من اتصل بهم من اخواتنا في باكستان عن هذا الكتاب ، فاعلم ان النية متجهة الى ترجمته من الاردية الى الانجليزية . ويصدر المجلد الاول في عام ١٩٧٠ والثاني في عام ١٩٧١ .

ولنعد الى الكتاب لنرى كيف وضع « شبلي نعماني » تصميمه الاول في

خمسة مجلدات . ثم تولته يد « سليمان » بالتعديل فاصبح في سبعة مجلدات :

الاول والثاني : ترجمة حياة النبي (ﷺ) مع دراسة عن الجزيرة العربية قبل الاسلام ، ويعد هذا الكتاب خاتمة أعمال « شبلى » . وهو الذي وضع هندسته وكتب معظم فصوله . وكان حريصا في كتابته على الالتزام الدقيق بالنصوص الصحيحة ، والرد على الشبهات التي اثارها كتاب الافرنج عن الاسلام ورسوله .

هذا في اسلوب رائع انيق ، حتى أن بعض فصول المجلد تعتبر ـ كما يقول مسعود الندوي كأحسن ماكتب كاتب باللغة الاردية .

الثالث : خاص بالمعجزات . كتبه والاجزاء التالية ، سليمان الندوي . وله مقدمتان علميتان من الوجهتين الفلسفيتين : القديمة والحديثة ، أثبت فيهما امكان المعجزات وعدم معارضة العلوم العقلية لها .

الرابع : ويبحث في منزلة النبوة ، والفرق بينها وبين منازل الاصلاح والتجديد والزعامة . ثم يبحث العقائد مستندا الى الكتاب والسنة في مزج دقيق بين علومها واسرارها .

الخامس : في العبادات ، والسادس : في الاخلاق ، والسابع : في المعاملات وكل منهاموسوعة في موضوعه .

٤ ـ شخصية الكتاب

ولكل كتاب ـ كأي انسان ـ شخصيته وملامحه الرئيسية . والفكرة الأساسية التي ينطلق منها الكتاب « أن الواجب الأسمى والخدمة الكبرى التي تقدم الى الانسانية أن تجدد وتضبط اخلاقيات الناس وثقافتهم ، والوسيلة المعتادة لذلك هي العظات ، والوسيلة الحديثة هي تأليف الكتب ذات المستوى الرفيع في السلوك ونشرها بين الناس وهناك وسيلة اخرى هي اكراه الناس على

غرس الفضائل ، ولكن أفضل الطرق وأصحها وأكثرها عملية ، ليست الحديث ولا الكتابة ولا الاكراه ، ولكن في ظهور شخص هو التصوير التام للفضائل ، شخص تنعكس فيه الفضائل عمليا . وتعادل كل حركة من شفته عمل آلاف الكتب . وكل اشارة من يده كأنها أمر ملكي . ان الفضائل التي تبدو في دنيانا هي انعكاسات من هؤلاء الرجال المقدسين . أما جميع العوامل الاخرى فلا تعدو أن تكون طلاء وزخرفة في صرح الحضارة (١ : ١ ـ ٢) *

ويتابع شبلي شرح هدفه من الكتاب فيقول بعد هذا :

« ولكن هؤلاء الذين ظهروا قبل الرسول محمد (ﷺ) بعامة كانوا نماذج لفضائل معينة . على سبيل المثال : مدرسة المسيح كانت للتحمل والصبر والسلام والتسامح والتواضع . ولامكان للصفات الرفيعة اللازمة للادارة والحكم ، بينما لامجال فيما جاء عن نوح وموسى للتسامح العام . من اجل ذلك كانت الحاجة الى قائد جديد في كل مرحلة من مراحل الانسانية . . ودائما كان هناك انتظار لجديد يكمل به الدين . القائد الذي يستطيع ان يرفع سيفه ، وأن يعيش معتكفا ايضا . قائد يستطيع أن يمارس حياة الحاكم والفاتح كما يمارس حياة المسكين . والذي يستطيع أن يكون حاكم الدنيا وتاليا لأسماء الله الحسنى ، والذي يستطيع أن يعيش حياة الفقر بالرضى وحياة الغنى بالقلب الكريم . هذا الرسول الكامل بين الخالق والكون . هذه الشخصية المحيطة . هذا التصوير الحي لكلمات الله هو الذروة العليا في خلق الله « اليوم أكملت لكم دينكم » (المائدة ٣)

« وليس هناك من شيء خالد في دنيا الفناء . ومن أجل ذلك لن تعمر فيها هذه الشخصية الكاملة الى الابد . من أجل ذلك كان من الضروري الاحتفاظ بصورتها الكاملة ، كل كلمة منها ، كل اشارة ، كل لمحة من لمحات وجودها . . حتى نستطيع ان نفيد منها في كل مرحلة من مراحل الحياة عندما

* يدل الرقم الاول على المجلد والثاني على الصفحات من كتاب سيرة النبى ط . الانجليزية

نحتاج اليها .

ومن الغريب أن الصورة الكاملة لغير محمد (ﷺ) من الانبياء غير محفوظة . فمن حياة المسيح التي استمرت ثلاثا وثلاثين سنة ، نعرف الأحداث المرتبطة بالأعوام الثلاثة الاخيرة من حياته . المجددون الدينيون في فارس نعرفهم فقط عن طريق الشاهنامة . ولقد ضاع انبياء الهند في القصص والأساطير . والتوراة الموجودة هي المصدر الوحيد للقليل الذي نعرفه عن موسى . . » (١ : ٢ - ٣)

آثرت أن أذكر هذا النص الطويل من شبلى لنرى فيه ثلاثة امور :

١ - حبه العميق للمصطفى ، وايمانه أن تجلية حياته ضرورة انسانية ، وانها وسيلة من وسائل التربية .

٢ -حرارة هذا الحب وجمال أسلوب شبلى في التعبير عنه .

٣ - اسلوبه في الدراسات المقارنة حينما يضع السيرة النبوية في اطارها العالمي بين سير الانبياء والمصلحين .

ولقد جاء القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . وجاء المصطفى (ﷺ) وهو يتلو قول الله تعالى « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين احد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » (البقرة : ٢٨٥) . ففي تجلية صورة المصطفى بكل ما تحمل من تكريم لجميع الانبياء والمرسلين مدد ونور قوي للانسانية في مسيرها الى غدها .

٥ - بين علم الحديث وعلم المغازي والسير

ويعرض شبلى . عند دراسته للباعث على كتابه - الفروق المنهجية بين علماء الحديث وعلماء المغازي والسير فيقول « إن كثيرا من الناس يظن أن السيرة فرع من فروع علوم الحديث . أي أن اختيار مايتعلق بعادات الرسول

واخلاقه وضمها بعضها الى بعض ، يمكن أن يصنع السيرة . فكيف ـ وقد توفرت الكتب الصحيحة كالبخارى ومسلم ـ يمكن القول بأن كتب السيرة ليست في مستوى كتب الحديث من التوثيق ؟

ويوضح شبلى هذه القضية بقوله :

« اولا ، ماهي السيرة ؟ هي عند المحدثين مرادفة للمغازي . فهم يتحدثون عن المغازي والسير . فكتاب ابن اسحق يسمى « المغازي » كما يسمى « السيرة » وينقل عن الحافظ ابن حجر في كتابه « فتح البارى شرح صحيح البخارى » ، في كتاب المغازي . انه يستخدم الكلمتين لنفس الكتاب وتسير كتب الفقه على نفس النهج . فالسيرة تأتي في كتاب الجهاد . ويقصد بالسير الأوامر والرسائل المتصلة بالغزوات والجهاد .

وظل الأمر كذلك عدة قرون ، وحتى القرن الثالث كانت الكتب التي تحمل اسم « السيرة » كسيرة ابن هشام تعني اكثر ماتعني بالغزوات . وجاءت بعد هذا كتب اخرى عن السيرة تحوى كل شيء عنها ، عدا المغازي ، كالمواهب اللدنية للزرقاني » (١ : ٥ ـ ٦ هامش)

من أجل ذلك كانت المغازي والسير ، عند المحدثين موضوعا منفصلا عن علم الحديث . حتى انه في بعض الاحيان كما يقول شبلى (١ : ٦) كان المحدثون وكتاب السيرة يعتبرون جماعتين متنافستين . وفي بعض الاحيان كان كتاب السير يذهبون مذهبا واحدا ، بينما يأخذ البخاري ومسلم جانبا آخر ، واذا كان البعض يرجح مايذهب اليه كتاب السير عند الاختلاف ، فان التمحيص الدقيق يدعو الى الأخذ بالحديث الصحيح .

٦ ـ نماذج

ويضرب مثالا لذلك بغزوة ذى قَرَدْ . فيذهب كتاب السير الى أنها كانت قبل صلح الحديبية ، بينما يذهب اياس بن سلمة عن ابيه في صحيح

مسلم الى انها كانت بعد الحديبية وقبل غزوة خيبر بثلاثة ايام . ويرجح القرطبي ما يذهب اليه كتاب السير ، من أنها كانت قبل صلح الحديبية . ويرى انه ربما اساء بعض الرواة فهم حديث اياس بن سلمة عن ابيه ، بينما يذهب ابن حجر في كتابه فتح الباري الى ترجيح ما جاء في صحيح مسلم على ما جاء عند كتاب السير .

ويلخص شبلى وجهة نظره بقوله « ان السيرة فن منفصل عن علم الحديث . وان اقصى درجات العناية والحذر اتخذها الأئمة الذين قاموا بامر الكتب الستة . وان هذا المستوى من التحقيق لم يستخدم في كل كتابات السيرة » (١ : ٧ هامش) .

ويتابع تفرقته بينهما بقوله :

« ان تفاصيل الأحداث ذات المرتبة الثانية والتي تتطلبها كتابات المغازي والسيرة ، لم تتوفر مع المطالب العالية التي يتبعها علم الحديث ، وان كتاب السيرة كان عليهم أن ينزلوا بمستوى النقد والتحقيق ـ نسبيا ـ عما ارتضاه علماء الحديث لأنفسهم . ومن هنا كانت منزلة كتابات المغازي والسيرة أقل منزلة من علم الحديث » .

فالمعروف أن البخارى ومسلم تجنبا ـ بكل عناية أن يكون في كتبهما حديث ضعيف . بينما لم يلتزم كتاب السيرة بهذا المستوى فيما كتبوا . وبين أيدينا كتب السيرة : كابن هشام وابن اسحق وابن سيد الناس والدمياطي الحلبي ، والعناية فيها لاتصل الى مستوى كتب الحديث .

٧ ـ المحور

فالمحور الرئيسي الذي يدور حول الكتاب هو مستوى التحقيق ، ويقولها بكل تحديد « ليس بين ايدينا كتاب عن حياة الرسول (ﷺ) اعتمد اعتمادا كاملا على الحديث الشريف الصحيح وحده » (١ : ٨ هامش)

وهو في ذات الوقت ـ وبكل التقدير للجهود المبذولة ـ لايهون من شأن مابين ايدينا ، وما ارتضته القرون المتوالية . ولكنه يذكر أننا نقرا بعض الاحاديث الضعيفة في كتب السيرة .

ومن هذه النقطة كانت مسيرته الطويلة في صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام . مسيرة اعترف من أول الامر أنه لايستطيعها وحده .

٨ ـ المراجع

كان عليه ان يجمع عددا كبيرا من كتب الحديث والرجال . وأن يقوم ببحوث ممعنة . وكيف يستطيع وحده دراسة مئات الكتب ، وأن يجمع منها المعلومات اللازمة لكتابه ؟

والى جانب ذلك ، كان عليه أن يعرف ماكتب الاوروبيون عن الرسول (ﷺ) ، ويعترف أنه لم يكن يعرف هذه اللغات الاوربية .

وتغلب شبلي على هذه العقبة بمعونة مجموعة منظمة من الباحثين القادرين الذين يعرفون العربية واللغات الاوروبية المطلوبة ، مما ذلل عقبات الطريق ، فماذا يحول دون السير فيه ؟

ونعود اليه وهو يقول ، وامامه هذا التراث الاسلامي الضخم ، وهذا الحب الكبير للمصطفى : « الى يوم الدين لن يستطيع أحد ان ينافس المسلمين في فخرهم بحفظ أدق تفاصيل كل حادث في حياة الرسول ، بطريقة دقيقة وواعية ، لايصل الى مستواها تسجيل حياة اي انسان آخر من قبل ولايمكن أن ينتظر من بعد ، فمن اجل تسجيل هذه الحياة بأدق تفاصيلها ، قام علماؤنا بتسجيل اسماء وخصائص نحو ثلاثة عشر الفا من الصحابة وتم هذا في وقت كان فجر نظام التأليف .

ولنرجع الى كتب الطبقات وعلم الرجال لنرى فيها هذه الصورة

الفريدة في التراث الانساني . انه جهد لانظير له في تاريخ الانسانية . من أجل حياة فرد واحد » (١ : ٨)

٩ ـ كتابة الحديث في عهد النبوة

ووضح شبلي ـ في تفصيل ـ أن الكتابة كانت معروفة وشائعة في الجزيرة العربية على عهد المصطفى (ﷺ) . وناقش الاحاديث المتعلقة بكتابة الحديث على عهده . وبين أن بعض الصحابة كان يكتبها .

١٠ ـ كتب السيرة

ثم درس كُتّاب المغازي والسير في تسلسلهم التاريخي مع عناية بمناهجهم . وعاد ليؤكد مكانة البخارى ومسلم ، وما التزما به من شروط صحة الحديث ، وضرب أمثلة اخرى تؤكد أن الاعتماد على الحديث الصحيح يحل مشكلات لها اهميتها في كتابة السيرة . ويعجب من عدم استخدام هذه المادة العلمية من الاحاديث الصحيحة في كتابة السيرة لحل هذه المشكلات . .

ويعود ليذكر مثالا آخر مستندا الى ما ذكره ابو داود في سننه من انذار قريش لعبدالله بن ابي ، قبل غزوة بدر ، باخراج الرسول واصحابه والا غزت قريش المدينة . . جاء هذا في كتب الحديث ولم يرد في كتب السيرة ، ولما كانت كتب السيرة قد اتسع انتشارها فقد أصبح من الصعب تصحيح مافيها (١ : ٥٦)

ونمضي في رحلة منهجية مع شبلي تستغرق خمسا وثمانين صحيفة قبل أن ينتقل الى دراسة التأليف الغربي عن السيرة . ويتابع ما عند الغرب من اتجاهات في كتابة السيرة مركزا على القرن السابع عشر وما بعده ، ويورد

قوائم هامة بهذه المؤلفات ، يذكر فيها سبعة عشر مؤلفا في القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين (١٨١٥ . ١٩٠٩) .

١١ - مواقع الافتراء على السيرة

ويلخص النقاط التي ركز عليها الكتاب الاوروبيون في الافتراء على حياة المصطفى (ﷺ) :

١ - انه تحول من النبوة في مكة ، الى الملك والقوة والسيطرة في المدينة ، بكل ما يحمل ذلك من اشعال الحروب والقتل والردع واراقة الدماء .
٢ - تعدد الزوجات والميل الى النساء .
٣ - نشر الاسلام بالقوة .
ط - اقرار الرق وممارسته .
٥ - اتباع الاساليب الدبلوماسية كما يمارسها الحكام الدنيويون .
وقد ناقش الكتاب كل هذه الافتراءات في مواضعها ورد عليها بكل افاضة .

١٢ - الأسس المنهجية

وعرض شبلي بعد هذا الأسس التي اقام عليها جمع وتقسيم كتابه :
١ - ما جاء في القرآن الكريم وهو المرجع الأعلى في السيرة .
٢ - ما جاء في الأحاديث الصحيحة . ويرى أن خطأ كبيرا حدث نتيجة البحث عن الموضوعات تحت عناوين معينة ، فاذا لم يجدوها مالوا الى الحديث الضعيف فاستعانوا به ، بينما في كتب الحديث تفاصيل كثيرة جاءت كأنها حقائق ثانوية ضمن موضوع أساسي ويمكن - مع الدراسة الممعنة - جمع كل

هذه التفاصيل الدقيقة والصحيحة عن حياة المصطفى (ﷺ) من الكتب الستة .

فميزة « سيرة النبي » أن شبلى قد استطاع أن يجمع فيه معظم التفاصيل من كتب الحديث واعاد تبويبها من جديد ، وهي التي لم تجتذب انظار مؤلفين سابقين .

٣ ـ فيما يتعلق بالأحداث اليومية اكتفىء بما جاء به ابن سعد في طبقاته ، وابن هشام في السيرة ، والطبري في التاريخ . واذا ماكان لحادث قيمة كبيرة قام بتحقيقه تحقيقا علميا دقيقا ، واقتضى ذلك اعداد قوائم بالرجال على غرار ماهو متبع في علم الرجال والجرح والتعديل .

٤ ـ اعداد كل هذه المواد السابقة وتحقيقها .

١٣ ـ خطة الكتاب وتعديلها

وقسم شبلى الكتاب بعدهذاالى خمسة مجلدات رأينا في التنفيذ انها عدلت الى سبعة ، وعزم على طبع أي جزء منها بعد انجازه دون تقيد بالترتيب الموضوعى للأجزاء .

١٤ ـ بين شبلى وسليمان

ولنعد الى حياة شبلى الخصبية الر ... عام ١٨٥٧ الى وفاته في نوفمبر ١٩١٤ ولنذكر ان الجزء الاول من الكتاب صدر عام ١٩١٨ والثاني عام ١٩٢٠ ثم توالت الأجزاء .

ما قصة الكتاب بين وفاة مؤلفه دون اكماله ، وصدوره على يد تلميذه الوفى العلامة الكبير سليمان الندوى ؟

هذه القصة تطبيق حى لحب المصطفى (ص) وما تصنعه في النفوس .
ولندع القول لسليمان :

« عندما جاءت مخطوطة الكتاب اليَّ (يقصد الجزءين الاول والثانى بعد وفاة شبلى) أحسست انها تحتاج الى عدة فصول ، بغيرها يظل الكتاب ناقصا . ولم تكن عندى الشجاعة لأن افكر في اضافة أى شيء الى ما تركه المؤلف . ومرت فترة من التردد الطويل ، ثم عزمت على كتابة الفصول التي يحتاج اليها الكتاب ، وبعد أيام عثرت على مجموعة من المذكرات كتبها المؤلف قبل وفاته بخمسة شهور . كانت المذكرات الأخيرة هي رؤوس الموضوعات . ولم يكن لسرورى حدود عندما قرأت المذكرات ، فوجدتها الفصول التى يحتاج اليها الكتاب . وانها تطابق ما أحسست أن الكتاب محتاج اليه فكتبته . ولعلها كانت اشارة من الغيب له أن يضع هذه الخطوط لتكون عونا لى على السير »
(مقدمة المجلد الثانى ٢ : ٢) .

ولقد كان الجزء الخاص بأحوال المصطفى غير كامل . وفي بعض الصفحات فراغات اكملها سليمان ، واضاف هوامش ، وميز ذلك عن الأصل .

وصفوة القول ان المجلد الاول يعنى بالمنهج وما قبل الإسلام وبالسير على أساس من التسلسل التاريخى ، وحياة الرسول فى مكة والمدينة ومغازيه . بينما يدرس الثانى السنوات الثلاث الاخيرة من حياة الرسول ، مع عناية بنشر الدعوة ، ورسله ورسائله ، واستقبال الوفود واقامة المجتمع الجديد ، ونظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ثم يعرض الاسلام كدين : عباداته ومعاملاته وحلاله وحرامه ، ويدرس العام الأخير من حياة الرسول وحجة الوداع .

وبعد أن يذكر وفاة الرسول ، يخصص فصولا لما ترك وراءه ، واخلاقه ونظام حياته اليومية ، ومستشاريه ، والرسول كخطيب (كيف يخطب .

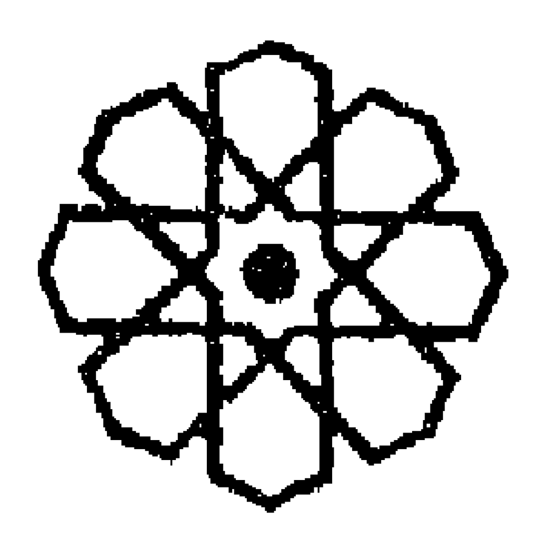
طبيعته . عظاته . تأثيرها) . ثم عبادته واخلاقه وزوجاته وأبناؤه وحياته المنزلية .

ويستغرق المجلدان معاً نحو تسعمائة صفحة في الطبعة الانجليزية .

١٥ ـ هذا الكتاب والقرن الهجرى الجديد

وما أود أن يكون هذا الحديث مجرد تعريف بهذا الجهد الكبير ، ولكن مع احتفالنا بميلاد المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقرب احتفال العالم الاسلامي بمطلع قرن هجرى جديد ، علينا أن نلقى الضوء على هذه القمم الشوامخ من تراثنا لتكون لنا عونا على طريق مستقبلنا .

واقتراحى المحدد هو : أن تتعاون مؤسساتنا الاسلامية العالمية والمحلية ، في هذه المناسبة التاريخية ، على اختيار مجموعة من الكتب ذات المستوى الرفيع ، والتى كتبها علماء مسلمون على درجة عالية من التخصص ، ومن حب الاسلام ، لنجعلها أولا بين أيدي المسلمين ، وثانيا نقدمها الى الانسانية جمعاء . . وليكن بدؤنا بهذا الكتاب ـ باجزائه السبعة ـ كنموذج .



حِوار حَول ترجمات مَعاني القرآن الكريم

هذا الحديث ليس حصرا ولا عرضا لترجمات معاني القرآن المتداولة ، دعاني إلى كتابته ثلاث ترجمات لكل منها طابع خاص ، ومن عرض بعض جوانبها أود أن أنتهي إلى أن الأمر أصبح الآن يحتاج إلى رصد على مستوى إسلامي عالمي ، هو بطبيعته فوق طاقة فرد واحد ، وهو من صميم عمل المجامع والمنظمات الاسلامية ذات الطابع العالمي ، حيث تتوافر إمكانات المتابعة لكل ما يصدر باللغات غير العربية ، وبخاصة اللغات الأوروبية الحديثة ، وتستطيع هذه المجامع أن تنسق العمل فيها بينها : يتولى أحدها ـ كمثال ـ ما يصدر باللغة الانجليزية ، والثاني ما يصدر بالفرنسية وهكذا ، وتحاول ـ متعاونة ـ أن تضع مقاييس المراجعة ، وأن يستمر بينها التعاون والحوار ، وأن تتفق على أساليب إذاعة ونشر نتائج أعمالها .

ولأعرض بعض ما قرأت :

التفسير العثماني :

صدر هذا التفسير أولا باللغة الأوردية التي يتكلم بها مسلمو شبه القارة الهندية الباكستانية ، ثم صدرت بعد هذا الأجزاء العشرة الأولى منه مترجمة إلى

العربي ـ العدد ٢٩٣ ابريل نيسان ١٩٨٣ م

الانجليـزية ، عـلى أن تتبعها الأجـزاء العشرون البـاقية ، وحـول ما صـدر بالانجليزية أدير الحديث .

التفسير بقلم أستاذ جليل هو مولانا شبير أحمد عثماني ، كانت ولادته في الهند عام ١٨٨٥م ، من أسرة علمية في ديوبند (شمال شرقي دلهي) ، وهي مركز إشعاع علمي له تقاليده وإنتاجه الإسلامي المرموق .

وفي دار العلوم بديوبند تلقى علومه ، ومـارس التدريس ، وظهـرت مواهبه كحافظ لكتاب الله وعالم وعابد وخطيب ، وشَرحَ في دار العلوم صحيحَ الإمام مسلم ، واضطرته ظروف السياسة إلى الهجرة إلى دابل على ساحل الهند الغـربي جنوب بـومباي . وفيهـا ألقى محاضـرات وشروحـا لصحيح الإمـام البخاري .

وأعظم أعماله تفسير القرآن باللغة الاوردية ، اعتمد فيه على ما كتب كبار المفسرين السابقين وأعانه على هذا تمكّنٌ علمي وتقوى ، وهما أهم ما ينبغي توافره في المفسر ، وكتب الله القبولَ لتفسيره ، وهو واسع الانتشار في الهنـد وباكستان .

وشارك مولانا شبير في الجهود التمهيدية التي قامت بها الرابطة الإسلامية لإنشاء دولة باكستان الإسلامية . وتعاون مع القائد الأعظم محمد عـلي جناح فكريا في إرساء دعائمها الإسلامية .

وقد توفي إلى رحمة الله عام ١٩٤٩ ودفن في مدينة كراتشي .

المنهج :

اعتمد مولانا شبير على التفاسير المأثورة ، والتزم بقواعد اللغة العربية ، مع تحليل مبسط للآيات يربطها بسياقها في نفس الموضع ، وبنظيراتها في مواضع أخـرى من الكتاب . ويقسّم أهـداف الآيـة إلى نقـاط مبسـطة محـددة تُعـين

القارىء ، وإذا تعددت الآراء في الآية يرجِّح واحدا منها مع الإشارة إلى الآراء الأخرى ، ويربط بين الوحـدات الفكريـة الكبرى في السـورة ، حتى يحافظ القارىء على مساره الفكري ، وهو ينتقل من فكرة إلى أخرى .

مشكلة المترجم :

ولو اقتصر المترجم على النص الذي خطته يد مولانا شبير أحمد عثماني وفاض به فكره وقلبه لكان في هذا خدمة جليلة لهذا التفسير ولقرّائه بـاللغة الانجليزية . ولو كانت إضافاته شروحا في نفس النهج تقتضيها طبيعة اللغـة الانجليزية أو الفكرُ الغربي لكان على طريق الإحسان في عمله . .

ولكنَّ الذي يصدم القارىء ما أضافه المترجم من التعليقات والشروح ، وحدد نسبتها إليه ، وهاجم فيها غيرَه ، ولنأخذ نماذج من ذلك :

١ ـ ففي ص ٢١ من المقدمة ـ التي أضافها ـ قال : إن من أهداف ترجمة هذا التفسير : « إزالة الأفكار الخبيثة والعقائد الخاطئة التي انتشرت بين المسلمـين والمعاصرين في الشرق والغرب باسم الاسلام النقي والقرآن عن طريق جماعات المودودي والقادياني » .

ومن الغريب أن يضع المودودي والقادياني في نسق واحد ، رغم ما كان للمودودي من مواقف فكرية وسياسية في مقاومة القاديانية .

٢ ـ وعاد مرة أخرى في ص ٢١٩ عند شرح الآية ٧٩ من سورة آل عمران وهي قوله تعالى (ما كان لبشرٍ أنْ يُؤتيَه الله الكتابَ والحكمَ والنبّوة ، ثم يقولَ للناس كونوا عبادا لي من دونِ الله ولكنْ كونوا ربّانيين بما كنتم تعلّمون الكتابَ وبما كنتم تدرُسون) . فقال في الفقرة ٢ من التعليق رقم ٩٦ وهو مما أضافه إلى الترجمة ـ « ذكر المودودي في « تفهيم القرآن » : أن سيدنا ابراهيم قال عن النجم والقمر

والشمس : « هذا ربي » وهذه كذبة لا حياء فيها ضد سيدنا ابراهيم - وهو أعظمُ مَنْ رفَعَ لواء التوحيد - هذه كذبة صارخة من المودودي الذي كتب واحدا من أكثر التفاسير خطأ عن القرآن » . انتهى .

٣ - وعاد مرة أخرى إلى سب ومهاجمة المودودي في صفحة ٥٩٤ ، وذلك في تعليقه على شرح مولانا شبير أحمد عثماني للآيات من ٧٥ - ٨٣ من سورة الانعام ، والتي تبدأ بقوله تعالى : (وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكونَ من الموقنين ○ فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحبُّ الآفلين) . . إلى قوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيمَ على قومه نرفع درجاتٍ مَنْ نشاءُ إن ربك حكيم عليم) .

ومع أن القصة تبدأ في القرآن الكريم بقوله تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين » ثم تأتي بعدها مباشرة « وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض » ، مع كل هذا الوضوح أقرأ للمترجم هذا الهجومَ العنيفَ على الاستاذ المودودي رحمه الله .

مع تفهيم القرآن :

وقد رجعت إلى الترجمة الانجليزية لتفهيم القرآن لمولانا المودودي وجاءت هذه الدراسة في الجزء الثالث (من ص ١٢١ - ١٣١) ، وقد درس فيها قضية الإيمان عن طريق العقل بكثير من التفصيل ، بالإضافة إلى ما كشفته البحوثُ الأثرية في منطقة أور (حيث كان يعيش سيدنا إبراهيم في العراق) ، ودرس العلاقة هناك بين العقيدة وبين النظام الاجتماعي والاقتصادي ، ولم أجد فيها ذكره المودودي أيّ آثار مما قاله مترجم التفسير العثماني ولا ما يدعو إلى الهجوم على فكره وتفسيره .

كلمة عن المودودي وتفسيره :

كانت ولادة مولانا أبي الأعلى المودودي « في عام ١٩٠٣ ووفاته في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٩ .

وفي نفس عام الوفاة صدر عن المؤسسة الاسلامية بالمملكة المتحدة وبالتعاون مع دار النشر السعودية بجدة ، كتاب بالانجليزية عنوانه « نظرات إسلامية » دراسات لتكريم السيد أبي الأعلى المودودي .

وقد بدأ إعداد الكتاب من مطالع السبعينات عندما بدأت تتدهور صحة المودودي ، وأراد عارفو فضله أن يقدموا هذا العمل العلمي الإسلامي تحية له .

كتب المقدمة (١٩٧٨) الأستاذان خورشيد أحمد (وزير سابق) وظفر إسحاق أنصاري ، وهما أستاذان جامعيان باكستانيان من تلاميذ المودودي ، ويحوي الكتاب ثلاثا وعشرين دراسة قام بها أعلام مختصون على الصعيد العالمي ، كلٌ في مجاله ، ويمثلون جغرافيا مواطن الثقافة الاسلامية المعاصرة من الشرق الأقصى إلى العالم الجديد .

وفي المقدمة عرْض موجز لحياة المودودي وتكوينه العلمي والروحي ، وكيف أنه بدأ النشر العلمي منذ عام ١٩١٨ عندما كان في الخامسة عشرة من عمره ، وأن هذا العطاء استمر حتى السبعينيات ، وكيف أن حياة المودودي كانت جمعا بين القول والعمل : تكوينا للأفراد ، وتكوينا للجماعات الاسلامية التي أنشأها عام ١٩٤١ ، ودخوله باسم الاسلام المعترك السياسي ، والدور الذي قامت به مجلته « ترجمان القرآن » ، وكفاحه فيها منذ أنشأها عام ١٩٣٤ . وكان يتولى كلَّ أمر فيها من التحرير إلى المراجعة إلى حَملها إلى مكتب البريد ، وكيف وهب حياته وجهده في دأب وصبر جميل عرفته به قاعات المحاضرات ومقاعد المؤتمرات ومنابرها العالمية ، والسجون الصامتة وأقفاص الاتهام في قاعات القضاء ، وقد ظل يحمل مسئولية الجماعة الإسلامية حتى عام ١٩٧٢ ،

وحتى عندما قعدت به ظروف صحته ظـل يوالي تـوجيهه وإرشـاده حتى لقي ربه . .

وفي الفصل الأول من كتاب « نظرات إسلامية » بيان بإنتاج المـودودي العلمي ، وما كتب غيرُه عنه :

عددُ اللغات التي تُرجمت اليها أعماله اثنتان وعشرون ، وإنتاجه العلمي والمسجل في الكتاب مائة وثمانية وثلاثون كتابا ما بين صغير وكبير ، والدراسات التي كتبت عنه اثنتان وستون بلغات متعددة . . ومن الفصل الثاني في الكتاب تبدأ دراسات العلماء الذين قدموا إنتاجهم العلمي في هذه المناسبة تحية لهذا العالم الجليل .

أما عن « تفهيم القرآن » فقد قال عنه المودودي وهو يقدمه : « كنت أشعر منذ زمن أن عَطَشَ المثقفين المسلمين لفهم روح القرآن ومقصود آياته يزداد يوما بعد يوم على الرغم من مساعي المفسرين قبـلي في هذا الشـأن ، وكنت أشعر بقدرتي على أن أقدم إليهم ما قد يُروي عطشهم ، فشرعت في محاولتي هذه ولم أضع أمامي وأنا أكتبها إشباع حاجات العلماء والباحثين ولا الذين درسوا العلوم العربية والدينية ويريدون دراسة القرآن دراسة عميقة ، إنما أردت أن أقدمها للمثقفين غير المتخصصين الذين لا يستطيعون الإفادة من كنوز العلوم القرآنية الضخمة ، كذلك وضعت نصب عيني أن يفهم القارىء العادي ـ وهو يقـرأ كتابي هذا ـ معنى آيات القرآن فهما جيدا .

وكنت قد بدأت هذه المحاولة في المحرم عام ١٣٦١هـ (فبراير ١٩٤٢) ووصلت في مدى سنوات خمس إلى نهاية سورة يوسف ، ثم وقع ما منعني من مواصلة الكتابة أو حتى مراجعة ما كتبت ، إلى أن أُودِعتُ السجنَ عام ١٩٤٨ ، فكان سجني فرصة استطعت فيها إعداد هذا الكتاب للنشر ، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم . وقد صدر « تفهيم القـرآن » أولا باللغـة الأوردية ، وبـدأت ترجمته إلى اللغة الانجليزية ١٩٦٧ ، وتسير سيرا حثيثا ، وصدر منها الجـزء السابع عام ١٩٧٧ حتى نهاية سورة الحج . ثم صدر من الترجمة العربية الجزء

الأول (١٩٧٨) ، ويحوي مقدمة التفسير (ولها أكثر من طبعة مستقلة ، وهي أوسع المقدمات انتشارا) وتفسيرَ سور الفاتحة والبقرة وآل عمران ، ويمتاز « التفهيم » ببساطة العرض والدراسات المقارنة بين الأديان والربط بين التفسير والبحوث التاريخية والأثرية وإضافة الخرائط إلى الشرح : كخرائط الجزيرة العربية وقبائلها ، والمغازي ومناسك الحج . . مع بيان المراجع التي استند إليها (وقد تتابعت أجزاء الترجمة الانجليزية إلى الثالث عشر ، وانتهت ١٩٨٦ بسورة الواقعة) .

حوار :

ومن مقدمة التفسير نقتبس هذه الفقرة المحورية . وعليها مدار بحوثه كما يراها المودودي « موضوع القرآن هو الإنسان ، حيث يناقش أنماط وأنواع حياته التي تقوده إلى النجاح المحقق أو إلى دار البوار ، وبحثه الرئيس هو توضيح هذه الحقيقة وعودةُ البشرية إلى الطريق الذي يتخذ الحقيقة له أساسا ، فالقرآن يبين أن الحقيقة هي بعينها التي أوحاها الله بذاته إلى آدم - عند تنصيبه خليفة في الأرض - وإلى كافة الرسل من بعده . وأن المسلك الصحيح هو الطريق الذي علمه الأنبياء جميعا ، وأن كل النظريات التي تخالف هذه الحقيقة والتي ابتدعها الناس ووضعوها عن الله والعالَم والانسان وعلاقاته بالله وبقيةِ خلقه إنما هي نظريات فاسدة ، وأنّ كلّ نظم الحياة التي تتخذ أيًّا من هذه النظريات ركيزة لها وعمادا إنما هي نظم عقيمة وفاسدة تورث الإنسان دمارا وبوارا » انتهى .

ولقد اختلفَ مع المودودي نَفَرٌ من كبار علماء باكستان والهند ومصر ممن يحملون له أكبر الاحترام والتقدير ، اختلفوا معه في بعض ما ذهب إليه .

ومن نماذج هذا الحوار ذي المستوى الأخلاقي الطيب ما جاء في كتاب الأستاذ حسن الهضيبي « دعاة لا قضاة » (١٩٧٧) ، وما جاء في كتاب مولانا

أبي الحسن الندوي « التفسير السياسي للاسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب (١٩٨٠) » . وما أكتُبُه هنا ليس انتصارا لرأي على رأي ، وإنما هو انتصار لأدب الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن ، وخاصة إذا كان الامر يتعلق بالقرآن الكريم وتفسيره .

ترجمة ظفر الله خان :

صدرت الطبعة الأولى لهذه الترجمة عام ١٩٧١ وتتابعت طبعاته ، وبين يديَّ الآن الطبعةُ الثالثةُ المراجَعة (١٩٨١) الصادرة عن دار كرزون ـ لندن ودبلن ، والسيد محمد ظفر الله خان كان وزيرا لخارجية باكستان ١٩٤٧ ورأس الجمعية العامة للامم المتحدة في دورتها السابعة عشرة ، ثم أصبح قاضيا في محكمة العدل الدولية ، ورئيسا لها .

ومن الناحية الدينية عاش ظفرالله خان قاديانيا ، ومع كفاءته العلمية ومكانته العالمية فقد كان هذا مما أثار الرأي العام الباكستاني ضدّه .

ومن القاديانيين ـ قبل ظفرالله خان ـ أصدر مولانا محمد على ترجمة لمعاني القرآن تجمع بين النص العربي والترجمة الانجليزية والتعليقات .

وكانت طبعتها الأولى عام ١٩١٧ وتتابعت طبعاتها عن الجمعية الأحمدية لإشاعة الاسلام ـ لاهور باكستان ـ وبعضُها مطبوع في عواصم الغرب .

ترجمة ظفرالله خان لا تعتمد على الشروح ، وللشروح فائدتها في أنها تعطي المعاني المتعددة للنص القرآن الواحد ، بينما الاكتفاء بالنص الواحد في الترجمة يقصرها على اختيار واحد ، وقد صرح المترجم بهذا في مقدمته .

المنهج الذي اتبعه المترجم أن كتب مقدمة طويلة في نحو خمسين صفحة درس فيها القضايا الرئيسة التي يعرض لها القرآن : الوحي . معنى القرآن . حفظه . القرآن والكتب الدينية السابقة . موضوع الخطيئة الأولى (قصة

آدم) . المغفرة والتوبة . معنى الجن . معنى الفاتحة بعض مميزات القرآن . نزول الوحي منجّما . تفسير القرآن . تتابع القرآن . أسلوبه في الإقناع . . .

تأتي بعد هذا ترجمة المعاني ، ولم يذكر المترجم أنها ترجمة القرآن . وإن كان الناشر قد اكتفى ـ على الغلاف الخارجي ـ بكلمات القرآن (بالانجليزية) وتحتها قرآن مجيد (بالعربية) ، ظفرالله خان بالانجليزية . وفي الصفحة الداخلية : القرآن وتحته هذا البيان : الوحي الخالد الموحى به إلى محمد خاتم الأنبياء ، النص العربي مع ترجمة جديدة لظفرالله خان ، ثم : قرآن مجيد .

وألحق المترجم بالكتاب فهرسا موضوعيا لما حواه القرآن مع أرقام الآيات التي عرضت له .

نماذج من اختياراته :

١ ـ من المقطعات : وهي الحروف الواردة في أوائل السُّور مثل : ألم ـ في أول سورة البقرة ، لم يضعها كما هي ـ كما التزم بهذا أكثر المترجمين مثل عبدالله يوسف علي ، ومولانا عبدالمجيد الدار يابادي ـ ولكنه ذكر ما يعتقد أنه معانيها ، وأنها رموز لأسماء الله الحسنى : فالألف واللام والميم عنده في أول سورة البقرة : أنا الله العليم ، وهكذا في بقية أوائل السور .

٢ ـ في قوله تعالى (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثتُ يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام) . . . إلى قوله تعالى (قال أعلمُ أنَّ الله على كل شيء قدير) (البقرة : ٢٥٩) .

قال في ترجمتها « فألقى الله عليه النوم ورأى في منامه أنه مات لم بُعث بعد مائة عام « ولكي تتسق الترجمة من وجهة نظره يسمع بعد أن أجاب بقوله « لبثتُ يوما أو بعض يوم » ما ترجمته عن الانجليزية « الأمر كذلك ولكنك شهدتَ أحداثَ مائة عام»(انظر ص٤٢ من الكتاب) .

ورجعتُ إلى ترجمة مولانا محمد علي فإذا به يذكر الموت كما تنص على ذلك الآية ويذكر البعث ، ولكنه في الشرح يرجِّح أن القصة رمزية ، ويستند في هذا إلى ما جاء في العهد القديم في سفر حزقيال (انظر التفسير : ص ١١٣ ، ١١٤) .

وما ذكره مفسرونا في هذا : هو الموت والبعث كمثال (انظر تفسير ابن كثير في هذه الآية) .

٣ - في قوله تعالى عن آياتِ نبوة عيسى عليه السلام :
(أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخُ فيه فيكون طيرا بإذن الله) . . (آل عمران : ٤٩) .

قال المترجم : « أني أخلق لكم (أو أصور) من بين الأفراد القادرين على تقبل هذا التأثير صوَرا ، وأنفخ فيهم روحا جديدة وعندئذ سيحلّقون كالطير بإذن الله » (ص ٥٤ من الكتاب) .

وبالرجوع إلى ترجمة مولانا محمد علي ص ١٤٤ نراه يذكر الترجمة حرفية ولكنه يضيف في تعليق طويل : إن هذا تشبيه ، وان المقصود هو إحياء البشر بنور الوحي حتى يستطيعوا التحليق في الآفاق الروحية العالية ، «بل إنه ليعقِّب على الصورة الحسية للآية بقوله : وإن كرامة النبي أعلى من هذه الأفعال التي تشبه صناعة لُعب الطير» .

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية وتأكيده صورتها الحسية ، وكذلك كان يفعل : يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عيانا بإذن الله عز وجل . انتهى .

٤ - وفي ترجمته لقول الله تعالى في قصة سليمان : (حتى إذا أتوْا على وادي النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطِمنَّكم سليمـانُ وجنودُه وهم لا يشعرون) (النمل ١٨) .

قال المترجم : « حتى إذا أتـوا على وادي النمـل قالت امـرأة من قبيلة النمل : يأيها النمل ادخلوا مساكنكم » (ص ٣٦٩ من الكتاب) .

وتعليق مولاي محمد علي يفيد هذا المعنى وإن كانت ترجمة النص كما هو (قالت نملة) وينقل عن تاج العروس أن وادي النمل بين جبرين وعسقلان ، وأنَّ نملة : اسم قبيلة مثل مازن ومعناها بيض النمل (ص ٧٣١ من الترجمة) . وفي تفسير ابن كثير لهذه الآية يقول « ومَنْ قال من المفسرين إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره فلا حاصل لها » انتهى .

فما كان عند مولاي محمد علي في التعليقات والشرح ، أصبح عند ظفرالله خان في المتن والترجمة المختارة .

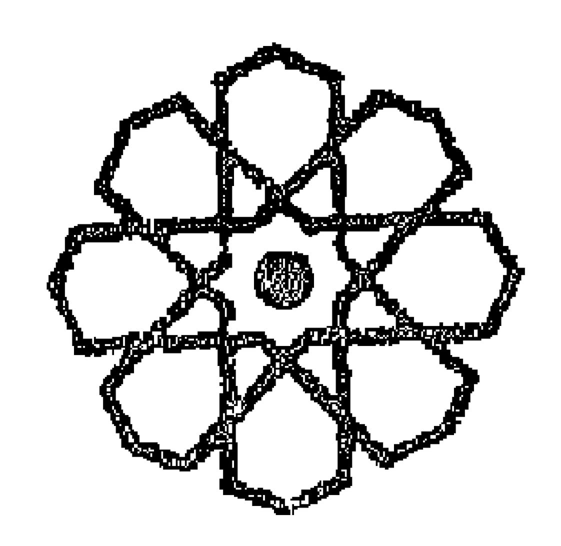
الخلاصة :

وبعد : فهذه بعض الترجمات المتداولة في اتجاهاتها الفكرية ما بين إثبات المعجزات ومحاولاتِ تأويلها ، وما بين إثبات اتجاهات ومذاهب والانتصار لها ، وما بين اتخاذ بعضها وسيلةً لطعنِ علماء أعلام ، بتعليقات مضافة إلى الترجمة بعد وفاة المفسر ودون إذن منه .

وتزداد الترجماتُ والكتب على أرفف المكتبة الاسلامية ، والفصلُ بينها يحتاج إلى تخصص ومتابعة وتوجيه .

فهل لمجامعنا الاسلامية أن تقوم بدور إيجابي في هذا المجال ؟ خصوصاً وأن هناك إقبالا لا ريب فيه على القرآن ودراسته في الغرب وفي الشرق الأقصى وفي أقطار تقدمت في الحضارة والعلم .

وما ذكرتُه من نماذج الترجمات لا يصورها جميعا ، ومالم أذكـره في هذا المقال ليس إغفالا له وإنما رغبةٌ في استعدادٍ أكثر للكتابة عنه .



الفصل الثاني

الإسلام والعالم المتغير

* « إنَّ الله لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا مَا بِأنفُسِهِم ».

(الرعد : ١١)

* « أنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَالت أوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتَمَل السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدونَ عَلَيْهِ في النارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ. كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الحقَّ والباطِلَ. فأمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جفاءً، وأمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأرْض، كَذلكَ يَضْربُ الله الأمْثالَ ».

(الرعد : ١٧)

في المسجد الحرام: نجوى وأمل

الكعبة

كان الوقت ضحى ، عندما أديت مناسك العمرة ، ونويت الاعتكاف في الحرم الشريف . الكعبة أمامي وحولها الطائفون والركع السجود ، وحلقات العلم وقراءة القرآن والدعاء ، والوجوه الخاشعة التائبة ، ترجو رحمة الله .

كانوا جميعا شاهدا على الاخاء الانساني ، وقد ذابت فيها بينهم فروق الأجناس والألوان والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، يجمعهم ، الايمان بالله ، وترى فيهم قول الله تعالى « ان هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (الانبياء : ٩٢) وهذه ثياب الاحرام في بساطتها . الا ترى فيها شيئا من التشابه مع ستر الكعبة في بساطته الاولى ؟ إنه احاطة سهلة سمحة بالبيت العتيق .

وكأن احجار الكعبة **جسمها** ، والستر رداؤها . وانت لاتجد هذا فى أي شعيرة من شعائر الله غير البيت الحرام : ان تستر **أحجارا** باستار .

العربي العدد ٢٢٨ نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٧٧م .

وتدور عيناك وتقرأ ما على الستر من آيات كريمة ، ثم تستقر على الحجر الاسود ، كأ نه عين الكعبة ، تبدو من سترها : الفضة من حوله بياض العين والحجر سوادها . وكأن هذه العين تلتقط صور المؤمنين « في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بايدي سفرة ، كرام بررة » . (عبس : ١٣-١٦) .

دعاء

وترتفع العين من الكعبة الى السماء داعية بنظراتها الخاشعة .

والحمام الأليف يطير حواليها كأنه التحيات الطيبات .

ومن الحرم الطاهر الى السماء . هل هذا فضاء ؟ أم فضاء بين السماء والارض ؟

وكيف يكون فضاء وهو ممتلىء بهذه الدعوات الطاهرات ؟

رأيت الحرم كأنه عين فوارة بالدعاء . والمؤمنون قطراتها المؤمنة .

انه المكان الذى ظل على مر القرون ، ليلا ونهارا ، صيفا وشتاء ، تتصاعد منه الدعوات . وتلتقي عنده القلوب المنيبة الى ربها وتتنزل فيه رحمات الله .

ما اكرم ما ينزل من السماء

وما اطهر ما يعرج اليها

هذا محور النور والطهر في الكون : طرفه في البيت الحرام وطرفه في السماوات .

ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟

واعتكفت في الحرم ساعات .

ومر أمام عينى شريط من أعرف . فسألت الله لهم جميعا المغفرة والهدى . وكنت استوقف الشريط عند صورة أساء الىّ صاحبها ، فادعو الله له

بالخير : فرحمة ربي وسعت كل شيء . ياليت قومي يعلمون كم ارض الله واسعة ، وكم رحمته واسعة . ووقفت عند قول الله تعالى في وصف اهل الجنة « ونزعنا مافي صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين » (الحجر : ٤٧) ورأيت فيها كيف يستطيع الانسان ان يعيش في دنياه بروح الجنة ، اذا نزع الغل والحقد من صدره وتذكر دائما قول الله ، « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ » (النور : ٢٢) واتسعت امامي دائرة المغفرة والصفح الجميل ، « قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » (الزمر : ٥٣)

زمزم

ونظرت الى زمزم وذكرت أمنا هاجر : جاءت من مصر ومن جوار النيل ، لتسكن ارضاوصفها الله في كتابه على لسان ابراهيم عليه السلام « ربنا إنى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ». (ابراهيم : ٣٧)

وابو الانبياء يعرف الكثير عن موطن هاجر ، والفارق الكبير بينه وبين الوطن الجديد : فى مصر استقرار الى جوار النهر وزرع وخضرة . وهنا ـ في الحجاز ـ جاء الاستقرار قبل مقوماته . العقيدة اولا ـ وهى البذرة ـ ثم دعوة الناس الى زيارة البيت العتيق ـ وهم الثمرات ـ .

ويذهب ابراهيم وتبقى هاجر مع الصغير اسماعيل . ويحفظ تاريخنا هذه الصورة : الام والابن والايمان والعطش ، وسعي الام بين الصفا والمروة بحثا عن الماء ، والصغير يفحص الارض باقدامه عطشا وألما . وهل تستطيع الام الابتعاد عن الصغير ؟ الحب يدعوها الى جواره ، والعطش يدعوها الى البحث عن الماء بعيدا عنه ، ويأتى السعى بين الصفا والمروة : اقدام تسعى ، عين تبحث عن الماء ، قلب معلق بالطفل ، امل في الله كبير .

والسعي قرب وابتعاد . حركة جسم وثبات في العاطفة .

ماذا كان في عقل أمنا هاجر وهى تسعى ؟ فيم كنت تفكرين يا اماه ؟

هل تذكرت الوادى الاخضر ، والنيل في جريانه ميمون الغدوات مبارك الروحات ؟

هل تذكرت فتيات النيل بجرارهن ومائها العذب ؟ وهذه الطيور السابحة فى مرحها بين الشواطىء الحانية ؟ والترع في سعيها الهامس تحمل الخصب والنماء ؟

ماذا تذكرت يا أماه ؟

. . . .

وينبع الماء

ـ من اين ؟

ـ من تحت قدم الصغير .

ـ من حركة هى لمسة الاقدار .

وجاءت زمزم يتفجر ماؤها بين يديك .

في وطنك كنت تذهبين الى الماء . والماء هنا ياتي اليك .

في وطنك يجرى النهر بين شاطئيه . وهنا يشق الصخر من أجلك ، ومن اجل الصغير ، ومن اجل كل زائر للبيت العتيق .

زمزم : يانيل الحجاز ونبع الخير والايمان .

زمزم ؛ ماؤك مهاجر ، الى امنا هاجر وابنها ، وزوار البيت من بعدها ، هدية كريمة من رب كريم . هدية ربطت بين السعي والجزاء .

في عرفات ومنى

والحج رحلتان : رحلة يفد فيها المؤمنون من ديارهم الى البيت العتيق ، ورحلة الى عرفات والمشعر الحرام ومنى ، ثم عودة الى مكة .

وكأن الكعبة قلب العالم الاسلامى . والمؤمنون قطرات الدم الحى تفد

الى هذا القلب من كل فج عميق . وهذه هي الدورة الدموية الكبرى . فاذا طافوا وسعوا دفعتهم الكعبة الى عرفات ومنى ، وهذه هي الدورة الدموية الصغرى : رأيت فيها كأن عرفات ومنى رئتان تنقيان هذا الدم ، ليعود في طواف الافاضة الى البيت العتيق ، ليدفعه من جديد الى ديار الاسلام .

الحج عرفة : وعرفة هي التنقية الداخلية الكبرى للمؤمنين . وفي منى يخلعون ملابس الاحرام ويطعمون البائس الفقير . ويعبرون عمليا ـ برجم الشيطان ـ عن الطهر والنقاء ، فيتكامل الظاهر والباطن .

عرفات حقل الاسلام . المؤمنون بذور ارضه الطيبة . ورحمة الله غيث يروى هذا النبات المؤمن فاذا الايدي ترتفع بالدعاء كأنها اغصان مباركات ، وكأن الاصابع اوراق هذه الاشجار ، تحركها نسائم المحبة ، فتخالها جنة وارفة ، اشجارها من البشر ، وحفيفها دعوات ، ونداها دموع التوبة تسيل على الوجنات .

جاء في القرآن الكريم « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام . » (البقرة : ١٩٨) .

هل نقف قليلا عند قوله « أفضتم » .

فيض كأنه نهر من الايمان ينبع من عرفات . وعرفات توبة وغفران . يعود منه المؤمن كيوم ولدته امه . انه قمة المناسك وجنة بربوة فليكن اول عملك بعد مبارحة هذه الجنة ان ترجم الشيطان الذى اخرج ابويك من الجنة .

سيلقاك ، ويحاول معك ، كما حاول مع خليل الرحمن وزوجه وولده .

واذا كان الرجم في ثلاثة مواضع ، فالذين حاول الشيطان صرفهم عن طاعة أمر الله في قصة الفداء كانوا ثلاثة : رجل وامراة وشاب (ابراهيم وهاجر واسماعيل عليهم السلام) الا ترى في هذا كيف ان الرجم يمثل تعاونا بين الرجال والنساء والشباب من اجل طاعة الله والسير على هداه ؟ تعاونا يشترك فيه القلب بالتوجه الى الله ، والعقل بتحديد القصد ، والعين بتحديد الهدف ،

واليد بالحركة ، متخذا من حصيات الارض مادة ترجم بها الشيطان .
ومن انت ؟ جزء من هذه الارض يتحرك بامر الله وروح منه .
ورمي الجمار انما هو تحريك لجزء من مادة الارض حركة مؤمنة .
هو شعيرة تلتقي فيها المادة والروح . هو تعبير مؤمن عن ولادتك الجديدة في عرفات . هنا يتحول الايمان الى حركة واعية هادفة .

من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى

امر استوقف نظري عند ذكر طواف الإفاضة وبه نختتم مناسك الحج .
سنعود الى ديارنا بعد هذا . واخر العهد بالبيت طواف . . وداعا .
وانت تبدأ الطواف من الحجر الاسود متجها يمينا بين الكعبة ومقام ابراهيم .
وسألت نفسي : ماذا لو مددت خطاً من الحجر الاسود الى باب الكعبة وتابعت الرحلة في هذا الاتجاه على طول الضلع الذى يتجه نحوه الإمام في صلاته وان كانت كل الجهات وجها للكعبة ؟
ان هذا الخط يتجه نحو الشمال الغربي . انه خط الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى . وهو خط الهجرة من مكة الى المدينة .
أرأيت كيف يتحد البدء في الاتجاه العام لخطوط الطواف والاسراء والهجرة ؟
وقلت لنفسي : فلأتابع خط الهجرة وخط الإسراء .
ـ ما نهاية خط الاسراء ؟
ـ انها الصخرة المباركة ؟
حجر اسود هنا وصخرة مشرفة هناك . وبينهما محور هو اهم واخطر محاور الاسلام حتى الان .
طرفه في ايدينا وطرفه في ايدي اعدائنا .
طرفه رمز التوحيد ، وطريقه في المدينة رمز اجتماع المسلمين ومجتمعهم

ونهايته القدس حيث ادق الموازين لقوة المسلمين او ضعفهم ، تجمعهم او افتراقهم ، تخطيطهم او اضطراب امرهم .

واحسست ان المسجد الحرام يناجينى كما ناجيته ويسألنى كما دعوت الله عنده :

- ماذا فعلتم بأخى المسجد الأقصى ؟

- اخوك !

- نعم . اخى . واذا كان المؤمنون اخوة ، فان المساجد اخوة . وهذان اخواى - مسجد المدينة والمسجد الاقصى - ومن بعدهما بيوت الله أجمعين .

لقد علمكم الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن الرحال لاتشد إلا الى هذه المساجد الثلاثة . فهل تستطيعون ان تشدوا رحالكم الى المسجد الاقصى ، عليكم ان تفتحوا اليه طريقا يعود به السلام الى مدينة السلام .

هل تطيب حياتكم والحفر تحت المسجد الاقصى مستمر ؟ والاصرار على هدمه وتخريبه لا ينقطع او يفتر ؟ الا تذكرون السوس البشرى الذى ينخر فيه ، والثعالب تحته ؟

ان ماساة المسجد الاقصى ادانة دائمة لجيلنا . بل ادانة لإخائنا وجدوى عبادتنا . واذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فهل هناك منكر ابشع مما يحدث في مسرى النبى ومعراجه وموطن عيسى والنبيين من قبله .

احرموا عند المسجد الحرام وطوفوا واسعوا ، وقفوا في عرفات وأفيضوا منها وارجموا الشيطان .

ولكن إحرام المسجد الاقصى دفاع عنه وعودة السلام اليه ، وحصيات الرجم عنده سلاح تحملونه إذا احترق غصن الزيتون . ومن الزيتون نور ونار . وليسلم لكم محور الإسراء كله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

واذكروا الحجر الأسود والصخرة المشرفة . من جوار هذا الحجر كانت رحلة الاسراء ومن جوار هذه الصخرة كانت رحلة المعراج .

وبين الحجر والصخرة صلة اخرى :

فاذا كان الحجر الاسود ـ في اصله ـ من احجار الشهب ★ فله بهذا رحلة سماوية قبل ان يصل الى ارضنا .

وعند الصخرة المشرفة صعد الرسول ﷺ الى السماء .

أرأيت الترابط بين الحجر الاسود والصخرة المشرفة : طريقان مفتوحان بين السماء والارض .

ان انطلاق العالم الاسلامى وزحفه إسراء جديد يبدأ من وحدة الاسلام حول الكعبة .

وان معراجه الى سماوات مجده يبدأ عند الصخرة المشرفة فى القدس .

مسئوليات

واعود لأجمع النجوى والآمال في نقاط دعوت الله ان يفتح لها قلوب قومى .

آمال جاءت الى نفسى في جلستى أمام الكعبة ونحن على أبواب قرن هجرى جديد .

آمال أكتب فيها وأتحدث عنها :

١ ـ تمنيت لو استطاع المسلمون مع مطلع القرن الخامس عشر الهجرى ان يعقدوا بينهم هدنة سلام مدتها خمسة اعوام ، يتخذونها من روح الاشهر الحرم . لايرفع بعضهم فيها سلاحا على بعض ، وتقف فيها حروب الكلمات والخصومات ، وتتجه الطاقات الى عمل جماعى مثمر .

★ اشار الاستاذ ت . بركاردت في كتابه فن الاسلام : اللغة والمعنى ص (٤) الى اصل الحجر الاسود وانه حجر من الشهب . فهو علميا حجر من السماء . . والمؤلف يعيش الاسلام عقيدة وعلما وفنا : انظر : Burckhardt : Art of Islam , London (1976) كما سبق ان ذهب الى هذا الرأى علماء آخرون

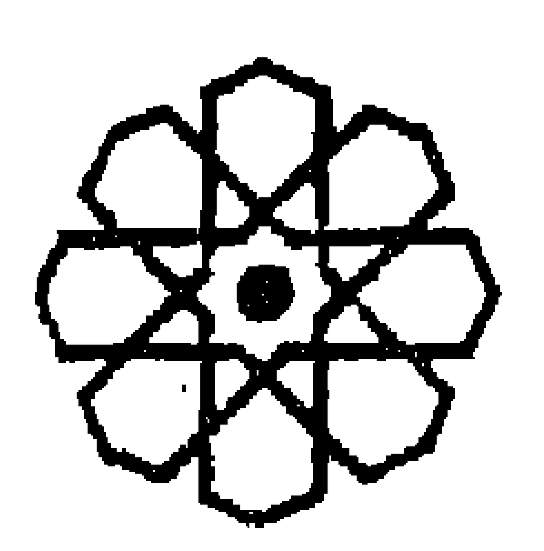
٢ ـ وتمنيت لو تلاقت الجهود في هذا على خطة تنمية شاملة تضم دوائر متتابعة الاتساع : دعما للاتفاقات الثنائية والاقليمية والعربية والاسلامية ومع العالم الثالث ثم العالم المتقدم دون انطواء ودون استنزاف .

٣ ـ وتمنيت لو عقدت حلقات دراسية متعمقة لدراسة قضايا الشباب . وسيحملون امانة القرن الخامس عشر الهجرى ، نقدم اليهم فيها تجاربنا وخبراتنا دون ان نجبرهم على شيء منها ففى الحياة ثوابت ومتغيرات ، فلندعم الثوابت ولنستجب للمتغيرات .

٤ ـ اما ما يشجر من خلاف بين العرب ، او بين المسلمين ، فما الذى يمنعنا من تكوين محكمة عدل عربية ومحكمة عدل اسلامية . الاولى على نطاق الجامعة العربية ، والثانية على نطاق المؤتمر الاسلامى ، وتتعاون المحكمتان معا في حل القضايا بالتفاهم والحسنى ؟

٥ ـ ومن الممكن ان تتعاون مع منظماتنا العربية والاسلامية فيما يمكن ان نسميه « لجان النوايا الطيبة » ففى العالم الاسلامى شخصيات غير قليلة لها وزنها العلمى والأدبى والدينى ، يكن لها العالم الاسلامى احترامه ، بلغت من السن والخبرة ما يرتفع بها فوق الطموحات العابرة والاحقاد التى تضطرب بها الموازين . وليكن من هؤلاء محكمون او اصحاب كلمة طيبة تمهد لحل المشكلات .

إن هذه المقترحات رؤوس أقلام تحتاج الى دراسات طويلة مستأنية ، بحيث تشمل التنمية في أوسع مدلولاتها وحمايتها وتأمينها ، والاعداد المتكامل للشباب ، ونظم التحكيم . ولعل التجربة أن تنجح ، فتمتد السنوات الخمس سنوات اخرى ، ونستطيع ان ننقل « روح الحج » الى حياتنا تطبيقا وصعودا بها الى الافضل .



العمل الإسلامي بين المأمول والممكن

في عام ١٩٧٤ م كنت في زيارة المرحوم الأستاذ عبدالرحمن عزام أول أمين عام للجامعة العربية .

كان اللقاء في منزله بحلوان جنوبي القاهرة ، ودار الحديث عن العمل العربي والاسلامي ، وضرورة التدرج فيه في إطار من صورة متكاملة مرنة ، وأذكر من قوله :

- عندما بدأ العمل في جامعة الدول العربية كانت المشروعات محدودة المدى ، وحرصتُ كل الحرص على ألا تحمل الجامعة فوق ما تطيق ، وذلك حتى تنجح فيما تقوم به ، وتذوق طعم النجاح الذي يشجعها على مزيد من الخطوات وتوسيع دائرة العمل والتعاون .

وتابع قوله :

- فرق كبير بين المأمول والممكن ، آمالنا في العمل العربي كبيرة ، وجهودنا محدودة ، وخطواتنا قصيرة ، ولا بد لنا من العمل المشترك والتعاون .

العربي العدد ٢٦٤ نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٨٠ م

وكان هذا الحديث مقدمة لحوار عن العمل الاسلامي بعد تكوين منظمة المؤتمر الاسلامي ، واتخاذ قرار إنشائها في المؤتمر الاسلامي الأول الذي عقد في الرباط في رجب ١٣٨٩ هـ/ سبتمبر ١٩٦٩ بعد حريق المسجد الأقصى .

وتكاثرت الآمال المعقودة على المنظمة باعتبارها أول تجسيد عملي لإرادة الدول الإسلامية بعد إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ ، وكان من آمال عزام ـ رحمه الله ـ أن تسير المنظمة سيرا هادئا ، وألا تحمل أكثر مما تطيق حتى تحس طعم النجاح وتتابع مسيرتها .

بين المأمول والممكن

وفي استقبال القرن الهجري الخامس عشر تتكاثر في نفوسنا الآمال ، وللآمال أجنحة تحلق بها في آفاق المستقبل ، ويقيدنا الممكن ، وللممكن أقدام يسير بها على أرض الحاضر سعيا إلى الغد ، وفرق كبير بين خفقة الجناح وخطوة القدم ، وهذه الفجوة بين الممكن والمأمول علينا في العمل الاسلامي أن نقابلها ، وأن نعبُرها حتى يصبح المأمول ممكنا ، نتحرك من مواقعه إلى أمل جديد .

ولنتفق أولا على ألاّ تَعارُضَ بين المأمول والممكن : فالممكن طريق المأمول ، والحاضر باب المستقبل .

على أن أهم ما يعترض طريق العمل الاسلامي انصرافُنا بعد حين عما نتفق عليه : إما مخالفة عن أمره ، أو قعودا عن تحمل مسئولياته ، أو اشتغالا بأهداف جانبية أو محلية ، بينما قيادة العمل الحقة تقتضي تطبيقا لقوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) (السجدة : ٢٤) : القيادة بالصبر واليقين ، وبوضوح الرؤية الفكرية والاعتقاد القلبي والثبات على الطريق .

ولكي تتضح دائرة العمل علينا أن نجول في مواقعها الرئيسة ، وأن

نتعرف إلى معالمها ، والنظرةُ الشاملة هنا أوْلى من النظرات التفصيلية الدقيقة التي يحتاج إليها العمل التنفيذي .

ومرة أخرى أقول كما قلت في العلاقة بين الممكن والمأمول : لا تعارض بين النظرة الجزئية والشاملة ، من الجزئيات يتكون الكل ، والنظرة الكلية تعين على أن نضع الجزئيات في مواقعها الصحيحة . والنظرتان متكاملتان وتتبادلان التأثير ، ولهذا الشمول عمقُه التاريخي وامتداده المكاني وأبعاده الموضوعية .

عمق تاريخي

لا نود أن نبتعد إلى أكثر من مطلع القرن الرابع عشر الهجري ، مائة عام تكفي ، كان العالم الإسلامي موزعا بين دول العالم الكبرى وقتئذ ، أو في طريقه إلى التقسيم والخضوع تحت سيطرة الاستعمار . كانت الفجوة العلمية والتقنية واسعة بين العالم المتقدم والعالم التقليدي . الثورة الصناعية شملت أوروبا وأمريكا ، خيرات الدنيا تحملها السفن عبر المحيطات إلى عواصم الاستعمار ، حتى البشر كانوا يُحملون في السفن عبر المحيط الأطلسي من افريقيا ليكونوا وقود الزراعة والصناعة في العالم الجديد ، حيث اجتاح الأرضَ إعصارٌ بشرى أبيض يحرق الهندى الأحمرَ ودارَه ويدمر حضارته ، فلا يُبقي من المجد والتاريخ إلا أطلالا بشرية وحجرية في متحف الحضارة الأمريكية الجديدة . . مجرد نماذج لشيء كان .

وقد استطاعت بعض حضارات الشرق الأقصى أن تكون أكثر مقاومة ، واستطاع الإسلام على الرغم من الحروب الدامية والتخريب واستنزاف الخيرات أن يبقى .

بقي القرآن الكريم كما كان مركز الثقل في الحياة الاسلامية ومحورها الذي تدور حوله ، هو الدين واللسان والرباط بين المسلمين جميعا ، بقيت

الصلاة لقاءً يوميا يجمعهم بالأجساد والأرواح ، بقيت الزكاة رباطا اقتصاديا واجتماعيا بينهم ، بقى الصوم موسما سنويا للعبادة والتذاكر والتوادّ ، بقي الحج مؤتمرا جامعا وإن حالت بعض الأقطار بين المسلمين وبين أدائه .

ولقي الإسلام والمسلمون عنتا وصل أحيانا إلى الإبادة الكاملة ، أو إلى التضييق الشديد ، أو إلى الاغراء ببريق من الغرب حيث يختلط الطيّب بالخبيث ، والتقدم العلمي بموجات الانحلال ، والتقنية بالانسلاخ من الجذور .

وتوزعت المسلمين حضاراتٌ وثقافات ، وتعددت الألسنة واللهجات ، وبرزت المصالح المحلية الطائفية والعصبيات ، وإن بقيت أصوات ترتفع بكلمة الحق ، تكتب وتخطب وتدعو بالأسوة الحسنة والكلمة المنطوقة والمكتوبة .

سكّانيا وموضوعيا

سكانيا : امتدت موجات الاستعمار الظاهر أو المستتر فغطت معظم العالم الإسلامي ، ولم يبق فوق الموج إلا أجزاء محدودة معصومة من الماء ، جزر حرية في مهد الاسلام وأفغانستان ، وانتشرت ألوان الدول الاستعمارية فوق خريطة العالم الإسلامي ، ولبريطانيا وفرنسا وهولندا منها النصيب الأوفى .

وموضوعيا : حاول الاستعمار طمس الهوية الاسلامية : وكانت أعنف المعارك موجهة إلى القرآن الكريم وإلى اللسان العربي وإلى الحرف العربي ، وإنّ معركة الحرف العربي وحدها تحتاج إلى دراسات ورصد وخطة مقابلة ، فاقتلاع الحرف أو غرسه إنما هو قطع أو ربط حضاري واتجاه فكري .

وإضعاف الصلة بالقرآن وباللغة العربية والحضارة الإسلامية يؤدي بدوره إلى الانحسار الحضاري ، وظهور النزعات الضيقة ، تماما كالماء . . إذا

ما كان فيضا متدفقا غطّى الحفر الصغيرة والنتوءات وظهر سطح الماء مستويا ، وإذا قلَّ تحوّل النهرُ الجاري إلى مستنقع آسن ، والماءُ المتصل إلى جيوب وبرك صغيرة متناثرة ، وتظل هكذا حتى يأتي فيض يربط بينها ويبعث الخصب والنماء على الضفاف .

قدر الله وجهد البشر

وتمر عقود القرن الرابع عشر الهجري ويتغير العالم الإسلامي تغيرا كبيرا . . أقول تغيّرَ ، ولا أقول تطوّرَ .

والعالم الإسلامي يحتل كتلة وسطى بين قارات العالم القديم ، قل هو قارة وسطى تمتد أجنحتها ما بين المحيطين الأطلسي والهادي ، ولها ثغورها الأمامية في قلب إفريقيا وجنوب شرق آسيا وأوربا الآن ، ومع عصر الطيران وسهولة الانتقال ظهرت ثغور جديدة في العالم الجديد ، وبعد أن كان العالم الإسلامي جسما متصلا أصبح له نظام كوكبي : أقمار وكواكب تدور حول شمس : نورُ الله من مهد الاسلام ، والكواكبُ عواصم العالم الإسلامي ، والأقمار جاليات إسلامية جديدة في أوربا والعالم الجديد واستراليا .

ويتفجر البترول من باطن أرض الاسلام : ثروة جديدة من الأعماق ، واختبار جديد للبشر .

لكُم أيها المسلمون موقع متوسط ، وهذه هي الطاقة ، وهذه هي الثروة ، وفي دياركم أرض تصلح للزراعة ، وأخرى للمراعي ، وثالثة تغطيها الغابات . عندكم معادن متنوعة ، عندكم الأسمدة ، عندكم البشر ، وعليكم أن تصوغوا هذا كله لصناعة الحياة الجديدة .

استقلالكم السياسي بين أيديكم . أقداركم الاقتصادية بين أيديكم ، ولكنْ عليكم أن « تتعلموا » فالرحلة إلى العلم جهد ، تستطيع أن تشتري بالمال ما تشاء إلا العقل والفكر المبدع ، هذه منطقة الإبداع ، وهي من قبل

هذا منطقة التكوين ، وهي بين هذا وذاك منطقة التحدي الحضاري .

أكاد أقول : إن الله لم يجمع للمسلمين من أسباب القوة المادية بعد عهد الرسالة ما جمع لهم الآن .

وإن مطلع هذا القرن الخامس عشر الهجري هو موعد التحدي الكبير للإرادة الاسلامية فالمسلمون جميعا يستعدون له . .

وهذا « النفط » إلى حين ، وهو وافر الإنتاج قصير العمر ، على خلاف الزراعة : محدودة الإنتاج طويلة العمر . النفط في الأرض له قدر معلوم ، ومطر السماء ينزله الله بقدر معلوم ، ولكنه من سنن الله الكونية كالليل والنهار .

ففي هذه المرحلة التاريخية تلتقي في العالم الإسلامي قوى الوجود المستمرة مع الطاقة والمال . يلتقي المستمر والمحدود ، ومجال التحدي هو التخطيط والعلم ، في منعطف تاريخي هو مجمع القوى الاسلامية حيث قوة الاستمرار وذروة التركيز .

ولكن من يقوم بهذا ؟

الشباب . . فلننظر في بعض أمره !

هذا الشباب

ولقد شهد الثلث الأخير من القرن الرابع عشر الهجري الكثير من حركات الشباب الاسلامي ، ومشكلة الشباب في الإسلام تكاد تنحصر في الانحراف عن الإسلام ، أو الانحراف بالاسلام ، أو الاندفاع الشديد به .

ودون دخول في تفاصيل أنشطة الشباب التي انتهت أحيانا إلى ما يمكن أن نسميه « الانتحار الجماعي الدوري » أقول : نحن في حاجة إلى صيغة جديدة ، أو صيغ جديدة لعمل الشباب الاسلامي .

وتمتاز منطقة الشرق الأوسط بعنف صراعاتها ـ بصفة عامة ـ إذا ما قارناها ببعض أقطار جنوب شرقي آسيا ، وفيها أكبر كتلة إسلامية .

كنت في زيارة قريبة لهذه الأقطار خلال شهر سبتمبر ١٩٨٠ ورأيت فيها من صور العمل الإسلامي ما نحتاج معه إلى تبادل الخبرات فيه ، ذكرتني بعض هذه الأقطار في أخلاقياتها بوداعة أهل المدينة المنورة . الدين هناك أخلاق وتعامل ، وبناء اجتماعي ، وتعاون مع الحاكم على الخير ، ونشر للاسلام بالحسنى ، ورفع للمستوى العلمي والتقني للمسلمين ، وتعايش ودود بين الأديان .

ولا يخلو الأمر من صراعات ـ شأن البشر ـ ولكنّ الطابع الغالب هو البناء والمشاركة فيه .

فلنحاول أن ندرس حركات الشباب وكيف ظهرت ، وكيف أخذت من أجهزة الحكم ، وأخذت منها الأجهزة ، مواقع الحذر ، ثم العداوة ، ثم الصدام . وكيف انتهى معظمها ـ إن لم يكن كلها ـ إلى فئات وشظايا حادة لا تلبث أن تتجمع من جديد لتلقى نفس المصير .

نحن فعلا في حاجة إلى صيغ جديدة تأتي نتيجة دراسة للصيغ السابقة ، وحوار مفتوح بين الأجهزة الحاكمة والشباب ، تشترك فيه المؤسسات الدينية والثقافية ، وتتجه به طاقات الشباب إلى البناء الايجابي ، في مسالك طيبة يرضون عنها ، ويحسون نتائج عملهم ، وتحقيق ذواتهم ، وتنأى بهم عن التوتر والرفض الداعي ـ من بعد ـ إلى العداوة والصدام .

ولا ريب في أن مراجعة التكوين العلمي في المدارس والكليات والجامعات ، وتنسيق العلاقة بين البيت والمدرسة والمسجد وأجهزة الإعلام ، مما يساعد على التوجيه نحو البناء والإيجابية ، والقدرة على مواكبة الحياة في تقدمها .

وأعود إلى خطة التنمية الشاملة في العالم الإسلامي .

وأبدأ بدءا متواضعا :

أن نتفق أولا على أن نجعل هذه المشروعات حين نضعها بعيدة عن مجالات الخلف والصراع السياسي .

لنقل إن قضايا إعداد الشباب للمستقبل وقضايا التنمية لها « حصانة إسلامية » لا يعدو عليها الصراع السياسي ، يكفي أولا : إعداد الشباب ومشروعات التنمية كمناطق حصانة نحاول أن نوسع دائرتها فيما بعد .

هذه التنمية تتجه بها أموال المسلمين إلى أرض الإسلام ، فمن الغريب أن نجد الاستثمارات الأجنبية في أرض الاسلام ، والاستثمارات الاسلامية في العواصم الأجنبية أكثر من الاستثمارات الاسلامية في أرض الاسلام .

ولا أريد أن ألقي اللوم على الاستعمار ، ولا على قلة الثقة بين المسلمين ، ولا على خضوع المشروعات لتيارات السياسة . . فمع البدء الجديد لا بد من فكر جديد . . وأعتقد أن فكرة « الحصانة الاسلامية » لما يتفق عليه من مشروعات على مستوى ثنائي أو إقليمي أو إسلامي شامل ، يمكن أن تحل لنا الكثير من المشكلات وتكون لنا عونا على مزيد من التقدم إلى ما بعدها من مشروعات .

ومع الجهود التي تبذل الآن في الربط بين المراكز الاسلامية المتقدمة في العالم الغربي وبين جسم العالم الإسلامي . . إلا أن هذا الأمر ينبغي أن تنظمه خطة شاملة نحاول بها جمع أطراف الخطط الجزئية المطبقة في هذا المجال الآن . . وهي خطط أتيح لي الاطلاع على بعضها ، وتستهدف أولا : تنسيق العلاقة بين المتخصصين في الأقطار الجديدة ، وثانيا مزيدا من التعاون بينهم وبين دار الإسلام .

فاذا ما استطاعت خطط التنمية عن طريق المنظمات الاسلامية العالمية أن توسع مجالات التعاون بين دار الاسلام والمراكز المتقدمة ، وإذا ما أمكن أن تقوى دورة الدم والحياة بين العواصم الاسلامية ـ حيث مراكز الحضارة الأصلية ـ وبين الثغور الاسلامية الجديدة ـ حيث التقدم العلمي ـ إذا أمكن هذا ، وصبرنا على دعمه استطعنا فعلا أن نجعل للقرن الجديد طبيعة علمية وحضارية متميزة عن طبيعة القرن الرابع عشر .

اقتصاديات الجهد

هذا التعاون يحتاج منا إلى « بنك معلومات إسلامي » مركز توثيق إسلامي عالمي ، ينظم المعلومات عنا : العلماء ، الأبحاث التي يقومون بها ، تبادل المعرفة بين الباحثين ، مجالات البحث . . وهذا يؤدي بدوره إلى اختصار الزمن ، فلا يضيع في جهد تكرر ، أو يسير في خطوط متعارضة .
ولهذا البنك يمكن أن تنشأ فروع في عواصم الإسلام ، تربطها شبكة اتصالات منتظمة . . ولنحاول أن ندخل هذا البنك في دائرة الحصانة الإسلامية : فالباحثون يبنون المستقبل ، فلنعطهم حقهم في العمل والاستقرار ليعطونا حقنا من الإنتاج .

ومن نافلة القول أن هذه المقترحات لا تتعارض مع خطوات أوسع يقوم بها العرب والمسلمون من أجل استعادة الأرض والمقدسات والتعاون في مجالات علمية أو عسكرية .

وأعود إلى نقطة البدء :

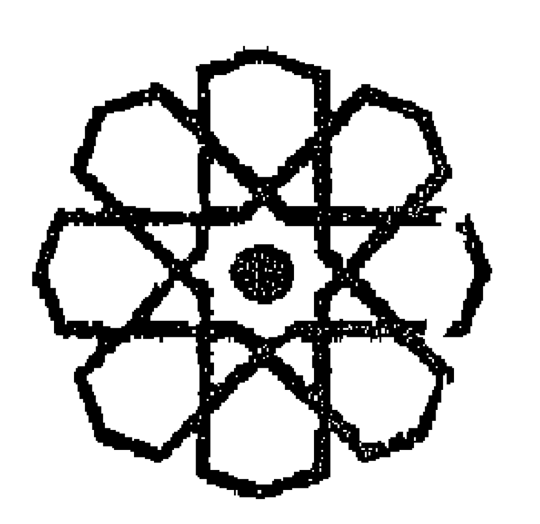
أعود إلى المأمول والممكن .

فلتكن الآمال كبيرة ، ولتكن الخطوات ممكنة وثابتة على الطريق ، والحياة ممتدة ، فلنعط الآمال حقها من النضج عن طريق الممكن ، ولنتأمل

طويلا في قوله تعالى : ﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌّ في فلك يسبحون ﴾ (يس : ٤٠) .

وهذه خطوط عامة يحتاج كل منها إلى تفصيل في القول ، ولتكن أولى المحاولات في التخطيط أن تتولى هيئة كمنظمة المؤتمر الإسلامي جمع الاقتراحات والبحوث التي تنشر الآن لاستقبال القرن الهجري الجديد ، ولتحاول أن تصوغ منها خطة شاملة ، ثم تحدد مراحل السير فيها وأولوياتها ، ويمكن أن تعاونها في هذا : الصحفُ والمجلاتُ والمؤسساتُ العلمية التي تساهم في هذا الأمر ، بأن ترسل إليها صورا من الدراسات المنشورة فيها ، توطئة لترجمة الاقتراحات في خطة شاملة وخطط جزئية ومراحل وبرامج عمل .

نسأل الله الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد .



حِوار حَول الإسلام والتقدّم

فيما بين الثامن والثاني عشر من شهر مارس ١٩٨١ شهدت الكويت ندوة الإبداع الفكري الذاتي في العالم العربي، وتعاونت فيها جامعة الكويت، وجامعة الأمم المتحدة، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ومعهد الكويت للأبحاث العلمية.

وكان ضيف الشرف الأستاذ الدكتور عبد السلام، أول عالم مسلم يحصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٧٩، وكان حديثه عن نهضة العلوم في الدول العربية والإسلامية.

وبدأ محاضرته قائلا:

« بسم الله الرحمن الرحيم . . لي الشرف بالحديث إليكم، وما سأقوله ينطبق على عدد من الدول النامية بما فيها بلادي (باكستان)، وأحس أنني أستطيع التعبير عما في نفسي دون أن أتعرض لإساءة الفهم.

وستدور ملاحظاتي اليوم حول موضوع العلوم التجريدية، وقد أتيت مناديا معكم بإعطاء الأولوية الكبرى لخلق المعرفة داخل مجموعة علمية بالدول العربية والاسلامية، وتخطيط المراحل الضرورية إذا أردنا احتلال المكانة

العربي العدد ٢٧١ يونيو - حزيران ١٩٨١ م

المحترمة التي نستحقها بين الأمم في هذا الميدان » .

وتحدث بعد هذا عن التطورات الحديثة في الفيزياء ، وخاصة ما يتعلق بالاشكال الأساسية للطاقة والقوى الطبيعية ، وهو الميدان الذي عمل فيه سنين .

فقبل العقدين الأخيرين كان الفيزياثيون يعتقدون أن هناك أربعة أشكال أساسية للطاقة : طاقة الجاذبية والطاقة الكهرومغناطيسية ونوعان للطاقة النووية ، يُعرفان بالشكل الضعيف والشكل القوي . . ومن البديهي الآن أن إحدى هذه القوى تتحول إلى الأخرى كما هو الشأن مع تحول قوة الجاذبية إلى قوة كهربائية ، وتوليد الكهرباء من مساقط الماء . وكذلك تحول الطاقة النووية القوية الناتجة داخل الشمس الى طاقة كهرومغناطيسية لحرارة أشعة الشمس . . وقد أمكن توحيد القوة الكهرومغناطيسية والقوة النووية الضعيفة .

وإن الأمل الذى يحدو علماء الفيزياء هو إثبات أن الشكل النووي القوي هو أيضا جزء من هذه الوحدة .

ويبقي الهدف النهائي ، وهو توحيد قوة الجاذبية مع القوة الكهرونووية الجديدة . وجوهر هذه العملية أن القوة التي تسبب سقوط التفاحة أو تثبت القمر في فلكه - أي قوة الجاذبية - مظهر لنفس الوحدة التي تعد القوة الكهربائية أو القوى النووية جزءا منها . .

ويضم الأستاذ عبد السلام جهود العلماء متخطيا حدود الزمان والمكان ، محاولا ربط عظمة الإسلام السابقة بركب الحياة المعاصرة وأمل المستقبل المشرق وهو يقول :

ولو أن هذه الفكرة التي كان اينشتاين أول من أوحى بها قد تبدو مجرد خيال اليوم ، فأملنا أن تصبح حقيقة ثابتة ، كما أنها قد تتطلب مدة خمسين عاما للتعبير عنها تعبيرا دقيقا ، وإثباتها إثباتا صحيحا . وأرجو الله أن يجد هذا المشكل حله الحاسم على يد أحد الفيزياثيين من البلدان الإسلامية .

ثم يربط بين هذا الأمل الكبير وبين العقيدة الإسلامية فيقول :

ـ وما هدفنا من وراء توحيد القوى الطبيعية المتفرقة في الظاهر إلا جزء من إيماننا كفيزيائيين ، وجزء من إيماني كمسلم ، وإنني أحمد الله وأشكره على ما كرمنا به من إتاحة فرص التمعن في أحد مظاهر خلقه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ثم ذكر أنه في ديسمبر ١٩٧٩ عندما تكلّم باسم الفيزيائيين الحائزين على جائزة نوبل ردّاً على الكلمة التي ألقاها ملك السويد في أثناء العشاء المقام بقاعة الاحتفالات الكبرى بمدينة استكهولم قال :

ـ إن اختراع الفيزياء تراث تشترك فيه الانسانية جمعاء . ولقد ساهم فيه بالتساوي كل من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، يقول الله تعالى في القرآن الكريم :

(ما ترى في خلْق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فُطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) (سورة الملك : ٣ ـ ٤) صدق الله العظيم .

وهذا بالضبط هو إيماننا معشر الفيزيائيين ، ذلك الإيمان الذى بنوره نهتدي ونعتز ، وكلمّا زادت رغبتنا في التعمق ازددنا إعجابا وسعادة ، ونما في نفوسنا حبّ التطلع إلى مزيد من المعرفة .

ويمر الاستاذ عبد السلام بتاريخ العلوم ورأى جورج سارتن في مؤلفه الضخم المكون من خمس مجلدات في تقسيم تاريخ العلوم إلى حقب كل منها نصف قرن ، وتقترن كل حقبة بشخصية رئيسة ، وأن الفترة من ٧٥٠ إلى ١١٠٠م ـ ومدتها ثلاثة قرون ونصف ـ كانت عصور جابر بن حيان ، والخوارزمي ، والرازي . والمسعودي ، والفارابي ، والبيروني ، وابن سينا ،

وابن الهيثم ، وعمر الخيام ... وهم رجال ينتمون إلى الأمة الإسلامية ، من عرب وأتراك وأفغان وفرس .

وفي تاريخ العلوم لسارتن ، لم تظهر أسماء غربية لأول مرة إلا بعد ١١٠٠ م ، (هذا بخلاف ما ظهر في الحضارات اليونانية والرومانية وكانت ـ عمليا ـ حضارات البحر المتوسط) .

وبعد أن عرض للتدهور الذي أصاب العالم الإسلامي دعا إلى نهضة علمية في ظل الإسلام ، وعرض نماذج من خطط التقدم العلمي في اليابان والصين والاتحاد السوفيتي ، واجتذاب الغرب للعلماء من العالم الثالث ، واقترح مشروع « أمة العلم » داخل الأقطار الإسلامية والعربية : وهو نظام أو مؤسسة يتوافر لها التمويل اللازم ، وأمن العالم على نفسه وعلى أبحاثه ، بحيث تكون له حصانة مكثفة ولو لفترة ربع القرن القادم ، ولا شأن لهؤلاء بالخلافات السياسية الداخلية أو الطائفية ، كما كان شأن أمة العلم الإسلامية في الماضي .

هذه الأمة تستطيع أن تخطط للنهضة العلمية الإسلامية وتتفاعل مع الحركة العلمية العالمية ، فالعزلة في العلم ضياع . وختم حديثه بنداءين : أولهما إلى العلماء ليتعاونوا في إيجاد أمة العلم ، والآخر إلى الحكام ليرعوا هذا المشروع .

التقدم والأمل

كان الحديث عن المستقبل مرتبطا بالامل ، يلتقي فيه الايمان بالعلم ، محددا مشروعا عقّب عليه أكثر من متحدث ، فنحن فعلا نعاني من تأثر النشاط العلمى بتيارات السياسة الداخلية وتقلباتها ، ونحن في حاجة إلى جهاز عربي وإسلامي علمي ، له حصانة كحصانة القضاء ، تستطيع أن ترسي قواعد نهضتنا العلمية فيما نستقبل من أعوام القرن الهجرى الخامس عشر .

ومر بذهني شريط طويل عما يحدث في الشرق الاقصى ، وقد كنت في زيارته من قريب .

في الشعوب الصغيرة العدد هناك كسنغافورة (٢,٥ مليون) استطاعوا أن يقنعوا شركات اليابان وغرب أوربا وأمريكا بأن تنشيء مصانع للتجميع في هذه البلاد ، وبدأت أسماء تايوان وكوريا وسنغافورة تغزو الأسواق العالمية .

وفي نفس الوقت بذلت اليابان جهودا مكثفة في ترقية صناعاتها وبخاصة مجال السيارات والالكترونيات ، وأصبحت هذه الصناعات تهدد الانتاج الأمريكي والأوربي في عقر داره ، وأصبح الالمان يطلقون على اليابانيين اسم « البروسيين الصفر » وكأنهم ألمان آسيا وبدأت تظهر شركات مشتركة ، يابانية أوربية ، ويابانية أمريكية ، تنقل التقنية اليابانية إلى الغرب .

والحديث عندهم الآن عن غزو الصناعة الأوربية والأمريكية بالإنسان الآلي .

وأحدثوا في التعليم ثورة جذرية ترمي إلى الإفادة من البشر إلى أقصى حد ممكن وبأعلى طاقاته ، ويعتمد هذا اعتمادا أساسيا على التدريب الراقي ، والمستمر في الرقي . . العقول الألكترونية تقوم بأعمال السكرتارية . والانسان الآلي أمام آلة الإنتاج . . إبداع . . تدريب . . إبداع جديد . . تدريب جديد في حركة صاعدة مستمرة .

ثم هذا الزحف البشري

ولك أن تنظر إلى وجوه الناس في عدد غير قليل من أقطار الوطن العربي المنتجة للبترول لترى الأعداد الكبيرة من شعوب الشرق الاقصى تعمل في مجالات الحياة المختلفة وبخاصة مجال الإنشاءات الكبرى . . من جبهة تبدأ من كوريا شمالا حتى سنغافورة جنوبا ، أمم وأديان وثقافات شتى ، تتعامل مع الأرض والطريق والعمارة والأجهزة الألكترونية والسيارات ، والتقنية الآن لغة

عالمية يستطيع العامل أن يعيش بها في أى مكان على ظهر الارض .
فاذا أضافوا اليها التنظيم الاداري وسرعة الانتاج ودقته ، استطاعوا أن يغزوا كثيرا من أسواق العالم . . وقد فعلوا .

وصفوة القول أننا أصبحنا نقابل زحفا صناعيا وبشريا . وإن كانت أوربا تقابل الزحف الصناعي وبعض الزحف البشري .

في بعض الأحياء من مدن الخليج إذا سار العربي أحس بغربة . . لا القوم قومه ، ولا اللسان لسانه . . شعوب من أقصى الشرق تملأ الارض ، وإنتاجها يملأ قاعات العرض .

نجاح لاشك فيه ، نلقاه بالعزيمة على العمل ، وبسلوك الطريق الصاعد ، مهما تكن العقبات .

سباق حتمي يحتاج منا إلى إعادة النظر في توظيف رؤوس أموالنا ، وإعداد شبابنا .

ولك أن تمد خطًا من موريتانيا في أقصى مغرب الوطن العربي إلى الخليج في مشرقه ، وتتابع السير إلى شواطىء شرق إفريقيا ، ثم قم بزيارة العالم الاسلامي غير العربي في آسيا . . وحاول أن تبحث عن مناطق الانتاج والتقنية الهادئة التى توجِّه - لا أقول كلَّ طاقاتها إلى الانتاج - ولكن - على الاقل - أكثرَ من ٥٠٪ من طاقاتها إليه ، ثم حاول أن تكتب في كشف أمامك بيانا بالصراعات الثنائية والاقليمية والحروب الداخلية ومواردها المحلية والخارجية . . حاول - مجرد محاولة - أن تحسب نزيف الدم والهدم وحرب الكلمات ، وأن تقارن ما يحدث في الوطن العربي والإسلامي بأي مجموعة تختارها في العالم كله من حولك . . والنتيجة أمامك ظاهرة : يحطم بعضُنا بعضا ، والعالم من حولنا في تقدم وبناء .

ولا نعدم وسط هذا من يحاول أن يُلقي اللوم - كله أو بعضه - على الإسلام ، كأنه المسئول عما يحدث للعالم الاسلامي .

شيء من هذا حَدَث في ندوة الإبداع الفكري الذاتي .

وكان جهد البعض أن « يُبدع تُهما يلصقها بالاسلام » : إذا تحررنا من الاسلام - كله أو بعضه - استطعنا أن ننطلق ، هكذا ذهب البعض !

ولنذكر نماذج من هذا القول وهو ليس بجديد ، قاله بعض المستشرقين وبعض الذين يدينون بالاسلام . . وكان مما قالوا : « إن الاسلام يدعو إلى التقدم إلى الأسوأ . . »

كيف ؟

استندوا إلى حديث النبي عليه الصلاة والسلام : « إن خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . . »

والحديث صحيح رواه مسلم عن عمران بن حصين .

وقبل أن أعرض لتحليل هذا الحديث ، أود أن أقول إن الأمر في الحوار ليس مصادرةً على الرأي الآخر ، فمن حق كل محاضر أو معقب أن يبدي وجهة نظره . والحوار تعاون ، ونحن لا نحضر الندوات كأننا في خلية النحل ، نبني جميعا خلايا سداسية ، لا تتبدل ولا تتغير ، ولسنا في موقف إملاء الرأى أو قبوله بغير دليل .

ورحم الله الكندي فيلسوف الإسلام في قوله :

« وينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا ، والأمم المباينة لنا ، فإنه ليس أولى بطالب الحق من الحق ، وليس ينبغي بَخْس الحق ولا تصغير قائله ، ولا الآتي به ، ولا أحد يبخس بالحق ، بل كلٌ يشرفه الحق » .

ولعل في انتهاء عهد الخلافة الراشدة ، وانتقال الحكم إلى بني أمية ما

زاد من الإحساس بالظلم والتشاؤم . . . شيء من هذا تقرؤه عند الجاحظ في رسالته « النابتة » ويرى أن الاسلام مر بمرحلة التوحيد ثم الفجور ثم الكفر .

والجاحظ كان معتزليا وله هوى عباسي ، ويقصد بالمراحل الثلاث : العهد النبوي وفترة الخلافة الراشدة إلى مقتل عثمان وهو أول الفجور ، ثم الكفر بمجيء بني أمية .

ولقد قاوم الإمام علي كرم الله وجهه هذا « الفجور » وانتهى الأمر بمصرعه ، ومصرع الخلافة الراشدة ويكتب أبو بكر الطرطوشي في سراج الملوك (٥٤٠ هـ ـ ٥٢٨ هـ) « فأما اليوم فقد ذهب صفو الزمان وبقي كدره . . فالموت اليوم تحفة لكل مسلم » .

ومن محدثي المستشرقين نقرأ في هذا لماسينيون ، ولوي جارديه ، وجاءت خلاصة لهذا في كتاب د . فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ـ بيروت : ١٩٧٩ ، وكتاب : دراسات في الاسلام : دار الفارابي ١٩٨٠ وبه بحث للأستاذ محمود أمين العالم عن مفهوم الزمن عند مفكري الإسلام ، ومرفق به قائمة مراجع في نفس الموضوع .

« إنّ خَيركمْ قرني »

ولنذكر الحديث كاملا :

ـ إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . . ثم يكون بعدهم قوم يَشهدون ولا يُستشهدون ، ويخونون ولا يُؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السِّمَن » .

ولنبدأ بتحديد مفهوم « قرن » .

في لسان العرب : القرنُ : الأمة تأتي بعد الأمة . . قيل مدتُه عشرُ سنين ، وقيل عشرون إلى مائة ، والقرن مأخوذ من الاقتران ، وينقل صاحب اللسان قولَ الازهري ـ وله أهمية كبيرة في موضوعنا ـ « والذي يقع عندي ـ

والله أعلم ـ أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبي أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلّت السنون أو كثرت . والدليل على هذا قول النبي (ص) خيركم قرني : يعني أصحابي ، ثم الذين يلونهم : يعني التابعين ، ثم الذين يلونهم : يعني الذين أخذوا عن التابعين . . »

وإذا شئنا اصطلاحا متداولا قريبا من مفهوم القرن في الحديث فهو « الجيل » ، وليس كل الجيل ، وإنما الذين أخذوا الدين مباشرة عن الرسول وكوّنوا معه أولَ مجتمع في المدينة . والمقصودُ جماعةٌ تعيش معا وتتشابه أعمالها في فترة زمنية محددة .

في هذا الضوء ، ينتفي تماما مفهوم القرن الذي هو مائة عام ، والشمول السكاني الذى يضم عالَم الإسلام كله ، ولا يستثني إلا مجتمع المدينة المؤمن .

وننتقل خطوة أخرى لنرى علاقة هذا الحديث بالتشريع . . يقول الإمام ابن تيمية عند دراسته : صحة مذهب أهل المدينة (مجموعة الفتاوى ٢٠ : ٢٩٤ ـ ٣٠٥) . .

« المدينة دار هجرة المصطفى (ص) ، وفيها سن الله لرسوله سنن الإسلام وشرائعه ، ومذهبُ أهلها زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم (ثلاثة قرون) أصحُّ مذاهب أهل المدائن الاسلامية شرقا وغربا في الأصول والفروع ، وهذه الأعصار الثلاثة هي أعصار القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها الرسول (ص) « خير القرون قرني » .

جاء الذم في الحديث لصفات المنافقين وللترف الذي يبدو في قوله (ص) « ويظهر فيهم السِّمَن » .

يقول ابن تيمية : لم يذهب أحد من علماء المسلمين إلى أن إجماع أهل مدينة من المدائن حجة يجب اتباعها غير المدينة ، لا في تلك العصور ولا بعدها ، والكلام إنما هو في إجماعهم في تلك الأعصار المفضلة ، أما بعد ذلك فقد اتفق الناس على أن إجماع أهلها ليس بحجة » انتهى .

فالقضية عند ابن تيمية ـ في هذا الحديث ـ تشريعية ، ترتبط بموطن معين ، في زمن بعيد . وهذه زاوية في الحديث تشريعية ، بعد الزاوية اللغوية التي سبق عرضها . .

مقاييس أخرى للتقدم

وتبدو مقاييس أخرى للتقدم إذا نظرنا إلى الأحاديث النبوية الثلاثة الآتية :

١ ـ « إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . إنه لا يأتي الخير بالشر . وإنّ مما ينبت الربيعُ ما يقتل حبطا أو يُلم (الحبط إمتلاء البطن من الطعام وهو التخمة . أو يلم : أو يقارب الموت) . وإن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ، ويكون شهيدا عليه يوم القيامة » (رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدري) .

٢ ـ « والذى نفسي بيده ليفتحن عليكم فارس والروم ولتصبّن عليكم الدنيا صبا ، وليكثرن عندكم الخبز واللحم حتى لا يذكر على كثير منه اسم الله (رواه الطبراني عن عبد الله بن يسر) .

٣ ـ « كيف بكم إذا غدا أحدكم في حُلة وراح في حُلة ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟ أنتم اليوم خير منكم يومئذ » (رواه الترمذي عن علي) .

وتبين الأحاديث الثلاثة نموًا في المجالات الآتية : اتساع مساحة أرض الإسلام ، زيادة الدخل العام وزيادة دخل الفرد ، وفرة المواد الغذائية النباتية والحيوانية ، انعكاس ذلك على الوزن ، انتشار الترف في الطعام والملبس والمسكن .

وكل هذه العوامل ـ أو معظمها ـ تعتبر من مؤشرات مجتمع الرفاهية ، ومما تسعى إليه جميع المجتمعات المعاصرة . . ولنتأمل قول الرسول (ص) عن المال : فمن أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو » بعد أن وصفه بأنه خضرة حلوة .

المهم في الأحاديث : ضبط النفس أمام المال والطعام وشهوات الملبس والمسكن والمظاهر ، وأن يكون الكسب حلالا والانفاقُ حلالا .

هل نستطيع أن نقول إن مساحة العالم الاسلامي في عهد المصطفى (ص) كانت خيرا منها بعد الفتوح في عهد عمر ؟ وأن المساحة في عهد الخلافة الراشدة كانت خيرا منها في عهدٍ غير الخلافة الراشدة ؟ .

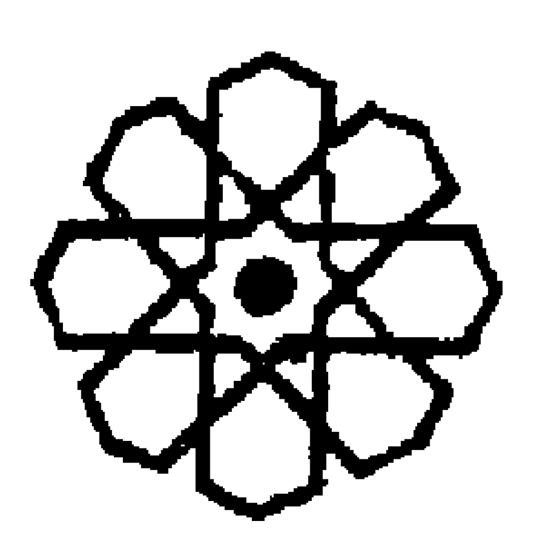
إن « الخيرية » هنا نوعية : مرة تتعلق بالتشريع ، ومرة بالمساحة ، ومرة بعدد المسلمين ، ومرة بالدخل العام مع التحذير من أخطار الترف . . إنها ليست خيرية مطلقة . . وإلا كانت مصادرة للتقدم العلمي والحضاري والجهود الاسلامية التي تلت عصر النبوة .

ويبقى في النفوس العرفانُ بالجميل للجيل الذي عاش مع الرسول ، وتحمَّل ـ أول ما تحمل ـ هذه المسئوليات الكبيرة في نشر الاسلام . ويبقى الأمل في آفاق جديدة من « الخيرية » في أجيال لاحقة نراها في معنى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « مثل أمتي مثل المطر ، لا يُدري أوله خيرٌ أم آخره » (رواه الترمذي عن أنس) .

ولقد كان هذا المعنى يثور في نفوس الصحابة ، ويتحدث عنه الرسول (ص) ، ولنقرأ معا هذا الحوار الذي يرويه الامام أحمد في مسنده عن أبي جمعة ـ رجل من الصحابة ـ : « تغدينا مع رسول الله (ص) ومعنا أبو عبيدة بن الجراح ، فقال : يا رسول الله : أحد خير منا ؟ أسلمنا وجاهدنا معك . قال نعم : قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني » .

فالخيرية هنا سببُها الايمان ـ على بُعد الزمان والمكان ـ أما الأولون فلهم خيرية الصحبة ، وشقُّ الطريق لكل من جاءوا بعدهم .

ونكتفي في هذا بمناقشة موضوع « التقدم إلى الأسوأ » وتحليل حديث « إن خيركم قرني » في منظور واحد مع الأحاديث الأخرى . فالتقدم آفاق متعددة ، علينا أن نبذل فيها الجهد (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) (آل عمران ١٩٥) ، وهناك قضايا أخرى دارت في الندوة أرجو أن يتسع مجالٌ مقبلٌ لدراستها .



آفاق الاجتهاد

أمامنا أكثر من طريق في عرض هذا الموضوع :

أولا : أن نبدأ بالاجتهاد وتعريفه وشرعيته وضرورته ، وأنه المصدر الثالث في التشريع بعد القرآن والسنة النبوية ، ونذكر أدلة ذلك وآراء الفقهاء فيه ، ثم ننتقل إلى العصر الحاضر ، مناقشين ما أثير حول باب الاجتهاد وغلقه وفتحه ، والمشكلات التي علينا أن نقابلها الآن .

ثانيا : أن نبدأ بالمشكلات : ذلك أنها التي تدعو إلى الاجتهاد ، وهي التي تفرض نفسها علينا فرضا ، وتفاديها أو التهربُ منها إنما هو تهربٌ من واقع الحياة التي نحياها والعصر الذي نعيش فيه ، ولا يملك الدين وعلماؤه إلا أن يحملوا مسؤلياتهم ، جامعين بين فهم الإسلام عقيدةً وشريعة وبين فهم العصر ، وإقامةِ الجسور التي يمكن أن يعبر عليها العالم الاسلامي إلى غده حاملا نور الشريعة ، قادرا على السير في دروب الحياة المتشابكة وتياراتها المتدافعة .

الأفق الأول

وقد آثرتُ سلوك المنهج الثاني ، وفيه نعرض آفاق الاجتهاد التي يفرضها علينا سير الحياة في تدفقه الذي لاينتظر أحدا ، وإنما علينا أن نلقاه وأن نشارك

العربي ـ العدد ٣١٥ فبراير ـ شباط ١٩٨٥م .

فيه ، وأن تكون لنا القدرة على صياغة حياتنا الدينية والفكرية صياغة مبدعة مثمرة .

وأبدأ بالأفق الأول ، وأعود فيه إلى سنوات مضت عندما كنت في زيارة لأمريكا اللاتينية ، حملتني فيها مسئوليات العمل إلى البرازيل والارجنتين ، ولقيت جاليات إسلامية في ريو دي جانيرو وساوباولو وكوروتيبا وبيونيس آيرس . . ودار بيننا أكثر من حوار ، فتح الإخوة هناك فيه قلوبهم ، وعرضوا أفكارهم ومشكلاتهم في صراحة وألم .

ولنستمع إلى قولهم فمن حقهم أن يقولوا ، وعلينا أن نسمع ، ولنا جميعا أن نتحاور ، ونطرح المشكلة أمام أهل العلم ، وأقصد العلم في أوسع مدلولاته : علم الدين وظروف البيئة التي يعيش فيها إخواننا هناك ، وأبعاد المشكلات التي يقابلونها .

قالوا : أكثرُ رجال الدين الذين يزورونا يأتون من المشرق الاسلامي ، رجال عاشوا في عواصمَ إسلامية ، يسمعون الأذان في اليوم خمس مرات ، ويسمعون القرآن ويقرءونه ، ويتحدثون العربية بطلاقة ، وصفوة القول أنهم يعيشون في ديار هي مهد الإسلام وموطنه .

ونحن نعيش هنا في أطراف الدنيا إذا كان للدنيا أطراف ، نعيش في أقصى الأرض إذا كانت نظرتنا الى ديارنا المقدسة كأنها في المركز ، وكم نكون سعداء لو استطاع أبناؤنا ـ الذين ولدوا في هذه الديار ـ أن يحفظوا فاتحة الكتاب وقصار السور ، وأن يؤدوا الصلوات الخمس ويصوموا رمضان . . .

إن أحدنا يعيش وكأنه صورة حية لقول المتنبي وهو يصف شِعب بوان ، فلم تصرفه مغاني الشِعب وخضرتها وزهورها عن إحساسه ـ وهو العربي ـ بالغربة فقال :

ولكن الفتى العربي فيها   غريب الوجه واليد واللسان

ولكن أبناءنا لايحسون الغربة في هذه البلاد ، ففيها ولدوا وكبروا ، ولهم فيها أصدقاؤهم وجيرانهم . . يعيشون كما يعيش مَنْ حولهم .

وعندما يزورنا أحد رجال الدين يسأله الأبناء عن كثير مما يصادفون في حياتهم اليومية ، فلا يسمعون من الضيف إلا كلمة واحدة : هذا حرام ، هذا حرام !

وفي يوم التقيت برجل الدين ـ هكذا قال صاحبي الذي حدثني هناك ـ وقلت له :

يامولانا : هل تظن أن الله سيحاسب على الإسلام سكانَ ساوباولو وبيونس ايرس ، كما يحاسب سكان مكة والمدينة ودمشق والقاهرة ؟ لم يسألك الأبناء عن شيء من حياتهم اليومية إلا قلت : هذا حرام .. هذا حرام .. ! !

إنهم لايستفتونك في خمر يشربونها ، ولا في محرّم يأكلونه ولكن في تزاورٍ مختلط ، وفي جلسات عائلية تضم أبناءنا جميعا ليتعارفوا ، وفي جامعات تضم الأبناء والبنات ، وفي شيء من التيسير في الملبس أو التجمل في الخروج .. وكثير من هذا يحدث عندكم في المشرق الاسلامي وتسيرُ به حياتكم ، أو تتعايشون معه .

يامولانا : مما أحفظ من حديث النبي عليه الصلاة والسلام .. « المسلم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمِنه الناس على دمائهم وأموالهم » . (رواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة) والأولاد ـ والحمد لله ـ لايؤذون أحدا ، ولا يقربون الحرام ، ولكن الحياة هنا غير الحياة عندكم .. اجمع لي ياسيدي كلَّ الحلال الذي تعرفه وضعه في قائمة ، وسننظر معا هل يستطيع أولادنا أن يصوغوا حياتهم به ؟ فإن كلمة حلال لم ترِد على لسانك إلا قليلا .

وعدت من أمريكا اللاتينية ، وهذه المعاناة حية في خاطري وقلبي ، وسؤال الصديق يتردد : هل يحاسب الله أهل هذه الديار القصيّة ، وذلك الجيل الناشيء هناك كما يحاسب أبناءَ الاسلام الذين عاشوا في ديار الإسلام ؟ ألا يحتاجُ هؤلاء إلى من يَدْرسُ معهم أسلوب حياتهم ولا يكتفي بأن يقول الفتوى ثم يطير عائدا إلى بلاده ، تاركا القوم هناك بين نارين : الإحساسِ بالذنب ، والحرمانِ من الدعوة المستنيرة ؟ .

الأفق الثاني

ومن هؤلاء أنتقل إلى الأفق الثاني ومشكلاته في غرب أوروبا والولايات المتحدة وكندا ، ذلك العالم الغربي المتقدم الذي استطاع أن يجتذب عناصر متفوقة من أبنائنا ، وإذا كانت الطلائع الأولى من المهاجرين المسلمين لم تستطع

أن تؤكد وجودها الجماعي في تلك الديار ، فإن كثرة المهاجرين من بعدهم وقدراتهم على التقارب السكني من ناحية ، والتعاون المهني من ناحية أخرى ، وتوافر فرص الاستقرار والكسب والتفوق أمامهم ، كل أولئك جعل من هذه الديار « مواطن دائمة » لجاليات إسلامية آخذة في التكاثف ، والقدرة على مد جذورها في الأرض الجديدة ، والرغبة في الاستقرار هناك .

وهم يقابلون ـ على الأقل ـ مشكلتين أساسيتين :

أما الأولى عندهم ـ وهي الأخطر ـ فهي الأبناء . . الأبناء الذين يعيشون الحياة الجديدة معيشة كاملة في المدرسة والنادي والحديقة العامة ، ويتعاملون في حياتهم اليومية بلغة البلاد التي يعيشون فيها ، ويشعر الأولاد أن التكاليف الاسلامية « طارئة » على هذه الحياة الجديدة : لماذا الصلاة في هذه المواقيت ؟ ولماذا الصوم ، وكل زملائي يأكلون في أي وقت ؟ وما الذي يستفيده الدين من جوعي وحرماني ؟ ولماذا لا أحفظ معاني القرآن وأكتفي بأقل القليل من الكلمات العربية ؟

بعض الآباء آثر العودة بالأبناء إلى ديار الاسلام ، ـ والمشكلة مع البنات أشد ـ وتركوا حصيلة عمرهم هناك من الجهد ، والمنصب الذي وصلوا إليه بالعرق والسهر والجدية المضنية التي لايعرفها إلا من كابد حياة الصراع هناك ، عادوا لأنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا مَدَّ الحياة وموجها وتدافعها هناك ، ولكن هل تَرْكُ هذه البيئات المتقدمة هو الحل ؟ وتَرْكُها لمن ؟ نحن نعلم كيف أفاد آخرون من هذه البيئات الجديدة ، تلك عناصر أصبحت دعما لأوطانها ومددا علميا واقتصاديا ، وركائز تعين على مزيد من الهجرة ، هل أتحدث عن المهاجرين الآسيويين إذا كان الحديث عن الأجناس ؟ وهل أتحدث عن المهاجرين اليهود إذا كان الحديث عن الأديان ؟ وصلة هؤلاء وهؤلاء وأنشطتهم ؟

إن « اليهودي » في هذه المناطق الجديدة لا يفقد هويته الدينية ، وهو ـ في الأغلب ـ مزدوج الولاء وهناك خط عاطفي يربطه « بإسرائيل » ، وعلاقات منتظمة عن طريق منظمات راسخة القدم ، منتشرة الفروع ، فكيف حافظ هؤلاء على هوية أجيالهم الجديدة ؟ وكيف نظموا حياتهم اليومية ، وشعائرهم الدينية ، وتقاليد يوم السبت ، وملابس وشعائر العبادة ؟ وكيف نظموا

التواصل بين الأجيال والتعاون المالي والعلمي بينهم ؟

كل هذه مسارات في الأفق تحتاج منا إلى دراسة عميقة ، وتجارب ورصد للنتائج وتطويرها .

ويأتي جانب آخر هناك : هو أسلوب التلاؤم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للراشدين والمنظمات الاسلامية ، والذي أعلمه أن الاخوة هناك يبذلون الكثير من الجهد العلمي في تحديد أبعاد حياتهم ، والكثير من الجهد العملي في تطبيق ذلك .

ونرجو ألا نحمل إليهم بعض الآفات الفكرية من العالم الاسلامي . . آفات الفرقة والمذهبية والحساسيات الطائفية والصراعات التي جعلت من بعض أبنائنا على الآخرين قضاة يحكمون في الدماء ، وينفذون الأحكام ، والتي أوجدت أخاديد الدماء بين الحكام والمحكومين ، وحفرت بينهم خنادق الشك وسوء الظن .

هناك اجتهادات على مستوى الراشدين ، واجتهادات من أجل الأجيال الجديدة ، وأتحدث عن الاجتهادات هنا بأوسع مدلولاتها التي تشمل صياغة الحياة في مواطن جديدة لأجيال جديدة .

الأفق الثالث

وهناك أفق ثالث يتحدى أكثر من دين ، بل أكثر من قانون أخلاقي .

وترجع قصته إلى نهايات الحرب العالمية الثانية ، عندما ألقت الولايات التحدة قنبلتها الذرية الأولى على هيروشيما في ٦ أغسطس ١٩٤٥ ، وفي ٩ أغسطس على نجازاكي في اليابان .

واستسلمت اليابان ، وانتهت الحرب العالمية في ١٤ أغسطس ١٩٤٥ .

يقول المؤرخ العالمي أرنولد توينبي : لقد أخرج الانسان الماردَ من القمقم ، وأصيب الدين بضربة قاضية ، وأصبح العلم ملاكا وشيطانا معا .

كان النظر إلى العلم كأنه كشف وفتوح . . أما بعد الحرب العالمية الثانية فاشتد ارتباط العلم بالسياسة والحرب ، وأصبحت المعرفة سلاحا داخلا في

« استراتيجية » الدول الكبرى ، واتجهت الكشوف العلمية إلى آفاق جديدة من حروب الجراثيم أو الحروب البيولوجية ، ومع اتساع آفاق العلم في اتجاهين : في أعماق الفضاء الخارجي وفي أعماق الخلية والذرة ظهرت أسلحة الفضاء الخارجي ، وتجارب التحكم في الخلية وهندسة الوراثة ، واصطناع أفراد من البشر بمواصفات محددة ، والإفادة من الأرحام الخصبة في حمل جنين أمّ أخرى ، فتكون إحداهما أمّا بالبويضة المخصبة والثانية أمّا بالحمل ، ومع القدرة على التحديد العلمي لمواصفات في الأجنة ظهرت مشكلات التخلص من الجنين المشوّه ، ومدى سلطة المجتمع أو الأبوين في تقرير مصيره .

كثيرة هي المشكلات التي أفرزتها هندسة الوراثة وعلوم الحياة في مدلولها الواسع .

ويكفي أن نشير إلى الندوة العالمية التي شهدتها مدينة فارنا / بلغاريا في يونيو ١٩٧٥ ، والتي أصدرت عنها منظمة اليونسكو كتابا عام ١٩٧٨ ، أشرف عليه الأستاذ برونورايبس وعنوانه « علم الحياة والأخلاق » وما تتابع بعد هذا من ندوات شارك فيها أكثر من هيئة عالمية متخصصة تدعو إلى دراسات مكثفة ، وحوار بين العلماء من ناحية ورجال الدين والأخلاق من ناحية أخرى ، لوضع ميثاق أخلاقي عالمي يوضح الإطار العام للعلاقة بين هذه الآفاق العلمية وبين الدين والاخلاق ، وإذا كان هذا مطلوبا على الصعيد العالمي فإن أصحاب كل دين ـ وعلماءه ورجال الدين فيه ـ مدعوون إلى دراسة تخص دينهم في هذا الأمر .

وأعود فأقول :

إن هذا ضرورة وفريضة ، وعلينا أن نواجه هذه المشكلات مواجهة علمية دينية واعية ، وأن يكون لمجتمعنا فيها قول مبني على دراسات أصولية وموضوعية .

الأفق الرابع

ومن الأفق العالمي أنتقل الى الأفق الإسلامي في شموله ، وإلى الاقطار الإسلامية في خصائصها الحضارية .

وليس أيسر من أن تغلق عليك بابك وتدور في دائرة ضيقة من الأفكار تظن أنها الحياة وأنها الخير ، وليحدث في الدنيا من بعدك ما يحدث !!

الذين أغلقوا الأبواب واتخذوا الصوامع والأديرة والخلاوي والمغارات والكهوف ورؤوس الجبال ، هؤلاء كثيرون منتشرون في طول التاريخ وامتداد الأرض ، وكل دين شهد صنوفا من هؤلاء الذين تركوا الحياة الدنيا فرارا إلى نعيم أو خلود روح ، أو صعودا بها إلى مستوى الاتحاد بالوجود الكلي ، كما تصوره بعض الاديان . . والحديث ليس موجها إلى هؤلاء . .

ولعل من أهم خصائص الإسلام الحضارية ، أنّ دولته تكونت والوحيُ ينزل وقبل أن ينزل قوله تعالى (اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) (المائدة : ٣) ، وقوله تعالى : (واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفّى كلُّ نفس ما كسبت وهم لايظلمون) (البقرة : ٢٨١) ، كانت للإسلام في المدينة دولة ، لها قائدها ونظامها الداخلي وعلاقاتها الخارجية ، وهذه الخصوصية لم يشهدها دين آخر .

فالإسلام ـ من أول يوم ـ لم ينعزل عن الحياة : اتخذ نظام الدعوة الخاصة ثم العامة ، وتحمّل الأذى ، وكوّن قاعدته في المدينة ، ومنها استرد مكة وطهرها من الأوثان ، وانتشر في الجزيرة العربية ، ومنها إلى المشارق والمغارب برا وبحرا ، وقابل علماؤه مشكلاتِ الحياة المتجددة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة ، وبالاجتهاد .

ولم يتوقف هذا المد المبارك إلا عندما وجد العلماء أنفسهم في مأزِق حرج ، لايطلبُ السلطانُ منهم الفتاوي إلا لاستباحة أوقاف محبوسة على الفقراء ، تتطلع إليها أعين الولاة الطامعة ، وقد شرح هذا الأمر بإضافة السيد محمد رشيد رضا في كتابه (يسر الإسلام) .

طبيعة الاسلام أن يتقدم ، وأن ينظر إلى غدٍ بنورٍ من الكتاب والسنة ، مهتديا بهذا التراث الضخم من الفقه والتشريع .

فالأسباب التي دعت بعض العلماء إلى القول بإقفال باب الاجتهاد ، كانت أسبابا اجتماعية اقتصادية سياسية ، ولم يكن هذا عن ضعف فيهم أوعجز ، وإنما حماية لما بقي من أموال أصحاب الحقوق .

يقول الشيخ محمود شلتوت في كتابه : الاسلام عقيدة وشريعة ص ٥٥٥

« وإذا كان من أسس الإجماع اتفاقُ النظر في تقدير المصلحة ـ وهي مما يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال ـ فإنه يجوز للمجتهدين أنفسهم أو لمن يأتي من بعدهم ـ إذا تغيرت ظروف الإجماع الأول ـ أن يعيدوا النظر في المسألة في ضوء الظروف الجديدة . وأن يُقرروا ما يحقق المصلحة التي تقتضيها تلك الظروف ، ويكونُ الاتفاق الثاني إجماعا مُنهيا لأثر الإجماع الأول ، ويصير هو الحجة التي يجب اتباعها ، وإذا وجدت المصلحة فثَمَّ شرعُ الله » .

وفي هذا الباب الذي عقده الشيخ شلتوت بعنوان (الرأي والنظر) دراسةٌ لجوانب الاجتهاد ، يمكن الرجوع اليها في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه .

والمتغيرات في المجتمع الاسلامي الآن كبيرة : اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعلميا وتربويا . . وتسطيحُ المسائل وتبسيطُ الحلول واقتراحُ الأقراص الصغيرة التي تقابل أمراضا كثيرة لم يعد مقبولا مع تسارع الحياة وتفتح الأجيال الجديدة . .

ما موقف علمائنا من القضايا الاقتصادية المطروحة الآن ، وما علاقة أو علاقات الاقتصاد في الأقطار الإسلامية بالاقتصاد العالمي ؟ ما النقاط التي يلتقون فيها والتي يتمايزون ؟ قل مثل هذا عن أنسب الأساليب للشورى وتحقيق الارادة الشعبية المعبرة عن مصالح أوسع القطاعات وأولاها بالرعاية .

وكيف يمكن أن يتوافر « الأمن الفكري » لكلٍّ من العلماء ورجال الدين والأخلاق ليتحاوروا ، دون ضغط ولا خوف ولا إكراه ؟ .

أحيانا ، وفي بعض الاقطار والعصور نحس أن السلطان قد يضع الكلمة في فم العالم ، وقد يحرك في يده القلم ، ورحم الله أبا العلاء المعري في قوله :

تَلَوْا بـاطـلًا ، وجَلَوْا صـارمـاً . وقالوا صدقنا ، فقلتم : نعم ! !

لانستطيع أن نطلب من كل عالم في كل عصر أن يصبر الصبر الطويل ، ويتحمل الأذى المضني . . وإنْ كان هذا هو المأمول ، وخيرٌ من ذلك وأقرب أن يكون التشاور بالحسنى في جو من الإخاء وفي ظل من العدل والأمن .

كما أنه لاداعي لأنْ نصف العالم بالمروق أو الزندقة إذا لم يقل ما كان ينتظر منه من موافقة لهوى يتوخاه الذين كلفوه بالبحث .

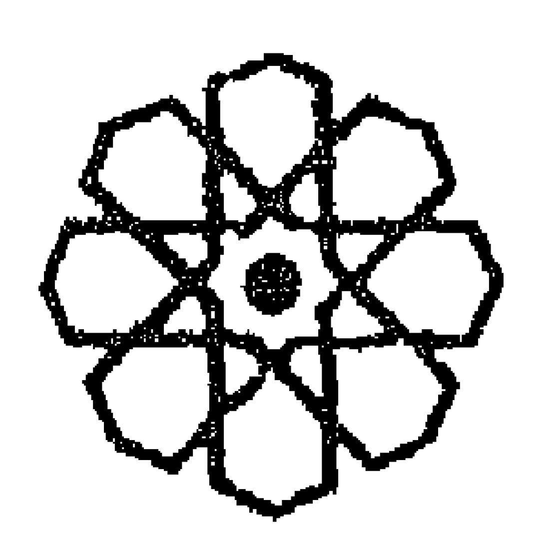
وكم شهدت أرض الإسلام من علماء قاسوا العذاب فتراتٍ من حياتهم وامتحنوا ، ثم رفعهم الإسلام بعد هذا إلى مصافّ الأئمة المتبوعين .

تلزمنا في مرحلة الاجتهاد والحرية سعة أفق وهدوء في العرض والرد ، يلزمنا « أدب الحوار » وفي جوه السمح نستطيع أن ندرس الكثير وأن نصل إلى كثير . . هل أتحدث عن الموقف من الفنون الجميلة ؟ هل أتحدث عن العمارة الإسلامية ؟ هل أتحدث عن تخطيط المدن لتكون صورة حية تستطيع أخلاقيات الإسلام أن تعيش فيها وأن تنمو ؟ هل أتحدث عن التطوير الشامل لنظم التعليم وهندسة بناء الشباب المسلم الذي يستطيع أن يحمل مسئوليات المستقبل . . ؟

خاتمة

كنت أود أن أبسط القول في مشكلات الشباب الإسلامي وموقعه بين الأصالة ومتغيرات الحياة ، فهذا أفق على درجة كبيرة من الأهمية ، ولكن ما سبق القول فيه يمس الشباب من جوانب متعددة .

وأعتقد أنه قد آن الأوان أن توضع هذه القضايا على مائدة البحث ، وأن تتحدد المسئوليات وأن يُخطط لها ، وأن توضع لها البرامج والمراحل التي تستطيع أن تستقطب جهود العاملين ، فلا تضيع في صراعات داخلية ، أو مناقشات لفظية ، أو قضايا فرعية ، وإنما يتجه الاجتهاد ـ بقدر ما نستطيع ـ نحو صياغة الحياة الجديدة التي نستخلص فيها أرضا ، ونحرر ديارا ، ونبني قاعدة علمية وشبابا ،ونوقف النزيف الداخلي بين أبناء العروبة والاسلام ، ليكون لوجودنا في هذه الحياة أعلى مردود مستطاع .



الفكر الإسلامي والأغلال الاختيارية

الذي دعاني إلى كتابة هذا الحديث مجموعة من البرامج « التلفزيونيـة » المتتابعة ، شهدتها صباح يوم أحد في باريس في ربيع ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

ففي هذا الموعد من كل أسبوع يخصّص « التلفزيون » الفرنسي لكل دين أو مـذهب ديني رئيسي وقتا محـددا ، يعـرِض فيـه أصحـابُ الـدين جـانبا من أنشطتهم ، ومن طريقة استغلال الوقت تتبين مناهجَ متعددة في عرض الأديان والمذاهب .

وسأقف عند أربعة منها : الكاثوليكيـة ، البروتستـانتية ، اليهـودية ، الاسلام .

العربي العدد ٣٢٥ ـ ديسمبر كانون الأول ١٩٨٥م

الكاثوليك

أبرز ما كان في الوقت المخصص لهم : أداء الصلاة ، الاستماع إلى التراتيل والموسيقا الدينية ، عظةٌ ألقاها مسئول ديني تناولت شرح نص من العهد الجديد ، وبيان أن الانسان المعاصر يستطيع أن يفيد من روح الدين وهو يقابل مشكلات الحياة .

كان الإلقاء على درجة عالية من الوضوح والإتقان مع عناية بالغةٍ باللغة : جمالا وبساطة عرض ، وفي الكاتدرائية التي نقلت منها العظة الحية كان الحضور رجالا ونساء وأطفالا ، وكان المشاركون في إقامة الشعائر من أعمار متتابعة : الفتيان في الاناشيد ، كبار السن في طقوس الكنيسة الرئيسة ، كأن الكنيسة تعكس صورة المجتمع .

البروتستانت

واتجهت عناية البرنامج البروتستانتي إلى زاوية أخرى : المشهد الفاتح مدخل « معهد الدراسات البروتستانتية » وصورةُ باحث يدخل المكتبة ، المراجع تغطي الحوائط ، فهارسُ منظمة للكتب والوثائق المخطوطة والمصورة والخرائط ، جو علمي هادىء يعين على البحث ، أمينة المكتبة في خدمة الباحثين ، ثم حوار بين أحد الباحثين ومعدّ البرنامج . .

ومن الحوار نرى عنايته بتاريخ البروتستانت في فرنسا ، وله عناية محددة بموجات الهجرة من فرنسا إلى دول أخرى بعد الاضطهادات الدينية التي لقوها من الكاثوليك ، وكيف تكوّنت الجاليات البروتستانتية في مهاجرها الجديدة وأصبحت عناصر فعالة في تلك المواطن ، وهي تحمل روح الصمود التي تخطت عقبات الاضطهادات ، وكيف تجلت هذه الروح في حياتهم اليومية وإبداعهم ، وهو مايطلقون عليه اسم « الأخلاق البروتستانتية » .

اليهود

وجاء دور اليهود . .

محور الحلقة كتابٌ عنوانه « أطفال بوخن فالد » تأليف الكاتبة بـوديت هامر دنجر .

و « وبوخن فالد » هو أحد المعتقلات النازية لليهود في أثناء الحرب العالمية الثانية .

والكتاب محاولةٌ لحصر هؤلاء الأطفال « أطفال الاعتقال » . وقد تتبعت المؤلفة بقدر ما استطاعت ، هجرتهم بعد الحرب إلى عالم لا يعرفونه . الأقطار التي ذهبوا أو حلوا إليها ، الظروف التي عاشوا فيها ، المدارس التي التحقوا بها ، الكفاح الذي مر به كل منهم ، المهن التي مارسوها ، ومن هؤلاء تكوّن « اتحاد بوخن فالد » وهدفه إيجاد ودعم الرباط بين هؤلاء على تباعد مواطنهم ، وذلك عن طريق التراسل والصداقات والتعاون وحفلات اللقاء . .

ولقد استضافت مقدمة البرامج بعض العلماء ورجـال الدين اليهـود ، فكان الحديث كله عن الطفولة وكفاح هؤلاء الأطفال ، شباب اليوم ورجاله ، والتعاون مع يهود فرنسا ، وعرضتْ مقدمةُ البرنامج نماذج من أعضاء الاتحاد : منهم من أصبح مديرا مسئولا أو مهندسا ألكترونيا أو ميكانيكيا .

الإسلام

وجاء مقدم البرنامج ، وكان ضيف الحلقة مسؤلا إسلاميا كبيرا ، ودار الحوار عن حقوق الانسان في الإسلام ، سؤال من مقدم البرنامج ثم إجابة من الضيف ، والاسئلة والاجابات تعتمد على مصادر الإسلام ، أما الواقع الذي نعيشه فكان بعيدا .

وانتهى الحوار الذي يصلح لأن يقدم في أي مكان ، وفي أي قرن من القرون من صدر الإسلام حتى الآن .

صوابٌ كله ؟ نعم . ولكن : أين الرباط الزماني والمكاني ؟ هذه هي القضية !

مقارنة وتحليل

انتهت البرامج . وجلستُ إلى نفسي أفكر بعد أن سجلت ملاحظاتي على هذه البرامج في صبيحة ذلك اليوم .

وأبادر فأقول : إن الحكم على البرامج - في شمولها - من مشاهدة أسبوع واحد غير وارد ، وإنما هذا الحديث مقارنةٌ بين برامج أربعة في يوم واحد من « تلفزيون » واحد ؛ مجرد « شريحة » نحاول وضعها تحت الفحص ، أما الدراسة الشاملة فهذه لها مجال آخر ، وفريق عمل لا يقتصر على ما يذاع من « التلفزيون » الفرنسي ، إنما يتناول مناهج العرض في امتدادها المكاني وآفاقها الموضوعية ، ومدى اعتمادها على الصوت والصورة والحركة والتنوع ، ثم الأهداف المتوخاة منها .

ولنتناول هذه البرامج الأربعة بالترتيب الذي عرضت به :

١ - أما الكاثوليك : ففي البرنامج ربط الدين بالحياة ، بحيث كان مشهد الشعائر صورة من الأسرة والمجتمع : رجالا ونساء وأطفالا ، كأنّ الحاجز بين الدين والمجتمع قد تلاشى أو كاد ، بدا هذا أيضا في العظة المختارة ، كما بدا في الربط بين الترتيل والموسيقا والحركة وتتابع الشعائر ، وتجمعها جميعاً كلمةٌ هي « النظام والتناسق » .

ومهما تكن مكوّنات البرنامج فإنه كان من الحياة ، ومرتبطا بالحياة ، ويصب أخيرا في تيارها .

٢ ـ إن طبيعة الفكر البروتستانتي التي أشعل منارها « مارتن لوثر » (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) عندما ثار على صكوك الغفران التي كانت تصدرها البابوية ، وتغفر بها ذنوب الأفراد مقابل مالٍ تحصل عليه ، ثم امتدت الثورة فشملت جوانب أخرى وأساسية من الفكر والنظام الكاثوليكي ، هذه الطبيعة في أساسها متحررة ومناضلة .

ولقد كتب لوثر بعد زيارته روما ورؤيته مشاهد الترف هناك في حياة الكنيسة :

« إنني أقول : لا البابا ولا أي قسيس ، أو أي رجل ـ مهما يكن وضعه ـ له الحق في أن يضع نصا يقيد رجلا مسيحيا ، مالم يكن هذا الرجل راضيا به . وإنّ أيَّ شيء يخالف هذا هو نابع من روح الاستبداد التي أُصرّح عاليا باسم الحرية والضمير ، وأعلن بكل ثقة ، أنه لا يمكن أن يفرض ـ بحق ـ أي نوع من القانون على المسيحيين ، إلا إذا أرادوا هم ذلك . . ذلك لأننا أحرار من الجميع » . .

ولقد حاول البروتستانت عبر العصور المحافظة على « روح الكفاح » في شخصيتهم ، وربط هذا بالحياة اليومية ، والحرص على الجذور التاريخية لئلا تضيع في دروب القرون . ويحاولون تحقيق هذا بأسلوب علمي موضوعي ، يتجه أولا إلى الإيجابية في الحياة اليومية ، دون أن يكون هذا ـ في المراحل المعاصرة والمقبلة ـ مدعاة إلى إيقاد نيران العصبيات التي أصاب شررها ولظاها كلا الفريقين ، أما الواقع ففيه فروق وتمييز عنصري .

٣ ـ أما البرنامج اليهودي فيحتاج إلى وقفة أعمق : لقد مس موضوع معتقلات النازي مسًا إنسانيا ، والويل في عالمنا المعاصر لمن يحاول تمحيص المبالغات الخرافية التي أدخلها اليهود على هذه المعتقلات ، إنها خطيئة « آدم الألماني » التي ينبغي على الألمان وعلى الدنيا معهم أن تكفر عنها وتدفع ثمنها .

لقد بالغ اليهود فيها أيما مبالغة ؛ وذكروا أرقاما لا أساس لها من الصحة ، ولا يمكن أن تتناسب مع حجم اليهود في أوروبا التي وقعت تحت السيطرة

النازية ، إذا أخرجنا منهم من استطاع الفرار أو لم تبلغه أيدي النازي .

ولقد حارب اليهود ـ في كل أجزاء العالم وخصوصا أوروبا وأمريكا ـ أيّ بحثٍ منصف وموضوعي في هذا الأمر ، ومازالت الحرب مستمرة ، وقد ابتز اليهود ـ ونعني هنا إسرائيل ـ ابتزوا العالم ، وحاربوا الكتابَ المنصفين في أرزاقهم وأوضاعهم الاجتماعية ، وليس لعداوة الصهيونية حدود دون القاع الأسفل من هذه التصفيات !!

على هامش هذه القضية كان الحديث عن أطفال أحد المعتقلات ، وماذا نقول في حديث عن الطفولة والسلام والكفاح في سبيل الحياة في وطن غريب أو جديد ؟ وما إحساسك ورجل الدين والكاتب والمتحدث كأنهم جميعا حمائم وديعة لا تعرف إلا العش الهادىء وتربية « أفراخ زغب الحواصل » خرجوا من المعتقل « لا ماء ولا شجر » ؟.

٤ ـ أما صديقنا المسلم . فلم يكن معنا ، وإنْ كنّا معه في رحلة عن مبادىء اتسعت لها المراجع ، وضاقت بها الحياة اليومية للمسلمين ، وأين في أرضنا السلامُ وحقوق الانسان ؟ .

من التحليل إلى البناء

أردت بهذا القول أن نتعاون على إيقاد مصباح ـ مجرد مصباح ـ على طريق يحتاج إلى كثير من الأيدي والمصابيح .

ولنبدأ بالاعتراف بأننا نعاني الكثير من التخلف في طريق عرض الاسلام ، وأننا لا نفيد كثيرا من أساليب العصر ، ولا نتعامل مع مشكلاته بمنهج واضح المعالم والأهداف ، واكتفى أكثرُنا بالحديث عن عموميات الإسلام ، فهي أيسر ، وعن الجوانب النظرية فهي أسلم ، وعن المناقب والمحاسن ، وهي إلى النفس أقرب ، وعن الأمجاد فهي رحلة إلى الماضي ندع فيها بؤس الحاضر إلى حين .

وبعض الذين أرادوا الاصلاح حملوا في أيديهم معاول الهدم لما هو قائم ، أو أسلحة الدفاع عن القديم ، وبين المعاول والأسلحة وما تثيره من غبار وصليل غام الطريق . . وفي الغيم والضباب تحس نفسك وحيدا ، وإن كنت من غيرك قريبا .

والآن : ماذا نريد حتى نحرر الإسلام من هذه الأغلال الاختيارية التي قيدناه بها ، وحصرنا أكثر عرضه بين سؤال وجواب ، أكثرهما عن الماضي والجوانب النظرية ، دون أن تضع المشكلات أقدامها على أرض الواقع إلا قليلا ؟

كثافة الحواجز

أول سلسلة من العقبات نلقاها ـ وهي من صنع أيدينا ، كثافةُ الحواجز التي وضعتها الفِرَق والطوائف الاسلامية فيا بينها ، والتي وضعها المسلمون بينهم وبين العقائد الحية .

لقد اكتفى كل فريق بما عنده ، واعتبر حدود الأرض عند حدود المذهب أو الطائفة : باطنه أرض السلام ، وظاهره من قبله الصراع .

موقف لايكاد يختلف ـ بل يكاد يتجسد ـ في أسلوب الحواجز الوهمية في مدن الصراع الطائفي . والأمثلة قريبة .

ولقد نشأت الأجيال المتتابعة على ذلك : تتوارث السلام والإسلام الداخلي ، والصراع والعداوات الخارجية .

المذهب ـ أو الطائفة ـ هو الحصن ، ومن حوله أرض القتال ، هو سفينة النجاة ، وما حولها من الطوائف موج وصخور وسفن أعداء . هكذا ينظر كل منهم إلى غيره .

ولسنا وحدنا الذين نعاني من ذلك . . لقد التهبت الحروب الطائفية المعاصرة في أكثر من دولة معظمها في العالم الثالث ، ولم تبق إلا « جزائر » محدودة

منها في العالم المتقدم .

ولو رجعنا إلى التاريخ قليلا لرأينا هذا ونظائره في الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية في أوروبا :

كمثال ـ نذكر مذبحة سان بارثلميو (أغسطس ١٥٧٢) ، التي راح ضحيتها عشرون ألفا من القتلى البروتستانت في عهد الملك شارل التاسع ، وكيف لجأ البروتستانت إلى الدفاع المسلح حتى استطاعوا في صلح نانت ١٥٩٨م تحقيق مستوى من التسامح الديني ، حصلوا به على حرية العقيدة والحقوق المدنية ، ثم ألغى لويس الرابع عشر هذا في مرسوم نانت ١٦٨٥ م ، واعتبر الوجود البروتستانتي غير قانوني ، ولم يَستعِدْ البروتستانت في فرنسا حقوقهم إلا في عهد نابليون .

تراجع هذا الصراع الديني الدموي ، وأصبح مجرد صفحات في بحوث تاريخية ، وبقي نفر من الباحثين كالنموذج الذي رأيناه في معهد الدراسات البروتستانتية في باريس ـ يدرس ليؤكد إيجابيات الشخصية البروتستانتية وآثارها في الحياة اليومية .

ـ والفاتيكان يبذل عناية متزايدة بالحوار المسكوني ، وبسطتْ الكاثوليكية موائد البحث . يلتقى حولها المختصون من أديان شتى ، وليزداد كلٌ منهم معرفة بما عند الآخرين ، ولهم في هذا المجال مطبوعاتهم الدورية والخاصة بموضوع أو أفق من آفاق البحث والحوار .

وتبدلت عندهم أساليب « الرعاية » و « والاتصال بالآخرين » أو « أصحاب العقائد الحية » .

وكل هذا احتاج إلى إعادة نظر في مواصفات رجل الدين ومناهج إعداده ، واللغات التي ينبغي أن يلم بها ، والعلوم الأصيلة والحديثة التي يتزود بها . ودراسة المجتمعات والبيئات التي تؤهله الدوائر المختصة للعمل فيها .

وكما ينطبق هذا النشاط على الكاثوليكي ينطبق على النشاط البروتستانتي

الذي استطاعت كنائسه تنظيم جهودها على تنوع اتجاهاتها تحت مظلة « مجلس الكنائس العالمي » ومقره الرئيسي في جنيف بسويسرا .

وأمامي عند كتابة هذا الحديث العدد الثامن من مجلة « الحوار الجاري CURRENT DIALOGUE الصادر في يونيو ١٩٨٥ عن ذلك المجلس ، وفيه أحدثُ أخبارٍ حواره مع البوذية واليهودية ، وأفكار عن الحوار الاسلامي المسيحي في باكستان وأندونيسيا ، ومقال عن حوار العقائد المشترك الذي عقد في فندق سان جورج بوندسور في بريطانيا ، بدعوة من سمو الأمير الحسن ولي عهد المملكة الأردنية الهاشمية ، وضم مسلمين ومسيحيين ويهود بصفاتهم الشخصية ، وكان هذا في نوفمبر ١٩٨٤ ، ويعقبه لقاء عمان / الأردن في ٢٨ ـ ٣٠ سبتمبر ١٩٨٥ . وفي ختام النشرة بحثٌ كتبه « آنس فان در بنت » عنوانه « حوار مع أصحاب عقائد حية : مسح علمي وببلوجرافي » يتتبع فيه مسار الحوار من عام ١٩٤٧ حتى الآن ، وذكر فيه اثنين وثلاثين مرجعا منشورا عن الحوار .

ألا يستوقف النظر أن تكون خطوات الحوار بين الإسلام كعقيدة وبين العقائد الأخرى تسبق عمليا خطوات اللقاء والحوار الموضوعي بين الفرق والطوائف الإسلامية ؟ ألا يؤكد هذا وجود الحواجز غير المنظورة أو الحواجز الاختيارية أو الحواجز الوهمية بين المسلمين ؟ .

ولكن كيف نبدأ ؟

سأقف في هذا الحديث عند موضوع الحوار ، تاركا إلى حين ـ جهودا إيجابية في مجالات متخصصة من الفكر الاسلامي ، ذلك لأن معظمها يدور في أفق مذهب أو طائفة دون أن تكون المشاركة الايجابية والمنتظمة فيها على الصعيد الإسلامي الشامل .

وأتصور أننا بحاجة إلى « وحدة بحث » قد تنمـو في المستقبل لتصبـح « معهدا » .

ولنبدأ ـ بكل تواضع ـ مع « وحدة البحث » التي يمكن أن تتبناها منظمة المؤتمر الاسلامي ، أو أي جامعة أو مجمع في العالم العربي أوالاسلامي تتـوافر فيها ـ عمليا ـ حرية البحث والحركة ، وتأمين العلماء ليفرغوا إلى بحوثهم مع نوع من « الحصانة العلمية » إذا أمكن قبول هذا التعبير .

ولنبدأ ببحوث وندوات محدودة العدد ، متدرجة في الاتساع ، يتعود بها علماء الاسلام المعاصرون ـ على اختلاف مذاهبهم ـ أن يجلسـوا إلى العلم في موضوعية ، ينظرون فيها إلى الاسلام ككل ، يبدءون بمـا يتفقون فيـه ـ وهو كثير ـ وأود أن أؤكد هذا البدء : ذلك لأننا كثيرا ما نبدأ بما نختلف فيه ، فلا نتتهي إلى غاية إلا اليأس من الحوار .

سننـظر إلى الإسلام ككـل : مـاذا نتفق فيـه ؟ مـا الأخـطار المحـدقـة بالاسلام ؟ ما أثر الفرقة ـ عمليا ـ على طاقة الإسلام المعنوية والمادية ؟ ما وضع الإسلام على خريطة العالم المعاصر ؟ وكيف تتحرك قواه لخير مشترك ؟ .

هذا النوع من البحوث ـ إذا تابع مساره الخصب ـ سيقودنا إلى دراسة استراتيجية العالم الاسلامي في القرن الخامس عشر الهجري والحادي والعشرين الميلادي . .

استطراد

وأذكر أنني كنت أحاور صديقا في هذا الأمر ، فقال لي : أيَّ إسلام تقصد ولكل قوم فهم للإسلام ؟ حتى لقد تكلم بعض الكتاب الغربيين عن « إقليمية » الفهم الإسلامي ، وعُنوا بها في العالم المعاصر أكثر من عنايتهم بشموله ؟ قلت : لنبدأ بالاسلام الذي ينادي به المؤذن خمس مرات في اليوم : التكبير والشهادتان والدعوة إلى الصلاة والفلاح .


وقلت له : لندع الأمور الخلافية للبحوث الجامعية ، ولنحاول معا أن نعبد طريقا يجمع الأجيال الجديدة على الإخاء والحب والتعاون .

وقلت له : لا تعلموهم في سن النشأة كراهية الآخرين ولعن الآخرين ، علموهم أن أكثر أسماء الله الحسنى ترددا على شفاه المسلمين وفي قلوبهم هي « الرحمن الرحيم » : يفتتح بها المسلم عمله وهي مفتاح حياته ، علموهم أن التحدي الأكبر الذى يلقاه المسلمون الآن هو التحدي الحضاري ، وأن أعظم سلاحين لمقابلة هذا التحدي هما : الإيمان والإبداع . ولا إيمان دون محبة ، ولا إبداع دون تعاون وعلم .

والأطفال

ولا أود أن أدع موضوع البرنامج اليهودي دون تعقيب محدد : لقد جاء إلى ذهني مباشرة عندما استمعت إلى برنامج « أطفال بوخن فالد » ضرورة صدور كتاب عن « أطفال دير ياسين » أو « أطفال الشتات الفلسطيني عام ١٩٤٨ » .

وكم من المذابح قامت بها إسرائيل في أرضنا بعد ذلك ، ألا يحتاج أطفالنا إلى أكثر من كتاب ؟ سنقتصر في هذه الكتب على الجوانب الانسانية فقط ، ونتابع الشتات الفلسطيني والعربي الذي وصل بهذا الجيل إلى استراليا جنوبا وإلى الشرق الاقصى ، وغربا إلى العالم الجديد في كندا والولايات المتحدة والكاريبي وأمريكا اللاتينية . وكيف استطاع هذا الشباب الغض أن يشق بجذوره الصخر ، وأن يرتفع بسوقه وفروعه وسط الأعاصير .



الإسلام والتعدد الحضاري المعاصر

ما المقصود بالتعدد الحضاري المعاصر ؟ وما المراحل الحضارية التي سبقته ؟ وما وضع الإسلام كحضارة في هذا المسار ؟ ثم : كيف يستطيع الإسلام - في عالمنا المعاصر - أن يجمع بين مقوماته التي بها يتميز ، وتفاعلاته التي يشارك فيها بالحياة ويبدع ؟

ولنبدأ بتقسيم ثلاثي ، أو مراحل ثلاث للحضارة الإنسانية ، تكون لنا عونا في أمر التعدد الحضاري :

المرحلة الأولى :

من فجر التاريخ إلى نهاية القرن الخامس عشر .

وكان فيها أفقان حضاريان ، بينهما المحيط الأطلسي ، وكان وقتئذ حاجزا حضاريا ، أطلقوا عليه اسم « بحر الظلمات » وحدثت محاولات لعبوره أو

العربي العدد ٣٢٦ يناير - كانون الثاني ١٩٨٦م

الاتصال بجزائر قريبة منه ، كان للمسلمين محاولات في عروضه الوسطى ، وللفايكنج محاولات في عروضه العليا ، ولكنها كانت محاولات لم تصل إلى أهدافها الكبيرة : وهي كشف أرض ، واستمرار اتصال إنسان بإنسان .

ومع أن التراكم العلمي في الأندلس ، والإبداع الفكري فيها جعل منها منارة حضارة إسلامية تشع على أوروبا ، إلا أن جانبا كبيرا من هذه الحيوية استنزفته الصراعات الداخلية من ناحية ، وما وراءها من تأييد أوروبي من ناحية أخرى .

ولم يكن هناك من تعاون بين قوتين إسلاميتين في القرن الخامس عشر : قوة زاحفة صاعدة هي الدولة العثمانية ، التي استطاعت فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ، وقوة منسحبة هي الإسلام في الأندلس ، وكان غروب شمسه هناك عام ١٤٩٢م ، ولندع الآن الدولة الصفوية في إيران والمغول في الهند في مشكلات البناء الداخلي والدفاع عن الذات وحروب الجيران .

قبل أن ينتهي هذا القرن كان الإسبان والبرتغال قد اكتشفوا العالم الجديد والطريق إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح . ومع انتهاء الربع الأول من القرن السادس عشر تمت الرحلة الأولى البحرية حول العالم والتي بدأها ماجلان عام ١٥٢١م .

في هذه المرحلة الأولى كانت الحضارات الانسانية « جزائر » متباعدة أو متقاربة ، ولكل منها خصوصيتها ونموها الداخلي ، وعلى الخريطة العالمية نرى مواطن الحضارات الصينية والهندية والأوروبية (البيزنطية والرومانية في دورها الوثني ثم المسيحي) والحضارة الاسلامية ، وقد امتدت من مهد الجزيرة العربية بجناحين فوق أرض فارس والهند والروم ، ووصلت إلى شواطىء المحيط الهندي ، وكونت هلالا إسلاميا يمتد قرناه في أوروبا من الشرق والغرب ، وأطلت على المحيط الأطلسي ، وامتدت في قلب آسيا وجزائرها الشرقية ، وفي قلب أفريقيا وغربها .

كانت الروابط الداخلية في كل من هذه الحضارات أقوى من الروابط

الخارجية التي تربط بينها ، من هذه الحضارات ما حصرتها توزيعات اليابس والماء في مواطنها كالهند ، ومنها ما أعطتها مجالا للامتداد كحضارات الشرق الأوسط وعالم البحر المتوسط ووسط آسيا ، ولكن هذا الامتداد أيضا كانت له عواقبه على الأطراف أولا حيث صعبت السيطرة عليها ، وأدى الامتداد إلى تفكك الدولة وقيام وحدات حضارية محلية ، لكل منها عمقها التاريخي وإن ربط بينها جميعا رباط حضاري مرن ، والنموذج الإسلامي والمسيحي هنا واضحان .

هذا هو « التعدد الحضاري » الأول ، وهو تعدد نرى فيه مستويين : مستوى الحضارة الشاملة . ومستويات الحضارات المحلية أو الأقليمية في إطار الحضارة الشاملة .

المرحلة الثانية :

وتبدأ مع عهد الكشوف الجغرافية ، وقد أخذت القيادة العالمية فيها تتركز شيئا فشيئا في غرب أوروبا : لقد دمر طريق الرجاء الصالح اقتصاديات تجارة العبور في العالم الاسلامي ، وكان وسيطا بين الشرق الأقصى وأوروبا ، وتراجعت أهمية موانىء الخليج والبحر الأحمر والبحر المتوسط ، وبدأ مركز الثقل يتحول إلى المحيط الأطلسي ، واندفعت الدول والشركات التجارية للسيطرة على هذه الثروات الجديدة والأرض الجديدة . .

واكتسحوا في طريقهم حضارات لم تبق منها إلا آثار محدودة وخصوصا في العالم الجديد : حضارات المايا والانكا والازتك ، ولم يكن من الإسبان والبرتغال في العالم الجديد إلا نهب الثروات وتدمير الآثار واقتلاع السكان من الأرض ، وجاء الانجلو ساكسون واللاتين فأخذوا في إبادة الهنود الحمر ومطاردتهم واصطياد حيواناتهم ، ولم تبق منهم إلا بقايا « تاريخية » تدل على آثار مجد قديم . . واصطلت أفريقيا وآسيا بنفس النيران وإن ظلت المقاومة هنا أشد ، والحجم السكاني أكبر من أن يباد ، ونقل الأمريكيون الملايين من

الافريقيين ليكونوا زراعا وعمالا في العالم الجديد ، لا يطالبون بحق في الأرض ولا في الحكم ، واستطاعت التجارب الأوروبية في الحرب والفتح والصراع والكشف الجغرافي ، والشعور بالخطر العثماني من جهة ، والرغبة في التوسع الاستعماري من جهة أخرى ، استطاع هذا كله أن يضع أوروبا في مركز القيادة العالمية في القرن التاسع عشر ، وأن تمسك بيدها الزمام الذي يحرك زراع غرب أفريقية ، ورعاة بتاجونيا في أمريكا الجنوبية ، وزراع وأمراء الصين ، وراجات ومهراجات وزراع الهند ، ومنتجي القطن في مصر ، وشعوب وثوار شرق أوروبا في وجه العثمانيين ، وأن تدفع بالتقنية الأوروبية إلى ميادين الحرب سلاحا ، وإلى خطوط المواصلات قطارات ، وعبر المحيطات سفنا ، وفي الحياة اليومية إبداعا وإنتاجا ومواد مصنوعة ، وأن تجعل من بقية العالم حقولا ومناجم ومراعي للمواد الخام ، وأسواقا لتصريف الإنتاج .

وتحول النمط من « جزائر » حضارية إلى « هرم » حضاري قمته أوروبا .

المرحلة الثالثة

وجاء القرن العشرون وبدأت تتفكك فيه المكانة الأوروبية ، وتفسح المجال لصورة جديدة من « التعددية الحضارية » .

ولم تعد الحضارة الأوروبية ، ولا غرب أوروبا ، أو الحضارة الغربية ، النموذج الوحيد أو الأمثل . .

وظهرت بدائل حضارية تمتد على جبهة من أقصى اليابان شرقا إلى الولايات المتحدة وكندا غربا ، بدائل تتعدد فيها الخصوصيات الحضارية والعقائدية . وتتباين في الحجم والتوجه : الرأسمالية المعدلة في الولايات المتحدة وكندا . المجتمعات التي تمثل مزجا بين الرأسمالية والاشتراكية في غرب أوروبا . تنويعات الاشتراكية في شرق أوروبا وشرق آسيا ، صور من

المجتمعات النامية التي استطاعت أن تشق لنفسها طريقا من قلب العالم الثالث صاعدة إلى العالم المتقدم .

هذه التعددية ظاهرة جديدة وصحية ، وهي تختلف عن التعددية الأولى التي سبقت القرن السادس عشر في نظامها « الجزائري » الأول ، وعن الصورة « الهرمية » التي شهدناها فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر .

في التعددية المعاصرة أوجه تشابه وأوجه تباين :

١ ـ وأبرز أوجه الشبه أن الاتصال بينها أصبح ميسرا : برا وبحرا وجوا ، سلكيا ولا سلكيا ، الإذاعات ، الأقمار الصناعية ، المؤتمرات العلمية العالمية ، الرحلات ، الإعلام . . عشرات الوسائل التي أصبح بها العالم « قرية عالمية » كما يقولون . انتهت العزلة القديمة وحل بينها الاتصال ، فنحن نعيش « عصر الاتصال » أو ثورة الاتصال » .

وأصبحت حرية المعلومات وتدفقها قضية عالمية ، ومجالا للصراع بين الدول التي تملك أقوى أجهزة الاتصال وقدراته ، وبين من دونها من الدول . فالاتصال قوة وتأثير وتوجيه ، والتحكم فيه تحكم في جبهة لها خطرها من جبهات الاستقلال والمحافظة على الذاتية الحضارية .

٢ ـ وأصبحت معايير التقدم العلمي والتقني من أدق المقاييس على قوة الدول ، والتقدم العلمي هدفه الإبداع ، ولا إبداع دون تكوين قاعدة علمية قادرة أولا على الاستيعاب ثم المشاركة ثم الانطلاق . ولا تستطيع أي قاعدة علمية الآن أن تعيش بمعزل عن القواعد الأخرى ، ذلك أن الإبداع العلمي الآن أصبح تعاونا وتنافسا في نفس الوقت وتسجيلا وسباقا ، والذين خارج الساحة متفرجون أو مستهلكون ، لا أكثر .

٣ ـ وهذا الإبداع العلمي له أخلاقياته : من الايمان به ، والتنظيم الذي يقوم عليه ، وتوزيع الأعباء ، والصبر والدقة ، وأدب الحوار ونكران الذات ،

والنظر إلى صالح الجماعة أو الإنسانية حسب أفق البحث الذي تعمل فيه مجموعة الباحثين .

٤ ـ أما التباين فيبدو في الخصوصيات الحضارية لكل من هذه « الجزائر » أو « القارات الحضارية » .

ويبدو هذا ـ كمثال ـ حين نقارن بين الأنماط الصينية واليابانية والسوفيتية وغرب أوروبا ، على فروق بينها وتطور ذاتي لكل منها ، وهي مقارنة تتعدى أقدار الإبداع العلمي من الناحية « الكمية والنوعية » إلى « كيفية » الحياة و « أهدافها » . وأخذت تتخطى سؤال « كم عندي ، وماذا عندي ؟ » إلى « ماذا نريد من الحياة ؟ »

٥ ـ وأخذت أشواق الروح وخدمة الآخرين والسعادة بذلك ترفرف في آفاق ظلت إلى قريب أسيرة أرصدة البنوك وحساب الربح والخسارة والمتعة السريعة الزائلة . واتخذ تحقيق الذات صورة أسمى عندما أحس الانسان أن « الآخرين » لهم أيضا وجود وكيان واحترام .

ولا ننكر انتشار العنف ولا إهدار حقوق شعوب العالم الثالث ، ولا انتشار الجوع والفقر وزحف الصحراء وانتشار التلوث .

لا ننكر الصراعات الدامية والحروب المدمرة بين أبناء الوطن الواحد والعقيدة الواحدة والجيران ، على الرغم من مضي القرون . .

ولكن يبدو من النماذج التي عرضناها على امتداد الحضارة الانسانية زمانا ومكانا ومن الصورة التي نحياها : أن التعددية الحضارية حقيقة قائمة ، وأنها ثمرة جهود تفاعلت مع العوامل الطبيعية والبشرية التي تحيط بها من قريب أو تتصل بها على الصعيد العالمي .

إن هذا النمط هو صورة من « صناعة التاريخ » . وإن الواقع الذي يعيشه أي مجتمع ليس حتميا ، وإنما له فكاك منه ، وإننا نستطيع أن نتصور ثم نصور الغد في عالم تعددت فيه التصورات والصور .

ملامح الحضارة الإسلامية :

والآن ما أهم ملامح الحضارة الإسلامية في عصر التعدد الحضاري ؟

فلنأخذ أولا العناصر الاساسية التي يمكن أن نلتقي عليها ، ولنبدأ فيها بأربعة أساسية :

الـربانيـة ، الإخاء الإنسـاني ، الشمول ، المنهجيـة العلمية بمفهـومهـا الإسلامي الذي يجمع بين الوحي والعقل .

ولو عدنا إلى القرون الإسلامية التي شهدت قيام الحضـارة الاسلاميـة وازدهارها لوجدنا هذه العناصر أو الركائز الأربعة الأساسية متعاونة إيجابا ، وبها وعليها قامت حضارة الاسلام :

- فالربانية صلة بين الانسان وربه
- والإخاء صلة بين الانسان والانسان .
- والشمول صلة بين الانسان والكون ومكونات البيئة .
- والمنهجية العلمية طريق للتعامـل بنورين من الـوحي والعقل ، مـع الكون والانسان .

واذا انتقلنا إلى المرحلة الثانية بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر وجدنا بعض هذه العناصر تعمل إيجابا ، وبعضها قد شوهته مفاهيم أو شروح غير سليمة :

ظلت العقيدة في شمولها قائمة ، ولكن تعددت المراكز الحضارية ، وليتها مع تعددها تعايشت ، وإنما دخلت في صراعـات استنزفت الكثـير من طاقـة الاسلام . وكنموذج تستطيع في هذه القرون أن ترجع إلى الصراع المرير بين الدولتين العثمانية والصفوية ، والدور الذي قامت به بعض الدول الأوروبية عن طريق الخبراء الإداريين والعسكريين في إذكاء هذا الصراع .

ثم الصراع في الامبراطورية العثمانية بين الأتراك والعرب ، وخصوصا

في المشرق العربي ، حيث ارتفعت موجات القومية العربية ، تقابلها ـ في نفس الوقت ـ موجات القومية في شرق أوروبا .

لا نستطيع إذن أن نقول إن الركائز الأربعة كانت تعمل إيجابا على الصعيد الإسلامي في المرحلة الثانية وإلا فكيف نفسر هذه الحروب العنيفة بين قوميات العالم الاسلامي : المغول . الصفويين . الأتراك العثمانيين . العرب ؟ فعنصر الإخاء أخلى الطريق للعصبيات العنصرية ، والشمول حلت محله اهتمامات ضيقة تستهدف السيطرة والتمتع ، والمنهجية العلمية تراجعت أمام الأحقاد والثارات والمطامع والتقليد

. . وجاءت المرحلة الحالية من التعددية الحضارية ، ولكن هل اختفت العصبيات القديمة ؟ هل اختفى الصراع بين العثمانيين والصفويين ؟ أم استمر تحت أسماء جديدة ، وقيادات جديدة ، وشعارات جديدة ؟

فلنعترف أن العالم الاسلامي الآن يعاني من مواريث التمزق السابقة ، يضاف إليها نفوذ الاستعمار الجديد بعد أن انحسر الاستعمار التقليدي .

وأصبحت مناطق التبعية تحمل اسما جديدا : « العالم الثالث » وما مفهوم العالم الثالث ، وعالمنا الاسلامي جزء منه ؟

لعل أقرب تعاريفه ـ عمليا ـ أنه الأقطار أو الأقاليم التي تسهم بشروط غير متكافئة فيما أصبح يسمى « السوق الاقتصادية العالمية » . وإذا كان أهم ما يميز أكثر أقطار العالم الثالث ، هو انخفاض مستوى المعيشة عن المستوى السائد في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلندة ، إلا أن عناصر أخرى أساسية تدخل في قياس التنمية وكسر الطوق الذي يعوق التقدم : وهي قدرة القوى البشرية المحلية على استغلال الموارد المادية استغلالا منتجا ، وبعبارة أخرى : القدرة على تغيير الواقع المادي والبشري ، وممارسة ذلك بنجاح للوصول إلى مستويات أعلى .

تصور وتصوير :

وهذا ينقلنا إلى الأهداف المتوخاة من التقدم الاسلامي المعاصر ، والعودة مرة أخرى إلى الركائز الأربع لنحاول الإفادة منها ماديا وبشريا . ويقتضي هذا :

١ ـ أن نعترف بالوحدة والتعددية الحضارية في إطار الوجود الاسلامي ، وأن ندع التفكير الوحدوي الأحادي . . . هناك إطار عام من الايمان بالله والإخاء الإنساني والتعامل مع الكون والبيئة بمنهجية علمية . فلنجعل هذه العوامل تتفاعل إيجابا .

٢ ـ ولنضع أمامها التحدي الحضاري الكبير الذي يقابل العالم الاسلامي الآن : وهو التخلف ، فليس الاستقلال السياسي وحده ولا الاستقلال الاقتصادي معه يكفيان ، وانما العالم الاسلامي في حاجة إلى « الاستقلال العلمي » . . الاستقلال لا الانعزال ولا التبعية ، ولا يتوافر هذا إلا بتكوين القواعد العلمية المتعاونة على الصعيد الاسلامي فيما بينها أولا ، ومع الدوائر العلمية العالمية آخرا . والاستقلال قدرة على الاختيار وعلى تنفيذ القرار .

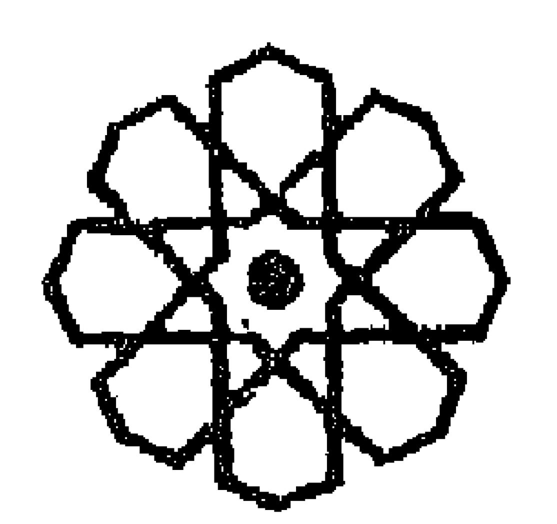
٣ ـ ونحن محتاجون إلى تأكيد مفهوم « التعايش » في الحياة الاسلامية ، كما تعايش المسلمون الأوائل ، وكما تتعايش المذاهب في إطار العالم المسيحي المعاصر بغرب أوروبا ، وسوقه المشتركة وبرلمانه نموذج أمامنا ، لتنصرف جهودنا إلى التحدي العلمي .

٤ ـ هل نستطيع تصور مناطق حضارية متعددة ومتكاملة داخل نطاق الحضارة الاسلامية الكبيرة ؟ . تصور نكتبه ونتحاور فيه ، ونحاول إقناع بعضنا بعضا به ، ثم نحاول تصويره .

وإن المفكر لا يملك إلا قلمه ، فلنحرك الأقلام نحو هذا الهدف ، والطريق إليه ليس سهلا .

٥ ـ هذه المناطق الحضارية الاسلامية لكل منها خصوصيتها التي تبرز ـ كمثال ـ في الانتاج الأدبي والفني والزي والعمارة . . ولها تعاونها الوثيق في مجال البحث العلمي ، وهو بطبيعته عالمي النزعة واللغة والهدف ، وإن من قدر الأرض التي يسود فيها الإسلام أن اختصت كل منها بناحية أو أكثر من نواحي القوة ، ولم تتوافر جميع العناصر أو أكثرها في واحدة منها ، كما نجد في الصين والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، حيث حجم السكان كبير ، والتخصصات المتنوعة المتكاملة متوافرة ، وموارد البيئة الطبيعية بحكم الامتداد والتكوين الجيولوجي وموارد الماء متوافرة ، ومن أجل ذلك كان قدر العالم الإسلامي : التعاون وما يزال .

٦ ـ يأتي بعد ذلك ـ أو قبله ـ عامل تاريخي عميق الأثر ، وهو التنوع الحضاري في الاقليم : وتعدد السلالات البشرية والأديان والمذاهب ، ومن الممكن ـ عن طريق التعايش ـ أن تكون هذه مصدر إثراء فكري وحضاري ، ومن الممكن عن طريق التنافر والصراع أن تصبح نزفا دائما لحيوية أقطار الإسلام ، ولقد جربنا ومازلنا نجرب الصراع والحروب ، وتخطاها غيرنا وأصبح الميزان عندهم الكفاية وإعطاء الفرصة للموهبة في إطار الوحدة الوطنية ، فما ننادي به ليس معجزة ولا خيالا ، وإنما هو أمر مارسه غيرنا ونجحوا فيه ، وعلينا أن نمهد له ونمارسه ، وننجح فيه إذا أردنا لأنفسنا ولأبنائنا أن نضع تاريخا جديدا ، وحضارة إسلامية متقدمة ، في إطار « التعدد الحضاري » الذي تعيشه الإنسانية في مرحلتها الحالية .



رمضان والمشروع الإسلامي

ماذا نقصد بالمشروع الاسلامي ؟ ولماذا الحديث عنه مع رمضان ؟ اما المشروع فتصور شامل لحركة الاسلام في عصر ، وقد يكون مقتصرا على اقليم أو أكثر ، وأما رمضان فهو الشهر الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فالحديث فيه عن الشمول والعمل الاسلامي اقرب وان كان هذا مسئولية العام كله ، دون الاقتصار على شهر بعينه ، ومسئولية القادر عليه فكرا وعملا .

نحن نعيش عصر التعددية الحضارية الذي تتنوع فيه النماذج : من الياباني في أقصى الشرق ، الى الأمريكي في أقصى الغرب ، مرورا بنماذج الصين والاتحاد السوفيتي وشرق أوروبا وغربها ، وبمحاولات متنوعة ومتباينة فيما اصطلحنا على تسميته بالعالم الثالث ، مثل : سنغافورة ، وكوريا الجنوبية ، أو تكون له تجاربه الذاتية والريفية كتنزانيا . .

ولنقف قليلا عند هذه التسمية : العالم الثالث ، ولماذا الثالث ؟

ان العالم الأول والثاني ـ أو العالمين الرأسمالي الغربي والاشتراكي الشرقي ـ ومن يدور في فلكهما كاليابان ـ هم جميعا عالم واحد متقدم علميا ،

العربي العدد ٣٣٠ مايو ـ آيار ـ ١٩٨٦ م .

مسيطر اقتصاديا ، قادر على الابداع والتنافس ، فرض على الآخرين من نفس العالم ـ ومن وراءهم ـ احترامه أو مهابته او الحذر منه . فليكن بينهم التنافس على الصدارة السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية ما يكون ، إلا أنهم دائرة واحدة ، ولكل منهم مقعد معترف به على مائدة القوة العالمية والتقدم .

ويأتي بعد هذا عالم آخر تعددت أسماؤه : النامي ، المتخلف ، الجنوب ، الذين لا يملكون ، الذين لا يعرفون . عالم قد تملك بعض دوله بعض أدوات القوة ، ولكنها لا تتكامل في دولة واحدة . عندنا اذن عالمان ، ولنقلها بكل وضوح : العالم الأول أو القادرون ، والعالم الثاني او المقدور عليهم ، وعلى هؤلاء ان يخترقوا الحاجز المضروب حولهم : حاجز الجهل والتخلف العلمي ، أو التخلف الابداعي ، او الفقر او الجوع . ولن يكون الاختراق منحة من احد ، انه كفاح بكل معنى هذه الكلمة ، وحينما يتحطم هذا الحاجز الفاصل بين العالمين الأول والثاني ، سيتكون العالم الواحد ، وهو حلم الانسانية وأملها . هذا العالم الواحد ليس ضربا من الشمولية التي تختفي فيها الفروق ، ولكنه اسلوب في التعايش والتعددية ، ليس فيه انطواء عن المسار العالمي ، ولا تنكر للخصوصيات الحضارية ، وفي اطاره الواسع يمكن ان يعيش المشروع الاسلامي ، وفي داخل هذا المشروع يمكن أن تتعايش مشروعات اسلامية اقليمية ووطنية في دوائر تأخذ في الاتساع وتحتفظ بالتناسق . ولنبدأ من البداية ، بنماذج برمضان ، ولها تأثيرها العميق في الحياة الاسلامية ، وتلقي أضواءها على طريق المستقبل .

الركائز العشر

كان بدء نزول القرآن في رمضان . وفي ليلة مباركة منه : ـ « إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين (الدخان ٣) .

« إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من

ألف شهر » (القدر : ١، ٢، ٣) .

فما أبرز ركائز القرآن الكريم ؟ ذلك لأنها ركائز المشروع الاسلامي الأول ، وأي مشروع اسلامي لاحق . هذه الركائز هي الثوابت القرآنية ، وهي الداعية الى الحركة وعمران الحياة والابداع :

(١) ان القرآن الكريم ختام وحي السماء ، وهو دعوة الى استخدام العقل والفكر كأوسع ما يكون الاستخدام ، يقول الله تعالى : ـ « وما منعنا أن ترسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون » (الاسراء : ٥٩) .

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات (أي المعجزات) ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله اليّ ، فأرجو أن اكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (رواه مسلم عن أبي هريرة) .

فالأمر في الاسلام لم يكن تحديا بمعجزة كونية ، تمضي مع زمنها ، وتطويها الأيام : كشق البحر ، وتفجير الماء في الصخر ، وانقلاب العصا حية ، واحياء الموتى وشفاء المرضى ، معجزات لا يبقى عليها دليل الا ما جاء في الوحي المعصوم ، اما القرآن فهو المعجزة الباقية بعد انقضاء عهد المعجزات التي حفظها الله للناس بالمؤمنين ، وهي الدعوة الدائمة الى البحث والتفكير ، وهو الصراط المستقيم :

ـ « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين » (يوسف : ١٠٨) .

وقصة يوسف ـ وفي خواتمها جاءت هذه الآية ـ مليئة بالمواقف المتنوعة والاختبارات المتعددة مع وحدة الهدف .

(٢) وتوحيد الله ـ في كتابه الذي يخاطب العقل والعقلاء ـ مقصد أول ، وهو من اليسر ، بحيث لا يستعصي على الفكر ، وفي حياتنا اليومية والعقلية الواحد الصحيح هو الرقم الذي يقوم بنفسه ، مادون الواحد كسور ، وما فوق الواحد

تعدد ، ونحن نؤمن أن : الله هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » . (سورة الاخلاص) .

(٣) والناس جميعا اخوة لأب وأم :
« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . (الحجرات : ١٣) .
ويصور القرآن الانسانية على امتداد عصورها وأقطارها أسرة كبيرة واحدة ، هم جميعا أهل وذوو أرحام وان تباعدت ، يقول تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » . (النساء : ١) .

(٤) ويربط القرآن بين القول والعمل ، فالقرآن هو الكتاب الذي تكونت دولته والوحي ينزل ، دولة ارتفعت فوق الاقليمية وعصبية اللون والطبقة ، والفروق الاجتماعية والاقتصادية ، وأقرت التكامل الاقتصادي والشورى مبدأ وتطبيقا ، وعاش الصحابة هذه التجربة بأنفسهم يجمعون بين الاستماع والاتباع .

قال أبو عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي : حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا ، انهم كانوا يستقرءون من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا اذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا . (مقدمة تفسير ابن كثير) .

وأخذ أبو عبدالرحمن القرآن عن عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، عن النبي عليه الصلاة والسلام .

ولقد حدثت فيما بعد انحرافات عن هذا الخط الراشد ، رفعت فيها العصبيات رؤوسها ، وحل الاستبداد محل الشورى ، وأكل الحكام واعوانهم اموال الناس بالباطل ، وانزوى الزهد امام الترف ، وهانت مصائر الناس ،

وفتحت السجون ابوابها تتلقى الأبرياء ، وأصحاب الرأي الحر ، والكلمة الشريفة ، وصعد المتسلقون والمنافقون . وظن بعض حكام المسلمين ـ في عصور الضعف ـ أن الجنود المرتزقة قادرون على أن يحلوا محل أبناء العقيدة وناشئة الليل ، فكان أن تساقطت أركان من حصون الاسلام ، وجاس الصليبيون والمغول خلال الديار ، وانهارت الخلافة العباسية . وحكم الاسلام وتحكم في المسلمين من لا يحسن العربية لسانا وفكرا وشعورا ، ومن لا يحسن الاسلام عقيدة وسلوكا .

(٥) نخرج من هذا بما يدعو اليه القرآن من اليقظة الدائمة والانتباه : حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » (النساء : ٧١) كما يدعو الى التعاون على تقويم أي انحراف ، وذلك في قوله تعالى : « لُعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ـ (المائدة : ٧٨ ـ ٧٩) .

(٦) ومع اليقظة يدعو القرآن الى اعداد قوة تستطيع أن تصون الحق ، وتدفع عنه وترهب الخصم (وهو الردع بالمفهوم المعاصر) ، يقول تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » (الأنفال : ٦٠) .

(٧) ويدعو الى الحوار والمنهجية والعلمية : ملاحظة وتجربة وتعمقا في الفهم اذ يقول تعالى : « ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . (الاسراء : ٣٦) . ويقول تعالى : « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (سبأ : ٤٦) .

(٨) ويقتضي البحث تحركا في الأرض ، وعبر التاريخ ، فالحركة عنصر أساسي في الحياة الاسلامية : حركة الفكر واليد والنفس نحو الأفضل ان « مجال الحركة » من أقوى الأدلة على تقدم امة أو عصر ، ونحن نعيش العصر الذي تحرك فيه الانسان في الفضاء الخارجي ، وتحرك فيه العلم ، فاستبطن أعماق الذرات والفيروسات والخلايا ، وتحركت اشعة اجهزته فأصبحت من أدوات الاتصال والسلم والحرب .

(٩) هذه الحركة المبدعة ، يدعو القرآن الى متابعتها في جو من التعاون والمودة حيث يقول « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (المائدة : ٢) .

(١٠) ومع كل هذا الابداع ، وتوالي ظهور الآيات في الأنفس والآفاق ، يظل الفرد القرآني ، والمجتمع القرآني ، محتفظا بموقف متزن ، يجمع العقل والشرع معا في وحدة عقلية ونفسية ودينية ، دون تمزق في النفس او الجماعة . . العلم يزيده من ربه اقترابا ، ومن اخوانه في الانسانية تواضعا ، والدين يدعوه الى مزيد من العمل ، ويحفظه من الانحراف ، ويقيم له الميزان الأخلاقي الذي لا يزيغ مع الأهواء ، ونستظهر هنا قول الامام الغزالي عن الجمع بين الشرع والعقل وقد ذكره في كتابه « معارج القدس » يقول :
- « العقل كالسراج ، والشرع كالزيت الذي يمده ، فما لم يكن زيت لم يحصل السراج ، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت ، وعلى هذا نبه سبحانه بقوله تعالى « الله نور السماوات والأرض » . الى قوله : « نور على نور . . » (سورة النور ٣٥) فالشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان بل متحدان » اهـ .

ولقد قرأ المسلمون - وعليهم ان يتابعوا - كتاب الله المنظور وهو الكون ، وكتاب الله المنزل ، وهو الوحي بين ايديهم ، وفيهما جميعا آيات الله يقول تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق أو لم يكف بربك

انه على كل شيء شهيد » (فصلت : ٥٣) هذه هي الركائز العشر التي يقوم عليها المشروع الاسلامي ، وهي مجال اجمال وتفصيل ، وعليها قام البناء الاسلامي ، وتعددت مظاهره ، وتنوعت أساليبه . فلننظر نماذج من تطبيقاته عبر العصور ، لنرى كيف يجمع بين الثوابت والمتغيرات .

الاختيار الصعب

اذا كانت بعض العقول والقلوب قد سارعت الى تقبل الاسلام لأول الأمر في مكة ، فإن الملأ من قريش ضاقوا به ، وبكل ما يدعو اليه من تحرير الانسان من سيطرة الانسان ، وتحرير العقل من سيطرة الخرافة والكهانة ، وتحرير الفقراء من سيطرة الأغنياء ورأس المال ، وتحرير المرأة من الوأد والظلم والقهر .

لقد كان الاسلام في جوهره ـ ومايزال ـ دعوة الى تحطيم الأغلال وإطلاق الانسانية الى افق كريم ، الناس فيه أخوة ، وعباد رب العالمين ، ويصف الله مهمة الرسول في كتابه فيقول :

« ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين بآياتنا يومنون . الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم » (الاصر هو الذنب والثقل) والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه (أي وقروه) ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » . (الأعراف : ١٥٦ ـ ١٥٧) ولنذكر ان سورة الاعراف مكية ، فكيف تقبل قريش وانصارها ان تتخلى عن مآثر الجاهلية وأمجادها ؟ وكيف يقبل سدنة الأصنام ان يروا رجلا ـ ولو كان من ذرية أبي الأنبياء ـ يحطم الأصنام من جديد ، والاصنام لهم عز ومال ؟

كانت المعركة متعددة الأطراف والأهداف ، وصل مداها الى الحصار الاقتصادي والاجتماعي والأذى النفسي والبدني والقتل ، وكان أمام المسلمين اربعة بدائل :

(١) أن يخضعوا لقريش - رغبا ورهبا - ويتركوا أمر الاسلام ، ولقد وعدتهم قريش بالمال والمكانة الاجتماعية والاقتصادية ، فلما أبوا ارهقتهم العسر من امرهم .

(٢) ان يواجهوا قريشا في حرب انتحارية ، المسلمون فيها هم الخصم الأضعف ، الذي لم تقو شوكته بعد ، والمنطق الاسلامي الجماعي الذي يهدف الى ان تكون العقيدة في حماية قوة المجتمع المؤمن ، يختلف عن منطق ابراهيم الفرد الذي بادر بتحطيم الأصنام ، فأنجاه الله ، وبقيت الأصنام من بعد ابراهيم ، ولكل منطق زمانه وأهدافه .

(٣) ان يهاجروا الى الحبشة ، وفيها يعيش الاسلام غريب القلب واليد واللسان . فالحبشة بيئة مسيحية جبلية ، كانت تصلح وقتئذ لايواء جزئي ، ولا تصلح أن تكون قاعدة انطلاق لدين جديد . ولن تسمح القوة المسيطرة فيها لهذا النفر اللاجيء أن يقوى ، حتى يسيطر أو يزاحم المؤسسات الحاكمة والدينية فيها ، هذا الى جانب عائق اللغة بين السكان والقرآن .

(٤) ان يهاجروا الى موطن عربي - في الجزيرة العربية - يصلح لانطلاق الدعوة ، واستعادة مكة ، وتطهير الكعبة وارض العرب من الأوثان ، والانتشار في مشارق الارض ومغاربها .

ونقف هنا عند « الاختيارات » وفيها مجال واسع لإعمال الفكر ، والجمع بين أجزاء من بديلين أو أكثر ، لتتكون صورة جديدة ، مع ثبات الهدف الأكبر ، وهو تكوين قاعدة ينطلق منها الاسلام ، ويعيش فيها المسلمون عقيدتهم ونظامهم .

وكان الاختيار جمعا بين البديلين الثالث والرابع : هجرة جزئية الى

الحبشة ، وبحث عن قاعدة في الجزيرة العربية مع رفض البديلين الأول والثاني ، وفي المدينة اقام الرسول صلى الله عليه وسلم أول مجتمع يحكمه الاسلام ، وله وثيقته التي تنظم علاقات أهل المدينة : من كانوا فيها ، ومن هاجروا اليها .

يومان في رمضان

السنوات العشر المجيدة التي عاشها الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة يرفع فيها قواعد المجتمع الجديد كانت مكثفة العمل والانتاج عميقة الأثر على تاريخ الحياة الانسانية كلها ، ومازال آثارها تتوالى .

وسنذكر فيها يومين في رمضان : غزوة بدر الكبرى ، في السابع عشر من رمضان ، في السنة الثانية للهجرة ، وغزوة الفتح التي دخل فيها المسلمون مكة في العشرين من رمضان في السنة الثامنة . الأول يمثل اكبر انتصار في مطلع تكوين القاعدة ، والثاني اكبر تتويج للنصر بتحرير الكعبة من الأصنام وتحرير مكة من سيطرة الوثنية ، ومقام ابراهيم ممن انحرفوا بحنيفية ابراهيم واسلامه .

ولا نستطيع تصور هذا النصر الا في ضوء الاعداد له والمحافظة عليه ، وتكامله مع البناء الاسلامي :

(١) كان هناك عمل اجتماعي سياسي : تمثل في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وتحصين الجبهة الداخلية من مؤامرات المنافقين واليهود ، وتمثل على الصعيد الخارجي في عقد المعاهدات التي تزيد من فاعلية قاعدة الاسلام ، وتقلل من قدرة قريش على الحركة ، وقد استمر تطوير هذه الخطوط .

(٢) يظاهر هذا تحرك عسكري تمثلت مرحلته الأولى (قبل بدر) في ثمان عمليات عسكرية امتدت على شكل مروحي ، يغطي مساحة تمتد شمالا الى ما وراء المدينة ، وجنوبا الى ما وراء مكة ، وغربا الى البحر الاحمر ، وشرقا الى

اطراف نجد ، لتهدد طريقيْ التجارة الساحلي وهو الأهم ، والداخلي (سرية عبدالله بن جحش : رجب ٢ هـ) .

(٣) قناعة فكرية وعقائدية بالمسئوليات التي يحملونها ومشاركة في الحوار والرأي واخذ القرار التنفيذي بعد المشاورة وتمثل هذا في الحوار الذي دار بين الرسول والصحابة من المهاجرين والانصار قبل بدء المعركة ، واجمعوا فيه على خوضها رغم ان قوتهم كانت كما يلي : ٣١٣ مقاتلا وسبعون من الابل وجوادان وتعادل بالترتيب : ثلثا ، وجزءا من عشرين ، وجزءا من مائة من القوة القرشية .

(٤) تخطيط علمي ودراسة ميدانية : كمثال : في غزوة بدر :

اختيار موقع الأرض الأكثر صلابة ، السيطرة على موارد المياه ، الحرب بطريقة الخطوط الثابتة التي صمد فيها المشاة والرماة امام هجوم الخيل لأول مرة في الحروب العربية ، ثم الاندفاع بعد أن تراجعت الخيل ، وانقلبت على اعقابها تحت وابل السهام المنطلقة من خط الدفاع الاسلامي الثابت .

(٥) الجمع بين العمل السياسي والعسكري وتطويره بعد غزوة الأحزاب (٥ هـ) وكانت ذروة الهجوم على قاعدة الاسلام ، وقد استطاع الرسول في صلح الحديبية (٦ هـ) أن يفك الارتباط بين قريش واليهود ، وان يجمد النشاط العسكري العربي ، ليتفرغ لجبهة اليهود الشمالية ، ويصفيها في العام السابع ، وتم فيه اخضاع حصون خيبر ووادي القرى وفدك وتيماء ، في وقت نشط فيه النشاط السلمي ، والدعوة بين القبائل العربية ، وكسب المسلمون في عامين أخوة في العقيدة أكثر مما كسبوا من بدء الدعوة وأحست قريش بموج الاسلام يحيطها من كل جانب ، فخرقت شروط الصلح ، وبادر الرسول بفتح مكة في العام الثامن ، وبهذا تهيأ الطريق لاسلام الجزيرة العربية كليا ، والانطلاق منها الى القوتين الأكبر : فارس والروم .

رمضان : شاهد ومشهود

لقد كان رمضان شاهد عصر ، تكونت فيه القاعدة الاسلامية الأولى : شهد نزول القرآن ، وغزوتي بدر والفتح ، وايامه مشهودة في تاريخ الاسلام والانسانية،وآيته الكبرى : انه جمع الفكـرة والتنفيذ والأهـداف والوسـائل ، والثوابت والاختيارات ، والمحراب والميدان ، والعبادة والقيادة ، وقيام الليل وسرى الجيش ، وسهر الأعين تحرس في سبيل الله ، واستطاع ذلك الجيل أن يجمع في تناسق وايجابية بين مسئولياته ، دون أن يصرفه واجب عن واجب .

وفي افق النفس الانسـانية ، شهـد رمضان فـرحـة المنتصـر ، ودمعـة الحزين ، والحزن حق ، والصبر حق ، ولنستحضر عودة الرسول منتصرا من غزوة بدر ، ليجد ابنته رقية تجود بانفاسها الأخيرة ، بعد ان ارهقتها الهجرة الأولى الى الحبشة والثانية الى المدينة ، مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنهم اجمعين .

هكذا كان رمضان خلاصة للحياة والمسئولية ، هو الشهر الوحيد الذي ذكر الله اسمه صريحا في القرآن ، ولننظر الى ايامه واحداثه كأنها للأشهر الأخرى قائد ودليل .

وتمضي الأعوام

وفي تاريخ الاسلام الطويل نقف عند ثلاثة أيام اخرى في رمضان تحتاج الى كثير من التأمل والتحليل .

(١) يوم في مواجهة الصليبيين : بعد ان اندفعت حملتهم الأولى واستطاعت دخول بيت المقدس ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م . وقتلوا من اهلها عشرات الألوف ، وقد ظلت في ايديهم نحو تسعين عاما ، وكـان عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م عـاما

اسلاميا مشهودا ، في ربيع الأول منه كان انتصار صلاح الدين على الصليبيين لصالح المسلمين ، وان دخلت المعارك في طور جديد . وفي ذكرى الاسراء والمعراج (٢٧ من رجب) دخل صلاح الدين والمسلمون بيت المقدس في نظام وسلام ، ثم شهد رمضان فرحة النصر واستعادة المسجد الأقصى والصخرة المشرفة .

(٢) يوم في مواجهة التتار : وكان في ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م . . وذلك بعد هزيمة المسلمين وسقوط بغداد قبل ذلك بعامين (٦٥٦هـ) . وانهيار الخلافة العباسية . . ثم صمود المسلمين من مصر والشام بقيادة قطز ، في معركة عين جالوت ، وكانت بدء انحسار الموجة التتارية .

(٣) في مواجهة الصهيونية « واسرائيل » : وكان هذا في العاشر من رمضان ١٣٩٤هـ / ٦ اكتوبر ١٩٧٣ عندما استطاع الجيش المصري متعاونا مع اخوانه العرب وبتنسيق بين الأسلحة العسكرية والسياسية والاقتصادية ، ان يعبر قناة السويس ، ويحطم خط بارليف ويحطم معها اسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر . . وهو يوم لايزال علينا أن نطوره حتى يؤتي ثماره ، ودون أن نبدد الجهود ـ من بعده ـ في تيه المحادثات ، واعماق التجميد ، ودروب الفرقة والصراعات الداخلية .

وللغد مشروعه

إن تجارب الأمم أصابع حية ، تشير الى الابداع الذي صنع الماضي وأقام الحاضر ، والذي يمهد للمستقبل . ولا صناعة للمستقبل دون الارتكاز على قاعدة التجربة ، والانطلاق منها الى ابداع جديد .

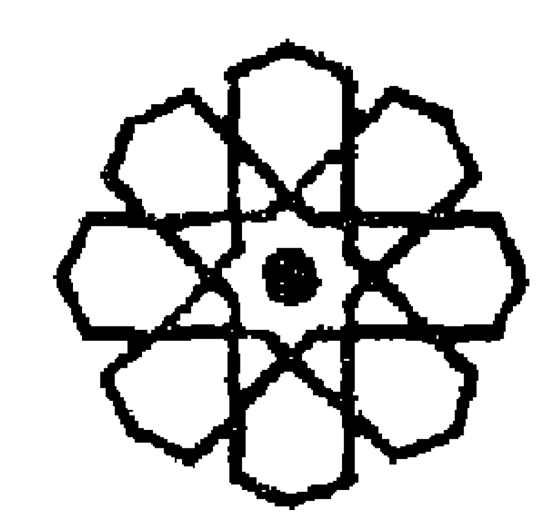
فلتكن الركائز العقائدية والاخلاقية والثقافية من الثوابت ، ولكن المستقبل « جهاد واجتهاد » نصنع فيه متغيرات جديدة ، تستجيب لحاجات الحياة المتطورة .

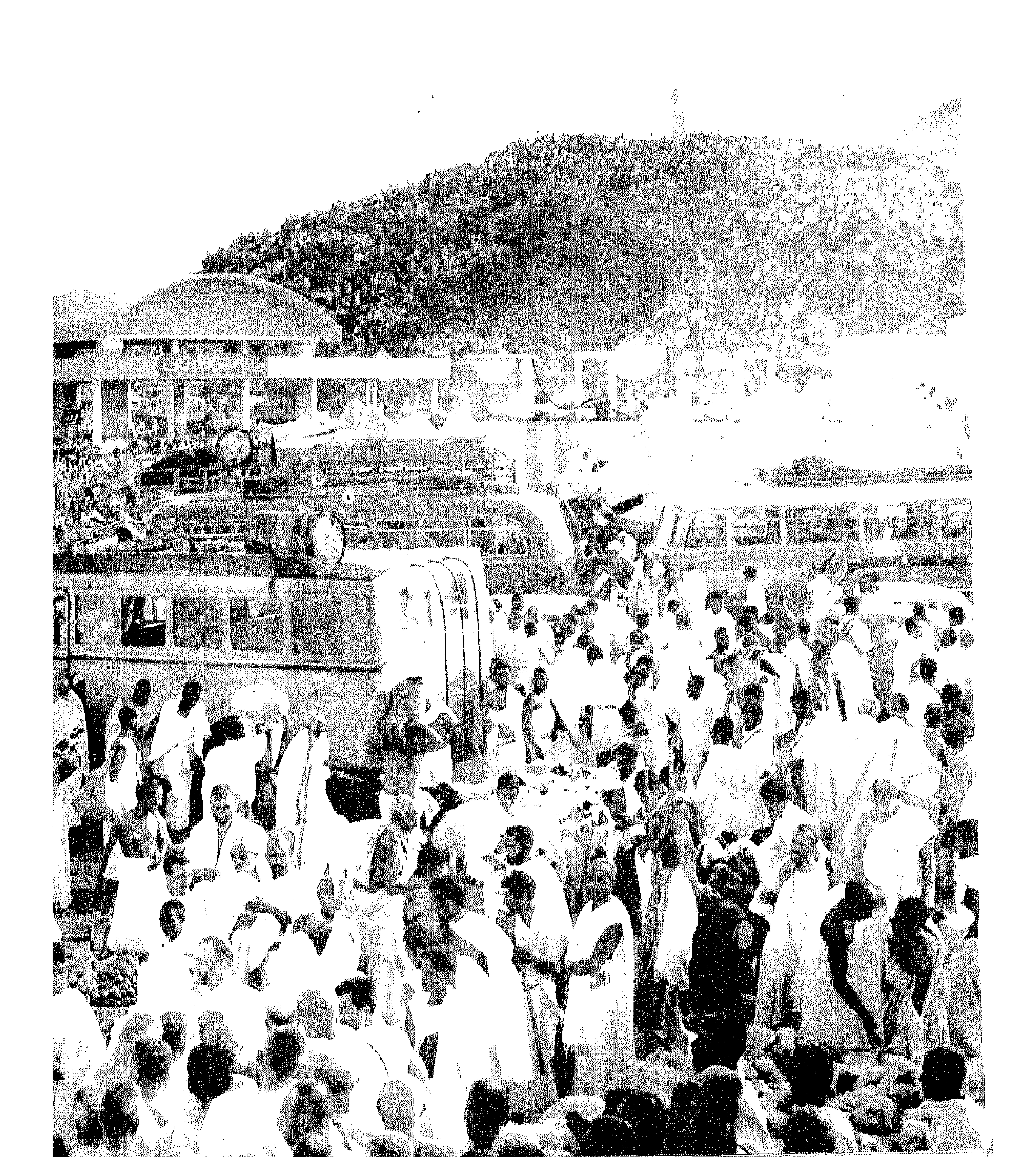
ونقترب من أرض الواقع الساخن والملتهب ، فنقول : إن المشروع الاسلامي المستقبلي ـ بطبيعته وفي اكتماله ـ يتكون من جزيئات هي : قدرات العالم الاسلامي الطبيعية والبشرية ومشكلاته وآماله ، على مستوى دوله واقاليمه اره الكبير . وما ينبغي ان تظل هذه الجزيئات حشدا او كثيبا ، ولكن على العقول الاسلامية ان تصوغ منها صورة شاملة واضحة المعالم والمراحل والأهداف ، لكل وطن او أقليم أو مشكلة فيها قسم معلوم ، هذا مدخل . فان لم نستطع ، فلنفكر في مدخل آخر :

● هناك قضايا رئيسية تهم العالم الاسلامي : البحث العلمي ، التربية ، الاقتصاد ، فلنحاول بالتدريج استبعادها من دائرة الصراع واحدة بعد الأخرى . ولنعاملها كانها « الهلال الاحمر » ، او « هيئة الامم المتحدة » . . ومن تعاونها ونجاح التجربة فيها ، يذوق العالم الاسلامي ـ من جديد ـ طعم التعاون والمشاركة وثمارها الطيبة ، ومن طبيعة النجاح أن يقود الى نجاح اذا صدق العزم .

● فان لم نستطع . فلنفكر في مدخل ثالث :

ان نركز كل جهودنا على ايقاف النزيف الاسلامي والحروب والصراعات الداخلية بيننا وهي معارك ان كان فيها منتصر ومهزوم فالكل فيها خاسرون .





الوَحدة وَالتنوّعُ في العَالم الإسلامي

وصف الله تعالى البيت الحرام بقوله : (إن أولَ بيتٍ وُضع للناس لَلّذي ببكةَ مباركا وهدى للعالمين . فيه آياتٌ بيناتٌ مقامُ ابراهيم وَمَنْ دخله كان آمنا ولِلّهِ عَلَى الناسِ حِجُّ البيتِ مَنْ استطاع إليه سبيلا وَمَنْ كفرَ فإن اللّهَ غنيٌّ عن العالَمين) (آل عمران : ٩٦ ـ ٩٧) .

وكان أول ما أنزل من القرآن على المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ النبي الخاتم ـ قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق خَلَق الانسانَ مِنْ عَلَق ، اقرأ وربُّك الأكرم ، الذي علّم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم) . (العَلَق : ١ ـ ٥)

وبالحج والقرآن والإيمان بالرسالةِ سلوكاً وعقيدة وشريعة تحددت أبرز معالم الوحدة في الإسلام . فلنتناولها بشيء من التفصيل :

القرآن والرسول

والقرآن الكريم هو الكتاب المنزل الوحيد الذي يستطيع المسلمون من سن مبكرة أن يحفظوه عن ظهر قلب ، وأبناء الإسلام هم التصوير الحي لقول الله تعالى : (إنَّا نحن نزَّلنا الذكرَ وإنَّا له لحافظون) (الحجر : ٩) ولقوله تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر) (القمر : ١٧) .

والقرآن الكريم ، هو الكتاب الذي تواتر كوثيقة من وقت أن أنزله الله على قلب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فكتبه أصحابه وحفظه منهم من استطاع ، وطبقوه والوحيُ ينزل ، فكان عندهم العلمُ والعمل .

يقول الامام ابن كثير في مقدمة تفسيره : قال أبو عبد الرحمن السلمي (وهو من كبار التابعين الحافظين لكتاب الله) : حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا (أي من الصحابة) أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا .

وجمع ذو النورين ـ الخليفة الراشد عثمان بن عفان ـ المسلمين على المصحف الجامع ، بعد أن انتشر الصحابة في الأمصار ، بدلا من اعتماد كل منهم على ما كتب بيده ، أو حفظ بذاكرته فكان عمله توثيقا كتابيا جامعا . وهذا العمل التوثيقي في الاجتماع على أصل واحد عصم القرآن ، كما عصم أبو بكر الإسلام بحروب الردة ، وصان كيان الدولة والوحدة الإسلامية . . والتقت بهذين العملين وحدة الإرادة ووحدة العبادة .

والقرآن للمسلم كتاب الحياة ، والأمر الالهي الأول (اقرأ) مازال قائما ، كان أمرا للمصطفى وهو لكل مسلمٍ من بعده ، وهو أمر يلتقي مع فطرة الإنسان ، والفطرة دين ، والدين فطرة ، والله تعالى يقول : (فأقم وجهكَ للدين حنيفاً فطرة اللّهِ التي فطرَ الناسَ عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم

ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين) (الروم : ٣٠ - ٣١) .

والقرآن عقيدة وشريعة وأخلاق وقصص : عقيدة هي التوحيد والإيمان بما أنزل الله من كتاب ، وشريعة فيها إجمال ما يتغير - كالنظم السياسية والاقتصادية - وتفصيل مالا يتغير كالعبادات ، وأخلاقٌ هي مستوى التعامل الذي صوره الرسول في حياته . فكان تصوير الأخلاق بالأسوة والكلمة . قال تعالى واصفاً رسوله (وإنك لعلى خلق عظيم) (القلم : ٤) ، وقال مخاطبا المؤمنين : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) (الأحزاب : ٢١) ، وقصصٌ : قال الله تعالى (لقد كان في قَصَصِهم عبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ، ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ كلِّ شيء وهدى ورحمةً لقوم يؤمنون) (يوسف : ١١١) .

وبهذا دعا القرآن الى التوحيد والوحدة ، والى العمل الصالح في هذه الدنيا ، والإيمان بعقيدة الجزاء ، الناس جميعا عباد الله ، وهم في الإنسانية إخوة ، جاءوا من نفس واحدة (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا) . . . (النساء : ١) .

والتوحيد نداء دائم للوحدة ، والصلاة تعبير دائم يومي عنها : الفرائض الخمس ، الاستعداد لها ، طريقة أدائها ، ثواب الاجتماع عليها ، كونها تلخص الإسلام كله : ففيها التوحيد ، وهي صلاة ، ولا طعام ولا شراب عند أدائها ففيها من الصوم نصيب ، وفيها تقديم جزء من الوقت وهو الحياة ، وهذه روح الزكاة ، وفيها التوجه الى البيت الحرام ، وهذا نصيبها من الحج وتذكير دائم به ، وفيها الاجتماع على هدف والانتظام من أجله ، وحسن القيادة والاتباع ، وتصويب الخطأ إذا كان من الامام والفتح عليه إذا سها وهو يتلو ، فهي ليست اتباعا دون وعي ، ولكنها اتباع يقظ وتعاونٌ وتناصُح .

والزكاة رباط روحي واقتصادي بين الغني والفقير ، والصوم مساواة في أداء العبادة لكل قادر عليها ، وتأكيدٌ لروح الوحدة الإسلامية على امتداد العصور والأقطار ، يؤديها كل مسلم في موطنه أو مقامه .

وفي هذا تختلف عن فريضة الحج حيث يجتمع الحجيج من كل فج عميق ليؤدوا مناسكها معا . ونقف فيها عند أمور أساسية :

١ ـ المساواة في الملبس بالاحرام .

٢ ـ تضاف وحدة المكان إلى وحدة الملبس في الطواف بالبيت العتيق والسعي بين الصفا والمروة .

وإذا كان الطواف تعبيراً عن الحب ، وصورة لحركة الكون ـ والكون كله في طواف دائم ، تراه في المجموعة الشمسية كما تراه في الذرة ـ فإن السعي تعبير عن الحركة من أجل هدف ، كان الحصولَ على الماء ، والحياة حبٌ وهدف .

٣ ـ ثم تضاف وحدة الزمان الى وحدة المكان والملبس ، وذلك في يوم عرفات وهو ذروة الحج . هنا الوحدة الشاملة الكاملة في أروع صورها ، حيث يتلاقى المسلمون ـ ضيوف الرحمن ـ على غير أرحام تصلهم ، ولا وحدة لسان أو لون ، ولكنها العقيدة التي يحسون بها أقوى من كل الفوارق ، وهو مشهد يتكرر كل عام ، مشهد مفتوح لكل قادر عليه ، وإنْ كان على المسلم القادر أن يؤديه ـ فريضة ـ في العمر مرة . هذه أضخم لوحة يرسمها المؤمنون بأجسادهم حول البيت العتيق وفي عرفات .

بين الوحدة والتنوع

ولقد جاء الإسلام من أول أمره مشيرا إلى مظاهر التنوع البشري والطبيعي ، مع وحدة الحياة والإخاء الإنساني : فالأرض هي وطن الإنسان . . كل الإنسان . (والأرضَ وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام .

والحَبُّ ذو العصفِ والريحان) (الرحمن : ١٠ ـ ١٢) ، وإذا رجعت الى سورة الرحمن ـ كمثال ـ رأيت أوصافا للكون كله : بسمائه وأرضه ، بره وبحره ، دنياه وأخراه ، عمله وحسابه ، وتحس الوصف دعوةً مفتوحة إلى عمران الحياة .

وجاء اختلاف الألسنة والألوان مظهرا لقدرة الله تعالى (ومن آياته خلقُ السمواتِ والأرض واختلافُ ألسنتِكم وألوانِكم ، إنَّ في ذلك لآيات للعالمين) (الروم : ٢٢) .

وشأن البشر في اختلافهم شأن مظاهر الكون الأخرى (ألم تر أنَّ الله أنزلَ من السماء ماء فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفا ألوانها ومن الجبالِ جددٌ بيض وحمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانُه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) (فاطر : ٢٧ ـ ٢٨) .

فهناك إشارات الى عوالم وعلوم الطبيعة الجوية والنبات والجيولوجيا ، والأجناس والحيوان والتربة والأرض . وتأمل كيف جاء لفظ « مختلفُ » ثلاث مرات في الآيتين ، وجاء لفظ « العلماء » مرة واحدة . وكان عليهم ـ وهم جميع متعاونون ـ أن يدرسوا مظاهر الاختلاف هذه ، ويضعوا لكلٍّ منها علومها ومناهجها دون أن يغيب عن أنظارهم « وحدة الخلق » و « توحيد الخالق » . هل نقول وحدة المعرفة في تعدد مظاهرها ، وتنوع آفاقها ؟ هنا الوحدة في التنوع ، والتنوّع في إطار الوحدة .

من عروبة الحضارة الإسلامية إلى عالميّتها

بهذه المفاهيم الأساسية قام الإسلام : كان في أول أمره « جزءا » من العروبة ، دعوته الأولى في مكة ، وقاعدته الأولى في المدينة ، ومنها انتشر حتى غمر الجزيرة العربية في العهد النبوي ، واهتزت الجزيرة بعد وفاة الرسول ، ثم استقرت الدولة وانطلقت الى آفاق جديدة بدءا من عهد الخلافة الراشدة .

نعم : إن الرسول بعث برسائله الى الملوك والحكام من حوله يدعوهم الى الإسلام ، فمنهم من رد ردا كريما ومنهم من غلبه الغرور . وكان اصطدام الإسلام بما حوله من عهد النبوة ، ولكن المواقع الكبرى جاءت بعد رحيله ، وكانت خطوط المقاومة الرئيسة الى شمال قاعدة الإسلام في المدينة ، في الشمال الشرقي حيث الفرس ، وفي الشمال الغربي حيث الروم .

إذن : عبر الإسلام حدود العروبة الى أرض حضاراتٍ جديدة ، وأصبح العرب بعض الإسلام، بعد أن كان الإسلام بعض العرب ، وانتشرت العربية مع الإسلام والقرآن ، ولنذكر أن العرب هم أولُ من حمل أمانة الإسلام إيمانا ونشرا وجهادا . والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين على رسول عربي في أم القرى العربية ، ودار الهجرة وما حولها . ومن هنا كان الرباط الوثيق والمقدس بين العروبة والإسلام والقرآن .

وان اختيار الزمان والمكان والرسول واللسان أمور تتعلق ـ في الإسلام ـ بإرادة الله ، لا بإرادة البشر ، والإسلام كما هو كرامةٌ وتكريم فهو مسئَولية وعطاء . والانتسابُ إلى أمة الإسلام تحكمه ثلاثُة أركان تجمعها الآية الكريمة : (كنتم خيرَ أمة أُخرجتْ للناس تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنكر ، وتؤمنون بالله) (آل عمران : ١١٠) ، والكرامة في الإسلام بالتقوى . والتقوى عقيدة وعمل .

وبالفهم السمح لاختلاف الألسنة والألوان والبيئات والقدرات وامتداد المكان وتعاقب الزمان ومتغيرات الحياة ، خرج الإسلام من الجزيرة العربية إلى العالم ، أو هكذا ينبغي أن يكون .

ولا نستطيع أن ننكر دور القبيلة في الحياة العربية ، ولا أن نتنكر له ، فمن قديم عرفت الجزيرة العربية : عرب الشمال والجنوب : العدنانيين والقحطانيين ، وعندما هاجروا في الجزيرة من موطن الى موطن حملوا معهم روابطهم ، ومن الممكن أن تتعايش الروابط ، ومن الممكن أن تتصارع ، من الممكن أن تصبح وحدات منظمة تتحرك مع القيادة الى أهداف الإسلام ، ومن

الممكن أن تصبح قوى ضاغطة يستعين بها المتنافسون على السلطة ، وتتحول الروابط الى « عصبيات » ضيقة وجامحة ، تشتعل بها نيران الحروب ، ويتحول بها بأس المسلمين إلى التنازع ، وعلى الرغم من التحذير الالهي (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) (الأنفال : ٤٦) فقد حمل عرب الجزيرة بعض هذه العصبيات حتى عبرت معهم البحر المتوسط إلى الأندلس ، واندفعت شرقاً إلى وسط آسيا ، وكان لها أثرها في تمزيق وسقوط دول إسلامية ، وقيام أخرى .

وجاءت عصبيات أخرى من الأقطار المفتوحة ، منهم من رضي الإسلام دينا ، ومَن كان هواه مع قومه ، ومنهم من ظل على دينه ورأى في الإسلام قوة غازية ، عليه أن يقاومها ويطردها من الديار .

ولم يقتصر الأمر على العصبيات العرقية واللونية والقومية ، وإنما امتد الى العصبيات المذهبية . ونستطيع أن نرجع ـ كنموذج ـ إلى كتاب الملل والنحل للشهرستاني المتوفي سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م لنرى صورة عن الحياة العقلية والمذهبية للإسلام حتى في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي . . واعتقاد كل فرقة من الفرق التي زادت على السبعين أنها على حق ، وأنها الفرقة الناجية .

وإذا كان كثير من هذه الفرق قد طواها التاريخ ، أو نبت بعدها جديد ، أو تعايش بعضها مع بعض في ظل الإخاء الإسلامي فإن أخطر ما يعانيه الإسلام هو أن يتحول الحوار بين الفرق الإسلامية الى صراع مسلح ، أو تحاول إحداها فرض آرائها بالقوة على من يعيشون في ظل دولتها ، وتقوم بتصدير مبادئها الى ما وراء حدودها .

خطورة الفرق الإسلامية هو التحول من رأي عقلي إلى صراع سياسي وعسكري ، وأبرز نماذجه المعاصرة وأشدها ضراوة : الحرب بين إيران والعراق ، والصراعات المذهبية في لبنان .

وهذه المشكلات العسكرية المذهبية أو الدينية ليست مقتصرة على الوطن

العربي والإسلامي ، فهي من أمراض العصر ، هذا العصر الذي أصبح العنف فيه لغة دولية ومن أمثلته : الصراع الايرلندي البريطاني وهو في جوهره صراع بين البروتستانتية والكاثوليكية ، والصراعات المذهبية في الهند ، والصراع بين شمال السودان وجنوبه ، والصراع بين الأتراك والأرمن ، وحركات العنف في أكثر من قطر إسلامي .

ومن الصراع إلى التعايش

ولكن الذي نود الوقوف عنده : أن الكثير من جوانب الاختلاف العرقي واللغوي والمذهبي في أوروبا التي قامت بينها الحروب قرونا قد استطاع القوم هناك أن يتخطوها إلى صور جديدة من التعاون ، وأخلت الحروب والمعاهدات مكانها لسوق أوروبية مشتركة ، وبرلمان أوروبي ، وتعاون علمي وتقني ، يجدون فيه منافسة خطيرة من اليابان ومن حولها دول في الشرق الأقصى ، ونحن بمقاييسهم مازلنا نعيش في مرحلة الصراعات المذهبية والقوميات الضيقة ، دون أن نصعد بجهودنا إلى تحديات العصر الذي نعيش فيه . .

المثلث الحضاري

ولنحاول الآن تحديد المؤثرات التي تزيد من شقة الخلاف في العالم الإسلامي المعاصر :

أولا : المواريث الحضارية السابقة للإسلام في الأقطار التي انتشر فيها فالصورة ـ أو الصور ـ في إفريقيا تختلف عن آسيا ، والاثنتان تختلفان عن صورة الوطن العربي .

ثانيا : المؤثرات الإسلامية ذاتها ، بمدارسها واتجاهاتها المختلفة .

ثالثا : الحضارة الغربية ، وقد استطاعت منذ القرن السادس عشر أن تحيط بالعالم الإسلامي ، وتحرمه من الموارد الضخمة في العالم الجديد ، وأن

تجعل الحضارة الإنسانية أوروبية المصدر ، وأن تغزو العالم الإسلامي والإفريقي والآسيوي ، هذا مع تعدد مدارسها بين الاقتصاد الحر والرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ، واتجاهاتها الفكرية والدينية : من نشر المسيحية بكنائسها المتعددة إلى نشر الإلحاد ، ومن محاولات نشر أساليبها في الإدارة والحكم والنظم السياسية والاقتصادية . . وفي هذا كله وجد العالم الإسلامي نفسه أمام غزو كاسح وتجاذب وتنافر تعددت معه المواقف .

لقد شبهنا المؤثرات الثلاثة الأساسية بأضلاع مثلث ، ولكن أين يقف العالم الإسلامي ؟ أفي داخل المثلث أم خارجه ؟ وإذا كان داخله ، فإلى أي الأضلاع أقرب ؟ وإذا كان خارجه فإلى أي اتجاه يسير ؟ .

وتستطيع ـ هندسيا ـ أن تضع بعض الدول الإسلامية داخله والبعض خارجه ، وفرقٌ بين أن يحصرك المؤثر أو تتحكم أنت في مساره وتسيره به ومعه .

وأتصور الوضع الأسلم الذي يكفل للعالم الإسلامي اقترابا من وحدته وتعاونا في مساره ، أن يحسن الاختيار من التراث القديم ومن شريعة الإسلام (ولا أقول العقيدة لأنها ليست اختيارا) ومن منجزات العالم الحديثة .

والاختيار ليس مجرد تراكم أو تجاور ، وإنما هو في ذاته تمهيد لإبداع جديد ، ولنبدأ من نقطة وسط المثلث ، ترى كل ما حولها ويأْمَنُ الواقف فيها أن الأضلاع الثلاثة حوله ليست حوائط أو أسوارا حاجزة ، وإنما فيها أبواب ونوافذ تطل على الأعماق إذا كانت ماضيا ، وعلى الآفاق الجديدة إذا كانت حاضرا وغدا .

المثلث يتحرك

ومع التزود من المصادر الثلاثة يكون المسار بحيث يصبح المثلث كأنه رأس سهم متحرك إلى الغد ، دون أن ينفرط نظامه أو تتكسر أضلاعه .

هنا يبدو الإبداع في صورة من أجمل صُوَره : يمكن فيها أن يحتفظ كل قطر إسلامي بخصوصيته الحضارية ، من تراثه القديم ، وإفادته وعطائه الإسلامي ، وتعامله مع العالم الحديث ، وفيه حشد من المراكز الحضارية .
هذه الخصوصية لا تنفي ولا تعارض الوحدة الكبرى التي تنظم العالم الإسلامي .

ولتكن « الاستراتيجية » الكبرى كما يلي : تقوية عوامل الوحدة والتقارب ، وتعايش الفروق الحضارية ، بحيث لا تصبح - بتقويتها - قوى تنافرٍ وتباعُدٍ تحطم روابطَ الوحدة ، وكذلك لا تكون روابط الوحدة قوى ضاغطة تحول دون نمو الخصوصيات الحضارية وهي بطبيعتها في الفروع لا في الأصول .

نداء من المسجد الحرام

إن القرآن الكريم يصف البيت الحرام بقوله : ﴿ وَمَنْ دخله كان آمنا ﴾ (آل عمران : ٩٧) ذلك لأن له مكانة تعلو على الفروق والخلافات والجدال .
فهل نستطيع أن نأخذ من هذه الحرمة قبسا - مجرد قبس - نهديه إلى الحركة العلمية الإسلامية ؟ مجرد تأمين للأنشطة العلمية وتوثيق لروابطها وحرية تتوافر للعلماء في الحركة والاتصال والبحث ، بعيدة عن تيارات السياسة وعواصفها .
وسنجني من ذلك الكثير ، فإذا نجحت التجربة أمكن تطبيقها على مجالات أخرى ، وبهذا تتسع دوائر التعاون ، ويزداد تدرب الأجيال الجديدة على الإخاء والسماحة والحوار العقلاني ، وفي هذا كله عون على تكوين صورة جديدة للعالم الإسلامي في وحدته الكبرى ، وتعدد خصوصياته الحضارية ، وتعايش الوحدة مع التنوع .

الصحوة الإسلامية بين الجسور والعقبات

عندما كنت أجمع نقاط هذا المقال ، وأتصور خطوطه العامة ، وضعت القلم ، وتخيلت موقعي مركزَ دائرة ، وأفكار المقال وخطوطه منتشرة على سطحها ومحيطها .

وأقصد هنا الموقع المادي أو الجغرافي . .

١ ـ رحلة المكان

كان من قدري أن أعيش في التقاء مجموعة من خطوط التماسّ :

نافذة مسكني تطل على خليج الكويت في رأس السالمية ، وأمامي الميناء البحري إلى جزيرة فيلكا . وخط الأفق الشرقي لا يكاد يخلو من سفينة مقبلة على الخليج أو صادرة عنه ، وفي الليل ـ إذا كان الجو صافيا ـ تبدو أنوار الجزيرة زهورا مضيئة أو نجوما باسمة جاءت تزور الأرض .

وإلى الغرب قبلة الصلاة والأرض المقدسة ، وما زال أهل الكويت يميزون في المدينة القديمة بين الشرق والقبلة .

هذا خط التماسّ الأول بين البر والبحر .

العربي العدد ٣٤٢ مايو ـ أيار ١٩٨٧م .

يأتي بعد هذا خط التماسّ الثاني بين القطاعين العربي والآسيوي من العالم الاسلامي ، وتشتد قوة هذا الخط إذا ضممنا إليه الروابط الافريقية ، وهي قديمة مع الخليج برا وبحرا . .

وعندما أراد خيالي أن يسبح شرقا في العالم الاسلامي الآسيوي ، استوقفه أخدود من الدم وحرائق أشعلتها الحرب العراقية الايرانية . وكيف يستطيع الخيال الجريح كسير الجناح أن يطير ؟

ومن مسكني ليلا ـ وأحيانا نهارا . تصل إلى سمعي رعود القذائف ، ومع كل قذيفة روح تزهق ، أو بنيان يتحطم ، أو سفينة تصاب ، أو غصون خضراء تتكسر ، وأحقاد تتزايد ، والكل مسلمون ، لهم نبي واحد ، وقبلة واحدة . . ، وقرآن واحد .

فلنتابع الرحلة شرقا لنرى إخوة في أفغانستان ، عاشوا قرونا يتنفسون الحرية ، هم أبناء جبال كأنها في ارتفاعها وشموخها صورة كبرياء الأرض ، وتنحدر من ثلوجها النقية أنهار تحمل في تدافعها وهدوئها الخصب والنماء ، ترعاها سواعد قوية وقلوب تقية .

رأيت هذه الوجوه الشماء من قريب في بشاور (نوفمبر ١٩٨٦) ، غير بعيد من حدود بلادها . عزيزة في هجرتها ، مع تصميم على العودة ، واستمعنا إلى بطولات حرب وصمود ، وشاهدنا شبابا من الكويت ومن أقطار العالم الاسلامي وبعض المؤمنين بكرامة الانسان في الغرب وهم يبذلون الجهد الطبي والاجتماعي والاقتصادي لعون اللاجئين ، حتى ترتد موجة الهجرة عودة ، يخلو بها ويصفو وجه أفغانستان لأبنائها .

ولك أن تتابع الرحلة شرقا لترى تأثير هذه الحروب على القلق السكاني في الأقطار المجاورة ، ثم ترى النشاط التبشيري المنتظم في الأطراف الشرقية للعالم الاسلامي ونحن عنه ساهون ، حتى الكلمات أصابها التشويه : تخريب العقائد أصبح تبشيرا ، كما سموا الاحتلال ونهب الثروات من قبل « استعمارا » ! .

وفيما بين الموقع الذي أحدثك منه والأطراف الشرقية لعالمنا الاسلامي قامت حروب الطوائف والعقائد والعنصريات كأنها « مرض الإيدز » السياسي والاقتصادي ، طاعون جديد لم نستطع حتى الآن أن نتخذ له مصلا واقيا .

فلنترك الشرق إلى حين ، ونتجه غربا في وطننا العربي ، وسنقف عند النواة التي تفجرت منها أكثر من حرب .

سنقف عند القدس الشريف والمسجد الأقصى وفلسطين ، ولك أن تربط بها أكثر ما حدث في جميع الأقطار العربية حولها دون استثناء ، من حروب مباشرة في ميادين القتال مع (اسرائيل) الى حروب داخلية عربية عربية ، هي عند (اسرائيل) أحد الآمال المنشودة : أن يقتل العربيُّ العربيَّ ، وأن تتحول بعض الخلايا الطيبة في الجسم العربي إلى خلايا سرطانية جشعة تتغذى على الجسم الذي يؤويها .

ولو تابعتَ الرحلة غربا فستجد في كل قطر عربي ما يشغله بنفسه أو مع جيرانه العرب أو الأفارقة المسلمين .

ثم هناك عبر الصحراء هذه الحرب الصامتة : الجيش الغازي يتكون من حبات الرمل ، وفرسانُه الرياحُ السافية ، وضحاياه الأرضُ الزراعية والمراعي ، ومن بعدها سكانُ الأرض التي سادها الموت واتسعت بها مملكة الخراب .

هذه الحرب ممتدة في العالم الاسلامي الافريقي على جبهة تبدأ من مشارف البحر الأحمر حتى المحيط الأطلسي . .

أليست هذه الحرب أوْلى أن نخوضها من حرب الأشقاء والجيران ، أو ما يطلق عليه بعض المحللين الغربيين « حرب الأغنياء الذين يشترون الموت بالمال ؟ .

والآن : هل كنتُ أمينا مع القاريء عندما وضعت كلمة « الصحوة الاسلامية » في عنوان المقال ، ثم رأى نفسه يسير معي في أرض الدم والدمع ؟ .

نعم : هذا بعض الحق ، وكان الحديثُ عن العقبات فماذا عن الجسور والمعابر ؟ فلنتركها إلى حين ، ولنحاول أن نقوم معا برحلة أخرى عبر الزمان وقد كانت رحلتنا الأولى عبر المكان ، وبهذا تتكامل الصورة ويبدو موقع الصحوة الإسلامية زمانا ومكانا ننظرُ منه إلى مشارف المستقبل .

٢ ـ رحلة الزمان

لقد لقي الاسلام في مساره صنوفا من التحديات ، وتجلت حيوية أجياله في قدرتها على مقابلة هذه التحديات ، فتجعل من عقباتها معابر إلى آفاق أوسع ، ولنمر عليها مسرعين :

أولا : كان التحدي هو « الدعوة » ، أن يصل الإسلام إلى الآذان والعقول والقلوب ، وأن يتحمل المسلمون مسئولية ذلك ، ونالهم من الأذى البدني والاجتماعي والاقتصادي والفكري الكثير ، وهاجروا إلى الحبشة وحوصروا في شعب بني هاشم ، ولكنهم استطاعوا تكوين « القاعدة البشرية » التي تستطيع حمل هذه الأمانة .

ثانيا : كان عليهم تكوين « قاعدة أرضية » ، من أجل ذلك جاءت الهجرة إلى المدينة ، وتكونت دولة الإسلام الأولى حيث الأرض والبشر والتنظيم في وحدة إسلامية جامعة ، وكان على هذه القاعدة أن تنمو داخليا وأن تكوِّن ذاتها خارجيا . وكأنّ مجالات التحدي قد اتسعت .

ومرت حياة المدينة في مرحلتين أساسيتين : أولاهما قبول التحدي من مشركي العرب ومَنْ معهم من اليهود في خط من الحصون ممتد من المدينة إلى تيماء مرورا بوادي القرى وخيبر وفدك .

والثانية : قبول التحدي من دولتي الفرس والروم ، وبعضُ هذا التحدي ما زال مستمرا حتى الآن في صورة جديدة .

ثالثا : مرحلة الكوفة : وقد استغرقتها الحروب الداخلية بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وبدت فيها بعض الثمار المرّة لفتنة عثمان بن عفان رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين وسالت فيها دماء ما زالت رطبة حتى الآن ، دماء نبعت منها دماء جديدة ، وثارات ولّدت ثارات .

وعلى الرغم من هذه الصراعات في عهد الخليفة الراشد الرابع ، فقد أرسلَ جيشا فَتَحَ السند (٣٩ هـ / ٦٦٠ م) ، وأبرزَ عنايةَ الخليفة بهذا الوجه من آفاق الفتح الإسلامي .

رابعا : كان التحدي في عهد بني أمية أكثر اتساعا ، وعلى الرغم من هذا حاولت دمشق أن تمسك بالمبادرة في يدها ، وتمثلت التحديات في آفاق ثلاثة رئيسة :

(١) الصراعات الداخلية بين القوى الاسلامية .

(٢) تنظم وتحديث الدولة وضبط التوازن بين الأصالة الاسلامية والعربية وبين الحضارات التي لقيها الاسلام وبخاصة ما كان في الدولة الرومية .

(٣) حما[illegible] ولة الاسلامية برا وبحرا ومدّ حدودها ، ومن أجل هذا خاضت حروبا امتدت شرقا إلى الاطراف الغربية للصين ، وشمالا حتى القسطنطينية ، وغربا حتى المحيط الاطلسي ، وعبرت جبل طارقَ حتى أدركت السهول الجنوبية في فرنسا ، وهذا مع المحافظة على نواة عربية إسلامية تحمل المسئولية العليا والقيادات ، متعاونة مع الشعوب التي قبلت الإسلام دينا .

خامسا : صورة التحدي في العهد العباسي أصابها تعديل جديد برز فيه الوجه الحضاري ، وحوار الحضارات كان عقلانيا أحيانا ، عنيفا داميا أحيانا أخرى ، وشهد العالمُ الاسلاميُّ تمزّقَ وحدتِه السياسية ، وبرزت خطورة سيطرة العناصر التركية المجلوبة على الجيش ، وسيطرةِ أسرٍ عربية وغير عربية على أجزاء من الدولة ، وأصبح مضمون الخلافة رمزا أكثر منه حقيقة واقعة ، وانعكس هذا استغلالا للمنتجين الحقيقيين في الزراعة والصناعة والتجارة ،

وثوراتٍ وتطلعات إلى السلطة في أقطار الدولة ، مما مهد الطريق أمام زوال الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م على يد التتار .

سادسا : ومع بروز مراكز بديلة لبغداد في قيادة أجزاء من العالم الاسلامي ، إلا أن أكبر التحديات في هذه المرحلة كان عسكريا ، وأبرز ما فيه الخطران : التتاري والصليبي ، وقد استطاعت المراكز البديلة صدَّ الهجمات والاحتفاظ بالوجود الإسمي وإن تعددت فيها القيادات ، ولو صحِبَ التعددَ تعاونٌ لاستطاع أن يُثمر للإسلام خيرا ، ولكنَّ الصراع الذي حدث بينها استهلك الكثير من طاقة الإسلام .

سابعا : ولعل أخطر ما حدث هو سبق دول غرب أوروبا إلى كشف العالم الجديد ، والطواف حول إفريقيا وحول العالم ، وبهذا أمكن تطويق العالم الاسلامي والضغط عليه واختراقه وتمزيقه في قطاعاته الآسيوية والافريقية والعربية ، وأصبح التحدي الكبير هو : كيف تحافظ الدول الاسلامية على استقلالها ، وأكثرُها عَجَز عن ذلك .

ثامنا : وجاءت تباشير الصحوة الاسلامية مع القرن العشرين على مستوى وطني ، ولكل قطر شأن يغنيه ، واستطاع بعضها أن يستعيد استقلاله ، وقويت الموجة بعد الحرب العالمية الأولى ، وعلت بعد الحرب العالمية الثانية وإن استطاع الاستعمار أن يغرس خنجرا غائرا في جسم العالم الاسلامي ، بدأ بوطن قومي لليهود أفرخ قيام إسرائيل كقاعدة استيطانية توسعية ، تتلقى المدد الدائم البشري والمادي والمعنوي من عدد من الدول الكبرى ، وتمثل تهديدا دائما للعالَمين العربي والاسلامي ، ولها تعاونُها المنتظم مع قاعدة مناظرة في جنوب إفريقيا .

تاسعا : ومع ثورة الاتصال المعاصر وتوافر موارد اقتصادية في بعض أجزاء العالم الاسلامي كالنفط ، ومزيد من الاحساس بالأصالة من ناحية والرغبة في التكتل الواعي من جهة أخرى ، وقوة الإحساس بالأخطار المحدقة

بالعالم الاسلامي ، ظهرت الحاجة إلى تنظيم تجمّع جديد ، تبلور في إنشاء « منظمة المؤتمر الاسلامي » بعد المحاولة الآثمة لحريق المسجد الأقصى في عام ١٩٦٩ .

ولم نكن وحدنا في هذا الاتجاه التجمعي ، العربُ ، الأفارقة ، كتلة عدم الانحياز مجموعاتٌ نرجو أن تتعاون دون تداخل أو تعارض .

والأن ، وبعد رحلتي الزمان والمكان ، ما صورة التحدي المعاصر ؟

٣ ـ التحدي المعاصر

لك أن تقول إنه « التحدي الشامل »

وإذا رجعنا ـ كمثال قريب ـ إلى مقررات مؤتمر القمة الاسلامي الخامس الذي شهدته الكويت في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٧ جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ ـ لرأينا صورة هذا الشمول الذي يضم الآفاق السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والتر[illegible] . ثم هو ينطلق من نقطة مركزية هي المسجد الأقصى والقدس الشريف وفلسطين ، لتتداح دوائرُه حتى تضم العالم الاسلامي كله والجاليات الاسلامية في مهاجرها الجديدة . . وهي مقررات تعنى بالبشر كما تعنى بالأرض التي يعيشون عليها ، وتربط بين الأصالة والنظرة المستقبلية ، وتنظر إلى التراث ككيان له نموه وحيويته المتجددة .

وهنا يطرأ سؤال :

ما العلاقة بين حجم القدرات وحجم الآمال ؟

وكيف نقيم الجسور بين الواقع والأمل فوق أخاديد الطريق ، ورغم العقبات ؟

إن رصد الآمال بعضُ الطريق ، ونحن في حاجة إلى ما يمكن أن نسميه « الأمل العمل » ، أو « الكلمة العمل » . . الكلمة الحية القادرة على أن تكون

عملا ، مصداقا لقوله الله تعالى : (وقل اعملوا) ، وإذا انقطعت الكلمة عن أصولها أصابها اليتم ، وإذا انقطعت عن العمل أصابها العقم ، وإذا ظلت تتردد من لقاء إلى لقاء عاشت في طفولة لا تبلغ رشدا ، ولا تعطي ثمرا .

ولو نظرنا إلى التحديات في تعاقبها الزماني وامتدادها المكاني رأينا أن لكل منها « خصوصية » تنفرد فيها بصفات ، وتتشابه مع غيرها في أخرى ، فنقل التجربة ـ أيّ تجربة ـ بحرفيتها وإسقاط العوامل الزمانية والمكانية غير وارد .

وتصوير العصور أو الاقطار الذهبية في الحضارة الإسلامية « كنماذج » تحتذى جملة وتفصيلا غير وارد . فالزمان في تغير ، يَحدُث بطيئا أحيانا وسريعا أحيانا . ولو تشابه الزمان والمكان فكيف ندرك قوله تعالى « ومن آيـاته خَلْقُ السموٰاتِ والارضِ واختلافُ ألسنتِكم وألوانِكم إنّ في ذلك لآياتٍ للعالِمين) (الروم : ٢٢) ، وقوله تعالى(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الرعد ١١)(. والحياةُ حوار بين عوامل الاستمرار والتغير ، بل إن الاستمرار هو تغير بطيء ، والتغير استمرار قصيرالأمد) .

ودراسة الأحداث للعبرة والذكرى ، والله يقول « لقد كان في قَصَصِهِم عبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثا يُفترَى ولكنْ تصديقَ الذى بين يديه وتفصيلَ كلِّ شيء وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون » (يوسف : ١١١) .

ولكل مشكلة دراستها الخاصة التي تفيد من التجارب السابقة والعلمِ الحديث ، والعواملِ الطبيعية والبشرية لموقع المشكلة زمانا ومكانًا وتكوينا .

٤ ـ الطريق

ويفرض هذا على العالم الاسلامي المعاصر « تشكيل عقلية إسلاميـة » قادرة على الإحاطة بهذا كله ، وهو عمليا فوق طاقة فرد أو جماعة محدودة .

بين هؤلاء جميعا قدر مشترك من الايمان بالله والإخاء وحب العلم ونكران الـذات والصبر ، ولكـل مجموعـة روح فريق تتعـاون بـه ، وللكـل تنـظيم إسلامي ، يضع الخريطة العامة التي تتوزع بها المسئوليات ، عـابرة الحـدود السياسية والعصبيات الضيقة والتوترات الاقليمية .

هذه العقلية تحتاج في تشكيلها إلى رعاية دائمة . فهي لا تبدأ من فراغ ولا تعيش فيه ، وتشكيلُها حوار متصل يستهدف مزيدا من الوعي بمشكلات العصر ومسئولياتنا في عالمنا الاسلامي كحضارة متفاعلة مع المسيرة العالمية .

ونود أن تصبح هذه العقلية تيارا قويا قادرا على اجتذاب كثير من الطاقات التي تبددها الصراعات الضيقة والطائفية والاهتمامات الجزئيـة الانعزاليـة ، لتتوجَّه جميعا إلى مقابلة التحدي الحضاري المفروض على العالم الاسلامي ، ذلك التحدي الذي رأينا امتداده المكاني وتغيراته الزمانية وتشابكاته الموضوعية .

يضاف إلى هذا : أننا إذا كنا نتجه نحو هذا الهدف ، فهناك مَن يحاول صَرْفنا عنه ، وتبديد طاقاتنا في مسارب جانبية ، وهذا يفرض علينا مسئولية مضافة ، وهي مقاومة العقبات التي يضعها الآخـرون في طريقنـا : فكريـا واقتصاديـا وسياسيا وعسكريا .

وكنموذج لهذا الصراع والهجوم المنظم على الإسلام والعروبة في العالم الجديد ، أشير إلى كتاب « بـول فندلي : من يجـرؤ على الكـلام ؟ . . اللوبي الصهيوني وسياسات أميركا الداخلية والخارجية » وقد صـدرت طبعته الأولى الانجليزية والعربية عام ١٩٨٥ م .

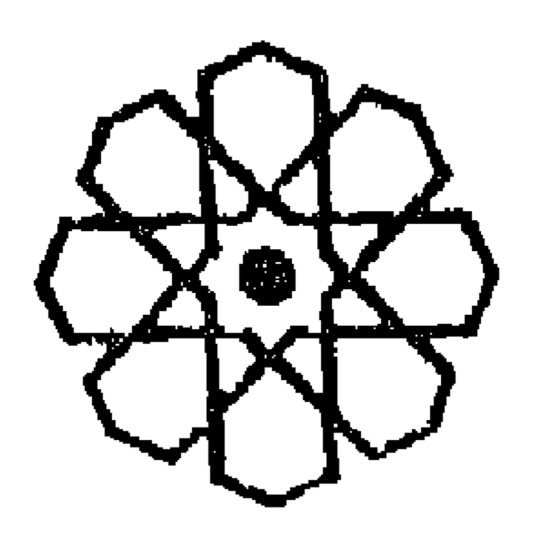
وبول فندلي ظل اثنين وعشرين عاما عضوا في الكونجرس الامريكي عن ولاية ألينوي ، وعندما اتصل بالعرب مباشرة وأخذ يعلن رأيـه الصريـح في وجوب أن تستمع الولايات المتحـدة إلى كل الأطـراف بتوازن حـاربه اللوبي الصهيوني حتى تمكن من أن يحول بينه وبين إعادة الانتخاب عام ١٩٨٢ ، وتوفر

فندلي على هذا الكتاب الذي يسد ثغرة واسعة في المكتبة الأمريكية والعربية .

فالطريق طويل ، والعمل فيه محتاج إلى تنسيق على الصعيد الإسلامي العالمي ، ومبدؤه : الانسانُ المسلمُ في قطاعاته الأربعة : العربي والافريقي والآسيوي وجاليات المهاجر الجديدة . وفي اهتماماته المتكاملة .

وأوْلى الهيئات بشئون تنظيمه ومتابعته هي : منظمة المؤتمر الإسلامي .

والأمل كبير في أن تقوم الكويت في الدورة الخامسة لرئاسة المؤتمر ، بدور رائد نحو هذا الهدف المنشود .



الأبعاد الأربعة في منهج الإسلام

هناك أبعاد أربعة تربط المسلم بالعمل لدينه ، أولها رباط العقيدة ، الثاني ارتباطه بالمجتمع الإسلامي ، والثالث ارتباطه بالعصر الذي يعيش فيه ، والرابع قدرته على التغيير نحو التي هي أحسن .

البعد الأول :

لنبدأ بالبعد الأول : الذي يربط المسلم بعقيدته ؛ ولنتخذ له تشبيهاً نباتياً - أول الأمر - ونعدّ العقيدة جذرا للإنسان ، والجذر يحتاج إلى الأرض الطيبة ، وإلى أن يتعمق فيها بحثاً عن الغذاء وتثبيتاً للنبات ، وحملاً لمسئوليات تغذية الساق والفروع والأغصان وما تحمل من الأوراق والأزهار والثمر .

والجذر في باطن الأرض وظلمتها يقوم بهذا الواجب ، ويقابل تحدياتِ الصخور فيلتف حولها أو يخترقها إن استطاع ، وينشر فروعه وشعيراته في هدوء ودأب وصمود ، وقد تدفع العواصفُ الساقَ والفروع ، ولكنْ على مدى

العربي العدد ٣٤٤ يوليو - تموز - ١٩٨٧م .

تماسك الجذر يبقى النبات صامدا أمـام العاصفـة ، ولبعـض الجذور امتـداد رأسي ولبعضها امتداد أفقي وللبعض امتداد مائل ، وفي البعض تناسبٌ بـين امتداد الجذور والفروع كأن الفروع والأغصان مظلة لقطعة الأرض التي تجمع منها الجذور مادة الحياة .

ومن النبات نتنقل إلى الانسان ، وهو محتاج دائماً إلى تعميق « عقيدته » لتكونَ قادرةً على الثبات ، وهو يتحدى ظلماتِ الشك وعقبات الطريق لتكون العقيدة راسخة قوية قـادرة على أن تمـد المسلم في مساره بـالاستقرار النفسي والفكري وتحفظ له صلته بالأرض الطيبة : أرض الايمان .

هذا هو البعد الأول : تعميقُ الايمان في نفس الفـرد ، وسنرى ـ بعـد قليل ـ الصلةَ الوثيقة بينه وبين الأبعاد الأخرى .

البُعـــد الثاني :

ونقصد به البعد الأفقي أو الاتساع ، وذلك بالدعوة إلى الاسلام والله يقول (ومَنْ أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعَمِل صالحاً وقال إنني من المسلمين ○ ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليّ حميم ○ وما يُلقّاها إلاّ الذين صبروا وما يُلقّاها إلاّ ذو حظ عـظيم) (فصلت : ٣٣ ـ ٣٥) .

والدعوة ـ في صورتها العامة ـ امتداد أفقي وكسبٌ لعقولٍ وقلوب جديدة بالحوار العاقل ، وبالتي هي أحسن .

وكأن الاسلام بهذا يحمل مواجهة مستمرة بين الوحدة التي يمثلُها العمقُ ، والتنوع الذي يمثله الاتساعُ .

وهنا ، وعند هذه النقطة بالذات نعود إلى الآيات السابقات من سورة فصلـت ، ونقرؤها بكل تمعُّن ، قال تعالى :

(ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم ○ وما يُلقّاها إلاّ الذين صبروا وما يُلقّاها إلاّ ذو حظ عظيم) .

أدب الحوارِ هو المقصود ، الأدب بمفهومه الواسع الذي يحمل فهمَ ما عند

الطرفِ الآخر وما عندك ، فقد يكونُ عَرضُ الحق بطريقة منفرة ، وقد يكون عرض الباطل بطريقة جذابة فأين الحسنة وأين السيئة في عرض الإسلام ؟ وأين الدفع الحسن الذي يجعل من العدو ولياً صديقا ؟ إن هذا لا يتحقق إلا بالصبر والحظ العظيم .

أما الصبر فمعروف ، وأما الحظ فلا بد من عودة معه إلى لغتنا العربية لئلا تختلط فيه المفاهيم ، الحظ : النصيبُ أي النصيبُ المفروضُ كما في المواريث ، والجد والسعادة (معجمُ ألفاظِ القرآنِ الكريم الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ١٤٢) .

والذي أودّ التركيز عليه هو جانب السعي والعمل الدائب في الآفاق المعينة على اختيار التي هي « أحسن » حتى يعظم حظ الإنسان منها ، فإذا أضيف إليها الصبرُ تحققت الثمرةُ المرجوة ، وهي نجاح المسعى .

ولك ـ كمجرد مثال ـ أن تستعيد السنوات الأخيرة من حياة الرسول ﷺ في مكة ، وكيف فكر بعد الحصار الاقتصادي في الذهاب إلى الطائف ، ولمّا ردّته ردا غير جميل أخذ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج . . قبيلةٍ قبيلة ، صابراً على أذى عمه ، وصابراً على انصراف كثير من القبائل عنه ، حتى لقيه نفر من أهل المدينة ، وكان هذا باب الفرج ، والبعدَ الثاني الجديد للدعوة الاسلامية .

وقبل أن ننتقل إلى البعد الثالث ، يحسن بنا ـ في عصرنا هذا ـ أن نذكر أن البُعدين الأول والثاني يحملان الكثير من المشكلات التي ينبغي أن نقابلها بعقلانية واعية .

ونسأل :

هل البعد الأول له فردانية واحدة ؟ لا ، فقد تعددت الاتجاهات الإسلامية المعاصرة ، وأصبح لكل فريق ما يودّ البدء به أو التركيز عليه ، ومع تعدد هذه الاتجاهات توتّرت العلاقات بين الدعاة ، ووصل الأمر إلى توتر بين الدول حتى استطاع غيرنا أن يسأل : لمن نسمعُ منكم وأنتم أصحاب أصوات متعددة ومتناحرة أحياناً ، وحوارها أحياناً بالكلمات وقد تضيف إليه السلاح ؟ وقد كان .

فالبعد الأول أصبح أبعاداً ، كلٌّ منها يدعي لنفسه الأولوية ويثير البعضُ

قضايا طواها الزمان من صراعات حدثت في صدر الاسلام ، وأصبح مجرد الحديث عنها مدعاةً إلى ارتفاع حرارة النقاش والدماء .

ونحن في حاجة فعلية إلى أن نتفق على « الحدّ الأدنى » من البعد الأول ، وأن نقف إن استطعنا عند قواعد الاسلام الخمس .

وأذكر أن سائلاً سألني في ندوة إسلامية بعد محاضرة ألقيتُها عن الإسلام المعاصر ومسئولياتنا فيه .

قال :

عن أيِّ إسلامٍ تتكلم ولكل دولة من دول الإسلام فهمها للاسلام ؟ وقال ما هو أكبر من ذلك ، فقلت له :

أتحدث عن إسلام المؤذن ، ما تسمعه على المئذنة ، وعن إسلام قواعد الإسلام الخمس لا أكثر ، ولندعْ الأمور الخلافية لقاعاتِ البحث والدراسة .

إن الاختلافات بين أهل الأديان وبين أصحاب الدين الواحد قائمة ، ولكن كيف تتعايش الخلافات ، وكيف تدع المجالَ الأكبرَ للتيار الأعظم وهو تيارُ العمل المشترك فيما نتفق عليه ؟ هذه هي القضية ، وأكثر من أهل دين تخطوا هذه العقبة وعبروا خندق الصراع على الخلافات ، وتفرغوا للابداع والتقدم .

كذلك الأمر في الاتساع الأفقي ، وهو بطبيعته مدعاة إلى الاتصال بأقوام وبيئات مغايرة ، يحتاج هو الآخر إلى حكمة وإلى نوع من « الميثاق الإسلامي » وله أكثر من تجربة ومشروع ، ولكن ينقصنا الصبر على التنفيذ والوفاء بما نتعاهد عليه ، والتعاون بين المنظمات العاملة في الحقل الاسلامي .

البُعد الثالث :

ونقصد به الارتفاع بالتفاعل بين البعدين الأول والثاني إلى مستوى العصر الذي نحيا فيه ، وأن نحس مسئولياته ونتعاون على القيام بها .

قل : إنه البعد الرأسي الصاعد الذي يقابل العمق والاتساع في البُعدين السابقين .

فقد يكون التفاعل بين العمق والاتساع سلبياً يؤدي إلى مزيد من التآكل

والتفتت في الوجود الإسلامي ، وتزداد به الفِرَق الاسلامية ، ويطول به جدول الأعمال التي يختلفون حولها .

ولقد حذرنا المصطفى عليه الصلاة والسلام من هذه الكثرة السلبية التي تزداد بها مطامع الأعداء في الإسلام ودياره ، ويبدو هذا في حديثه الشريف :

« يوشك أن تَداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعَى الأكلةُ على قصعتها . قال : قلنا : يا رسول الله ، أَمِنْ قلةٍ بنا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن . قال : قلنا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة ، وكراهية الموت » . (رواه أحمد في مسنده عن ثوبان ج ٥ ص ٢٧٨ مسند أحمد ابن حنبل . وانظر الجامع الكبير للسيوطي ١ : ١٠١٩ النسخة المصورة) .

فالكثرة ليست غايةً في ذاتها ، وإنما المسئولية الحقيقية في استثمارها ، وتعاون أفرادها على الصعود بالواقع إلى المأمول .

وهذا الصعود يتكون من شريحتين أساسيتين :

الأولى : شريحة ثابتة ، والثانية شريحة متغيرة . أما الثابتة فتنبع من قوله تعالى (ولقد كرّمنا بني آدم) (الإسراء : ٧٠) .

وإن من أدق المقاييس لإنسانية أي مجتمع ، هو مدى احترامه قولاً وعملاً لكرامة الإنسان من حيث هو إنسان .

ولا تجد حاكماً مستبداً يتلذذ بإذلال الآخرين إلا كان في أعماق نفسه يحس المهانة ، ذلك لأن احترام الآخرين ينبع من احترام الذات ، فالناس - كما يقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه - « إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق » . وذلك في كتابه إلى الأشتر النخعي حين ولّاه مصر .

وإنّ كلًّا من احترام الذات والآخرين ثمرةُ تربيةٍ وممارسة جذُورها في المنزل والمدرسة ، تمتدّ فروعها حتى تصل إلى مجالس الشورى ومقاعد القضاء والحكم والقيادة .

ومن الإيمان بكرامة الانسان تنبع كل حقوق الإنسان وواجباته ، وتأمّل الاحساس بهذه الكرامة في قول الله تعالى : (ويُطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا ○ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) . . (الانسان : ٨ - ٩) ، وهل يستطيع المسكين واليتيم والأسير في موقفه هذا رد

الجميل ؟ وهل يملك أن يفرض على صاحب الطعام ـ وهو في حاجة اليه ـ أن يُؤْثِر غيرَه على نفسه ؟ .

هذه صورة من النفوس التي تحس بكرامتها على الله ، فتفعل الخير لا تبتغي به إلا وجه الله تعالى .

ومن الطعام والشراب والكساء تتسع الدائرة لممارسة حق العمل ، لتصبح اليد السفلى يداً منتجة مثمرة ، تسعد ببذل الخير والمشاركة الايجابية في صناعة الحياة .

ولكن : أيَّ عمل نقصد ؟

إنه العمل الذي يحتاج إليه المجتمع في وجوده وتقدمه ، فمن مجموع طاقات الأفراد وإبداعهم ، ومن وضع كل منهم حيث يُحسن ويبدع يتكون هذا « الكل » المرتجى ، وهذا ينقلنا إلى :

البُعد الرابع :

وهو تغير الأسلوب والهدف مع تغير الزمان ، والتغير ليس هدفا في ذاته ولكنه تحرُّكٌ نحو التي هي أحسن ، ويقتضي تحديداً ومعرفة لكلٍّ من نقطة البدء والمسار والهدف ، ولنضرب لذلك مثالاً من تطور العلاقات بين أجزاء العالم الاسلامي ، ولنحصر أنفسنا في الوطن العربي ، أو في جزء منه هو الجزيرة العربية وما حولها :

في العهد النبوي أمكن لأول مرة جمع الجزيرة العربية في سلطانٍ موحد قاعدتهُ المدينة . وبعد وفاة الرسول ﷺ حدثت الردة ولها أسبابها ومبرراتها عند الذين تولوا كِبْرها ، ولكنَّ موقف المدينة الصامد وقيادة أبي بكر الصديق ودقة تحركات الجيوش الأحد عشر التي بَعَثَ بها إلى مناطق الفتنة ، وتعاون هذه الجيوش ، والبطولة والفدائية وحكمة القيادات الميدانية . . كل أولئك استطاع أن يجمع الجزيرة مرة ثانية بعد التمزق ، وأن تتحقق الولادة الثانية للدولة الإسلامية لتنطلق بعد هذا تنشرُ الإسلام وراء حدودها .

ونحن نرى هذه الصفحة من أروع صفحات الجهاد الإسلامي ، وكانت

أقسى اختبار مر به الإسلام بعد وفاة المصطفى ﷺ ، وحملَ المسئوليةَ فيه أصحابهُ الذين تربوا في مدرسة القرآن والسنة .

ومرت الأعوام . . وانتقل مركز القيادة إلى الكوفة ودمشق وبغداد وظهرت عواصمُ جديدة ودولٌ جديدة ، وأصبح من غير العملي ولا المقبول في أذهان الكثيرين أن تجتمع ملايين المسلمين تحت قيادة واحدة مركزية .

أصبحوا عملياً في حاجة إلى صيغة جديدة من التعاون ، أي أنَّ « التعاون » حل محل السلطة المركزية التي وصل الأمر بها ـ أحياناً ـ إلى أنها أمست سلطةً مطلقة تتحكم في الحياة والأموال ، لا بقرارها الفرد ، وإنما ـ أيضاً ـ بمَنْ يمثلونها كأنّهم ظلُّ الخليفة ، وكأن الخليفة ظل الله ، أو المسئولُ عن تنفيذ أحكامه بقراره وسلطاته . . وطوى الزمانُ هذه الصفحة .

الصورةُ التي ارتضاها أهلُ الجزيرة العربية المعاصرون فيها تعددية وتعاون ، التعددية تمثلها الكياناتُ السياسية المستقلة ، والتعاونُ يمثله مجلسٌ يضم دولَ الخليج ، أنشأته دُوَلُه بإرادةٍ حرّة نابعة من الشعوب والحكومات معاً ، وهو يستمد جذوره من التاريخ المشترك واللغة العربية الواحدة والدين الاسلامي والآمال والمصالح المشتركة ، ويسير هذا التعاون بخطأ واثقة محاولاً التغلب على الصعوبات النابعة من الواقع التاريخي أو التركيب السكاني ومصالحه واتجاهاته .

وهذه الصورة هي ـ بدورها ـ جزء من صورةٍ أكبر هي الوجود العربي على الرغم من كل المعاناة التي يلقاها الآن ، وهذه جزء من الوجود الاسلامي الممتد بين المحيطين الهادي والأطلسي ، ويضم بينهما المحيط الهندي .

ولكلٍّ من هذه الكيانات صُور التعاون التي يحاول بها أهلها اتخاذ المسار الأحسن ، وتحقيق أكبر قدر من آمالهم في التعاون والتقدم ، فالأرض واحدة ولكن الزمان متغير ، ومع تغير الزمان تتغير المواقف والحلول ، وبهذا تبدو ضرورة الموازنات بين الثوابت في الحياة الوطنية والاقليمية والعربية والإسلامية وبين المتغيرات التي تواجهها هذه الكيانات في مسارها .

ونسير خطوة أخرى :

وهي المشاركة في صناعة المتغيرات ، ولنعترف أن القيادة والريادة في العالم المعاصر ليست في يد المسلمين والعرب ، وأن المشاركة في صناعة القرار

محدودة ، وليس أمامنا إلا الطريق الطويل ، طريق العلم والمعرفة وتربية الشباب عليه ، ولا داعي للتهوين من شأن العلم بمدح الأساس الأخلاقي والإيماني وحده .

ففي الإسلام اللقاء الحقُّ بين العلم والايمان ، والعقيدة والعمل ، والرأي والقرار والتنفيذ ، ولا داعي لتخدير شبابنا بأن ما عندهم يكفيهم ، وأن ما عند الآخرين لا يزيد عن أعراض الحياة الفانية ، فنحن مأمورون بعمارة هذه الأرض ، والله تعالى استخلفنا فيها ، وما من طعام أو كساء أو صناعة أو علاج أو إبداع إلا وراءه عملٌ وجهد وتنظيم ، والمستهلِك يدٌ سفلى ، والمنتِج والمبدِع يد عليا .

فلنواجه أنفسنا صادقين لنستطيع مواجهة الحياة ومسئولياتها ، وليكن استمساكنا بالمباديء لا بالصور والنظم ، « فهذه بطبيعتها متغيرة » . كان إبداعها خطوة تقدمية ورائدة ، ولكن الوقوف عندها جمود ، والتمسكَ بها بعد فوات أوانِها تخلّف .

تعاون الأبعاد الأربعة :

يبدو من هذا كيف أننا بحاجة إلى : تعميق الإيمان بأوسع مدلولاته في نفس الفرد .

والاتساع الأفقي في التعاون والتفاهم مع المسلمين وغيرهم .

والارتفاع الرأسي الذي يُطِلّ على حقول المعرفة ويستشرف الضوء والهواء ، ويتلقى تيارات الحياة ومؤثراتها ليبدع فيها .

والتحرك في الزمن لموازاة العصر والسعي نحو المشاركة في بناء الحياة .

وإذا كان أول الإيمان في القرآن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) كان العلمُ من أول الأمرِ قَرِين الإيمان ، والفعلُ في الآية فعل « أمر » يدل على الاستمرار ، دائماً اقرأ لتزداد معرفة وعلماً ، وتفتح الطريق إلى الابداع .

وتكمن الخطورة في فقدان التوازن والتعاون بين هذه الأبعاد الأربعة .

فالذين عُنوا ـ أكثر ما عنوا ـ بتصفية النفس وتربيتها وصَرَفَهم هذا عن المسؤوليات الاجتماعية والابداعية والتقدمية عاشوا حياة نفرٍ من الزهاد

والمتصوفة ، وأنت تراهم في كل دين ، في الاسلام كما في المسيحية واليهودية ، وكما في الهندوكية والبوذية ، هذا التعمق العميق في التأمل الفردي والانفرادُ بحثا عن الصفاء أو الاستنارة أو أي هدف شاءوا له اسما يستطيع - في الإسلام - أن يستند إلى بعض الآيات والأحاديث دون أن يضعها في إطارها الشامل .

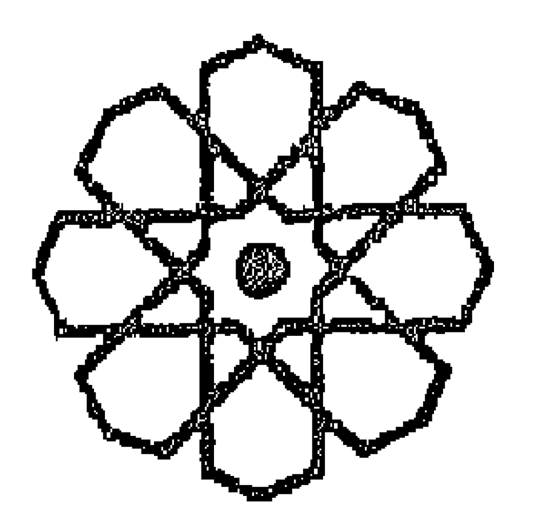
وهناك نفر عنوا بالعمل في المجتمع ولو على حساب التربية الذاتية ، فحَدَث الانفصامُ الجزئي أو الكلي بين الأقوال والأعمال ، منهم من أفاد المجتمع ، وقد وقع في ذات الوقت في شعب النفاق .

وهناك نفر عُنوا بالتقدم أو الابداع وحركة الحياة ، وإنْ أدى هذا إلى انفصام الجذور أو الحاضر ، وهناك دول دفعها قادتها إلى هذا الطريق الوعر ومنهم من بدأ يعود ، وبعضهم ما زال سائراً وسادراً في طريقه .

وتستطيع أن تقسم خريطة الوطن العربي والاسلامي الى شرائح على أساس من مدى العناية ببُعْدٍ أو أكثر من هذه الأبعاد ، ولك أيضاً أن تميِّز بين اتجاهات الأفراد على نفس هذه القواعد .

وليس الهدفُ أن يلتقي الجميع على كلمة سواء في هذا الأمر بحيث يكون الأفرادُ نُسَخاً متقاربة ، ولكنّ الهدف أن يعي الأفرادُ هذا الأمر ، وأن يأخذوا من كل بُعد من الأبعاد الأربعة بقدر ، مع تحديد الاطار العام الذي ينظم الأنشطة الجامعة لقوى الأصالة والاتساع والارتفاع والابداع .

ومن الصالح أن يكون من علمائنا متخصصون في كل بُعد من هذه الأبعاد ، ولكنه التخصص الذي يعين على التوازن ولا تضطرب به المسيرة ، والذي تتسع به الصدور للحوار دون انغلاق ، وللسير دون أن تضلّ الطريق .



مجلة اسمها الإسلام

أبدأ القصة من أولها ، حين التقى نفر من علماء الاسلام ، من أقطار ومذاهب ، وألسنة وألوان شتى ، وأرادوا أن يصدروا مجلة اسمها « الاسلام » . فهو الرابطة الأساسية التي تجمعهم ، ومن جذوره تتفرع تخصصاتهم ، وعلى أغصانه تنمو زهورهم وثمارهم ، وفي ظله يجتمعون ، ومن أجله يعملون .

كان لقاؤهم في المدينة المنورة بعد أداء مناسك الحج ، وقد تطهروا في هذا الفيض المؤمن ، الذي يجمع روافده من كل فج عميق ، وتلقى فيه الحجيج طائفين حول البيت العتيق ، ساعين بين الصفا والمروة ، دافعين الى عرفات ، حيث اللقاء الأعظم الذي يضم الايمان والاحرام ووحدة الزمان والمكان ، فاذا غربت الشمس أفاضوا إلى المشعر الحرام ومنى ، ثم يطوفون بالبيت العتيق .

ومن هناك يحدوهم الشوق والحنين إلى زيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي خاطبه ربه : « يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » ، (الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦) ، فجمع له في

العربي العدد ٣٥٥ يونيو ـ حزيران ١٩٨٨ م

هذا الخطاب سبع صفات : النبوة ـ الرسالة ـ الشهادة ـ التبشير ـ الانذار ـ الدعوة إلى الله . وختام الصفات أنه سراج منير .

وفتحت له المدينة الأبواب والقلوب ، بعد أن ضاقت مكة وأشرافها بما حمل إليهم من الهدى ، وكان من حكمة الله أن تتحول القبلة إلى البيت الحرام ، وكانت مكة وقتئذ تحت سيطرة قريش . ولكن البيت بيت الله ، والحرم حرمه ، والأصنام إلى زوال ، ويبقى التوحيد ليقيم من حوله الوحدة ، رب واحد وانسانية واحدة .

قاعة حوار إسلامية

وإذا كانت مكة صورة الوحدة والتوحيد ، فإن المدينة هي الصورة الأولى للمجتمع الإسلامي والدولة الاسلامية . وكان مسجدها أول « قاعة حوار » إسلامية في ظل الحكم الاسلامي ، قاعة شهدت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وربطت بين أهلها من الأوس والخزرج ، ونظمت العلاقة بين أهل المدينة من المسلمين واليهود ، ومسئولياتهم في السلم والحرب ، في أول دستور شهدته الدولة الاسلامية .

في هذه القاعة لقي المصطفى عليه الصلاة والسلام قادة العرب ، وأحبار اليهود ، ونصارى نجران ، وأعطاهم عهده ، وأفسح فيها مكانا للمسلمين الوافدين ، وللمستضعفين والأرقاء ، دون تفرقة بين لون ولسان وعرق ، ودعا النساء إلى الاسلام ، وتحاورن معه ، وبايعهن ، وقبلن الاسلام ومسئولياته .

قاعة حوار من تقاليدها قول الله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » . (الكهف : ٢٨) .

ومن تقاليدها : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (آل عمران : ٦٤) .

وقوله تعالى : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة : ٦٢) وفيها يحدد أركان الدين الثلاثة : الايمان بالله . الايمان بالجزاء الأخروي . العمل الصالح في هذه الدنيا .

من هذه القاعة الأولى ، من مسجد المدينة ، انطلق الصحابة يحملون أمانة الاسلام بمبادئه السمحة القادرة على التوالد والابداع والانتشار . وآمنت به شعوب تولت بنفسها نشر الاسلام فيما وراءها . وامتد الجناح الشرقي حتى وصل إلى مطلع الشمس في اليابان وجزائر المحيط الهادي . ومد الاسلام جناحه الغربي في أفريقيا وأجزاء من أوروبا ، وعبر المحيط الاطلسي إلى العالم الجديد . وهناك في أقصى الغرب رفع مآذنه لتطل على مياه المحيط الهادي .

وفي هذا الامتداد ما تركت الحضارة الاسلامية أفقا من آفاق المعرفة إلا شاركت فيه . ومازالت آلاف الوثائق عن هذا الازدهار حبيسة المخطوطات غير المنشورة والمكتبات الخاصة .

لم تكن هذه الهواجس المشرقة وحدها في نفوسهم ، وإنما معها هواجس أخرى حزينة . ولكن كان من خطتهم تحويل طاقة الحزن إلى تخطيط واضح المعالم يتقدمون به إلى أمتهم . وكم كان تأثرهم بزيارة ميدان غزوة أحد ، ورؤية قبور الشهداء ، وفي مقدمتهم حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ، وزيارة مقبرة البقيع حيث يثوى من لقي ربه في المدينة من الصحابة والتابعين ومن أهل بيت المصطفى رضي الله عنهم أجمعين ، ومن العلماء الذين لازال عملهم وعلمهم نورا مسطورا تتوارثه الأجيال . وفي زيارتي للبقيع كنت أحس كأنه معلق بين السماء والأرض . أو كأن أرضه سحابة نقية تجمدت ، وضمت هذه الأجداث الطاهرة . وفي صمت البقيع حديث تسمعه بغير أذن ، وأنوار تراها بغير

عين . هنا تلتقي أروع صور الجهاد والعلم والعبادة والزهد والتضحية والاخلاص ، كما يثوى في أرضه من لقوا ربهم أطهارا مظلومين في حروب داخلية دارت بين المسلمين ، من وقت أن وقعت الفتنة الكبرى وأراق المسلمون دم ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه . وتتابعت بعد هذا الصراعات والمعارك التي وصلت حتى إلى اقتحام مدينة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومحاصرة الكعبة ، وضرب مكة والحرم بالمنجنيق أكثر من مرة ، في العهد الأموي . ثم فتك القرامطة بالحجيج في العهد العباسي ، واجتراء بعض من يحملون اسم الاسلام على الحرمين الشريفين .

البدائل الثلاثة

كان أمام هذا النفر من العلماء ثلاثة بدائل ليختاروا منها : أولا : حديث عن أمجاد الاسلام ، وفي هذا أداء لبعض الحق ، ولكن الاقتصار عليه تخدير للعقول ، وانصراف إلى الماضي ، أو بعض الماضي ، عن مسئوليات الحاضر والمستقبل .

ثانيا : حديث عن الصفحات الدامية والصراعات الداخلية بين أبناء القبيلة ، وقد ظلت هذه الصراعات الفكرية والسياسية والحربية قائمة لا تهدأ إلا لتقوم . وفي الاقتصار عليها ، أو إعطائها أكبر العناية ما يملأ النفوس ألما وحزنا ، وما قد ينعكس عليها يأسا من الحاضر يمتد إلى المستقبل . وسيقول أكثر من قائل : إذا كان هذا هو الماضي أو أكثر ، وهذا هو تكوين العقل الاسلامي أو العربي ، فإن غده امتداد لماضيه ، وقد تحدث فيه بعض التعديلات ، ولكن الغالب على قومنا هو هذا الفكر الفردي أو القبلي أو العنصري . إنهم مازالوا أسرى قيود ضيقة ، وولاءات محدودة ، سجلها أكثر من كتاب عن تحليل العقل والفكر الاسلامي والعربي .

ثالثا : التوجه المستقبلي : وأمره ليس باليسير ، وإن كان هو الأكثر قبولا . فاختيار المسار يخضع لعوامل متعددة : من أبرزها الدفع التاريخي القديم والمواريث التي يتحرك بها المجتمع ، وتكوين القادة أنفسهم وثقافتهم ومكوناتها ، والقدر المحلي والمستورد والابداعي فيها ، ثم القدرة على تحويل الفكرة إلى عمل . والعالم الاسلامي لايحيا منعزلا في المجتمع المعاصر . ومفاتيح العصر من العلم والتقنية والقوة العسكرية والاقتصادية والسياسية ليست في يديه . هو جزء . مجرد جزء من هذه الخريطة العالمية . ومراكز ثقلها ليست في أرض الاسلام . وعلى الذين يخططون للمستقبل أن يكونوا على وعي بكل ذلك ، وماهو فوق ذلك :

وهو السؤال الذي ينبغي على مفكري الاسلام المعاصرين أن يواجهوه بكل الموضوعية : هل يلقى تماسك العالم الاسلامي وقوته ترحيبا من القوى العظمى أم أن الأقوياء لا يحبون لغيرهم أن يكون له مقعد على مائدتهم ، المائدة الرئيسية التي يقررون عليها الخطوط الرئيسية للسياسات العالمية ؟

وأثار أحد الباحثين موضوعا :

إن نمو القوة الاسلامية أو بعض قطاعاتها أو بعض دولها ، لن يكون في مستوى واحد . هذه طبيعة الأشياء . فالموارد الطبيعية والبشرية متفاوتة . وكذلك نظم الحكم ، ومدى الحرية المتاحة للابداع الفردي والجماعي ، ثم مدى « ترحيب » جيرانها العرب والمسلمين بقوتها ، ومدى « سيطرتها » على نفسها إذا قويت ، فلا تحاول العدوان على الاخوة الصغار الحجم والمحدودي القوة . ولنذكر أن أوروبا فيها دول عملاقة ، وأخرى متوسطة ودول صغيرة : مثل لوكسمبورج ، وإمارات محدودة المساحة في إقليم الريفيرا لها كيانها السياسي المستقل . والجميع يتعايشون . وأن الأنهار الكبرى كالراين والدانوب تخترقها ، وتمر في أكثر من دولة . ولكل دولة ملكيتها في مياهها ، وللتجارة حرية مرورها ، دون صراع على ميناء أو مرسى . هذا بعد أن مروا في حروب

طاحنة خضبت أرض أوروبا بالدماء ، وهدمت فيها مدنا عامرة ، وقضت على ملايين الشباب . ثم عاد القوم ليؤمنوا بالسلام ، ومعه القوة التي تحمي السلام ، ثم بالتعايش المتوازن الذي يجمع بينهما . أرأيت كم يتشعب بنا الحديث عند اختيار صيغة المستقبل من بين البدائل المتاحة ؟

هدف الحوار بين المذاهب

وقال قائل منهم :

آن الأوان أن نحدد رؤوس الموضوعات التي تتناولها المجلة بالدراسة ، وليكن أولها : كيف كان التفكير فيها ، وأين . فمن حق قومنا علينا أن يعلموا ذلك ، وأن يعلموا الهدف الذي نقصده .

إن أول الطريق هو تكوين العقل الاسلامي . أو على الأصح : الحوار حول إعادة التكوين . ولنطرح سؤالا تمهيديا يبدأ بما نحن فيه ، ليفتح الطريق إلى ما نريد . نتصور كتابا يجمع المذاهب الاسلامية مكتوبا بأيدي قادة هذه المذاهب كتابة موضوعية ليس فيها طعن في مذهب آخر . لا يتعامل مع المذاهب دفاعا وهجوما ، إنما عرضا يستهدف « الثقافة المذهبية » وحدها . لك أن تعتبره موسوعة صغيرة أو قاموسا دينيا . بحيث يستطيع الشاب المسلم - مهما كان المذهب الذي يعتنقه - أن يعرف ما عند المذاهب الأخرى . وهذه النماذج كثيرة في الغرب . وعلى أساس من فصول الكتاب يحاول كاتب - أو أكثر - أن يستخرج القدر المشترك بين المذاهب . وهو المجال الرحب الذي يمكن أن يحدث فيه التعاون ، وتقوى به الروابط . وهناك نقاط ينفرد بها كل مذهب ، وهي التي تميزه عن غيره . فليعتبرها صاحب المذهب لنفسه دينا أو اجتهادا دينيا ، وهي عند غيره ثقافة ومعرفة ، يمكن أن تتعايش دون تصادم . وعلى هذا تتغير المعادلة

من صراع مذهبي ، إلى تعاون وتعايش : تعاون فيما نتفق فيه ، وتعايش فيما يتميز به كل مذهب ـ هذا على المستوى الفكري .

وهناك مستوى آخر يمكن أن نعنى به وهو فتح آفاق جديدة ، يحتاج إليها العالم الاسلامي ، أود قبل أن أطرحها أن أبين أن فصول الكتاب المقترح عن المذاهب الاسلامية ، ومايدور حولها وبعدها من إقامة الجسور والمعابر ، وهي موضوعات مقترحة للمجلة ، تحت عنوان « الحوار المذهبي » . وهو حوار هادف يتحرك في إطار المزيد من التعاون والتقارب والتعايش .

قراءة التاريخ العربي والاسلامي :

واقترح زميل بابا آخر هو « قراءة التاريخ العربي والاسلامي » . ومناهج التاريخ في تطور لايقل سرعة عن تطور العلوم البحتة . فالحضارة متكاملة متفاعلة . والحيوية في قطاع تنتقل بسرعة من المجتمعات الحية الناضجة إلى القطاعات الأخرى . خذ مثالا من نظرية التطور عندما نادى بها « داروين » في كتابه « أصل الأنواع » ، وبقدر القبول الذي لقيته كان تأثيرها على علوم أخرى كثيرة . مثال آخر من استقلال كثير من الشعوب الافريقية والآسيوية بعد الحرب العالمية الثانية ، وغلبة الفكر القومي ، وزيادة الرغبة في البحث عن الجذور والأصول ، وزيادة العناية بالخصوصية الحضارية . كان لهذا كله أثره في نقل مركز الثقل التاريخي من أوروبا إلى المنظور العالمي وزيادة العناية « بتاريخ العالم » على أسس أكثر توازنا ، وزادت العناية بالقارات التي كانت شبه مجهولة ، وأصبح قبول « الروايات الشفهية » مصدرا معتمدا من مصادر التاريخ ، بعد أن كان الاعتماد الأساسي على المكتوب والمقروء . وكان يطلق على ما سبق ذلك « ما قبل التاريخ » كأن بدء التاريخ هوبدء الكتابة . وبهذا الايحاء الجديد ، ومع العناية بالتراث الشعبي زاد التاريخ عمقا واتساعا . .

خذ أيضا زيادة العناية بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية وتأثير القواعد الشعبية وزيادة العناية بانتاجها الفني وأفكارها وحياتها اليومية . بل وبتاريخ الأمراض والأوبئة . وانتقل مركز الثقل من الحكام والملوك والقادة ، وأصبحوا بعض عوامل التاريخ .

وبرزت أهمية المؤسسات الاجتماعية والعوامل الجغرافية وكلاهما ممتد الأثر : الأنهار . المناخ . علاقات اليابس والماء . ثم تغيرت الأهمية النسبية لهذا كله مع ثورة الاتصال ، وتسارع الكشوف ، وسهولة تخزين المعلومات ، وتنظيمها ، واسترجاعها . وهنا يبرز اسم مؤرخ فرنسي عميق الأثر في النصف الثاني من القرن العشرين وهو « فرناندبرودل » (١٩٠٢ - ١٩٨٥) وكان كتابه عن « البحر المتوسط » (١٩٤٩) نقطة تحول كبيرة في كتابة التاريخ ، ومقالاته المنهجية جمعت في أكثر من كتاب من أبرزها مجموعة من المحاضرات والمقالات صدرت بعنوان « عن التاريخ » وهو أحد أعمدة مجلة « الحوليات » ومدرسة الحوليات لها عنايتها في التاريخ بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والحضارية .

ويدعو برودل إلى التعمق في دراسة التاريخ فلا نقف عند السطح السياسي ، وانما نبحث - في الأعماق - عن القوى التي تشكل الوجود الجماعي . وقد شرح منهجه في مقدمة كتابه ، ثم طبق المنهج في الكتاب : ومن روائع إنتاجه كتابه الأخير « شخصية فرنسا » ومن قبله كتاب « الحضارة والرأسمالية » . وهناك عرض لهذه المدارس الحديثة صدر تحت إشراف الاساتذة : جاك ليجوف وروجيه شارتييه وجاك ريفيل وآخرين بعنوان « التاريخ الجديد » . (باريس ١٩٧٨) وهو من سلسلة موسوعات المعرفة الحديثة - كما أصدر الأستاذ أندريه بورجيير « قاموس العلوم التاريخية » (باريس ١٩٨٦) عن دار « المطبوعات الجامعية في فرنسا » ، وهو مرجعنا عن برودل (ص ٩٨ - ١٠١) .

من الجهود الاسلامية المعاصرة

هذه مجرد نماذج منهجية للتفكير التاريخي المعاصر . ونحن بحاجة إلى تطوير منهجي يربط أولا بين « الخريطة والأحداث التاريخية » وهو الجهد الذي قام به الزميل الأستاذ الدكتور حسين مؤنس في « أطلس تاريخ الاسلام » (دار الزهراء للاعلام العربي . القاهرة ١٤٠٧ / ١٩٨٧م) . وهو بحق فتح عربي جديد في الربط بين الزمان والمكان ، وفي الاحاطة الشاملة بالعاملين معا مع العناية بخطوط التجارة البرية والبحرية ، وخرائط الحرب والسلام . ومن طبيعة هذه الأطالس أنها تجمع وتنظم المعرفة عند مرحلة معينة من توفر المعلومات . وعلينا بعدها أن نزيد من البحوث التفصيلية الاقليمية ، وهذه البحوث ستجد مكانها في طبعات لاحقة من الأطلس ، أو في أطالس متخصصة ، نرجو أن تجد لها مؤلفين ومكانا في المكتبة الاسلامية مثل أطلس التطور الاقتصادى الإسلامي أو « أطلس الدعوة الاسلامية » ويعنى بانتشارها من مهد الاسلام ومراكز الدعوة ومعاهدها وجامعاتها . . هل أقول وأروقتها كما هو في الأزهر الشريف ؟ إن الأديان الأخرى لها أطالسها التبشيرية ، وهذه كلها جهود علمية تلقي الضوء على الماضي والحاضر ، وتفتح الطريق إلى المستقبل .

آمال في مجلة « الاسلام »

لقد رأى الذين التقوا من أجل مجلة « الاسلام » أن تكون « بنكا » للأفكار ، وأن تكون بعض مقالاتها آمال المستقبل . وكان من رءوس الموضوعات التي قدموها على أن يتولوا دراستها ـ هم أو غيرهم ـ العناوين الآتية :

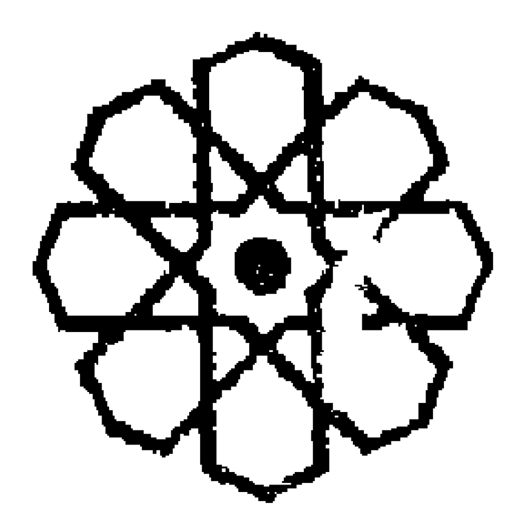
الخريطة السياسية للعالم الاسلامي وتقسيمها إلى مناطق تعاون إقليمية ،

تتكامل في وحدة كبيرة . صورة الحضارة الاسلامية الجامعة بين خطوط الوحدة العامة والخصائص الحضارية الاقليمية . التربية الاسلامية المشتركة التي تكون الأساس الفكري الموحد للأجيال الجديدة . أفضل الأساليب لتوجيه الشباب إلى قبول التحدي الحضاري المعاصر . تطوير التعاون بين الجامعـات الاسلاميـة وتوثيق الصلة بين أساتذتها وزيادة التعارف بين طلابها . الطريق إلى القدس وصيانة آثاره ، وتحريره . فلسطين مقياس لقوة العروبة والاسلام .

بقيت كلمة أخيرة :

من الاصطلاحات الحديثة التي أخذت تشيع ما يطلق عليه اسم « تاريخ المستقبل » . إنه تصورات الغد ، إذا وضعتها في صيغة ممكنة التنفيذ .

وأرجو أن تعتبر هذا الحديث من تاريخ المستقبل .



الإسلام والاستقامة الفكريّة

آثرت أن أذكر كلمة الاستقامة ، فقد جاءت في قوله تعالى : (فاستقم كما أمرت) (هود : ١١٢) ، وجاءت في النصيحة النبوية الجامعة : « قل آمنت بالله ثم استقم » من حديث رواه مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي وهي من دعائنا الدائم في كل صلاة « اهدنا الصراط المستقيم » .

وحديثي هذا نوع من المراجعة الذاتية التي يمكن أن نقوم بها لأنفسنا ونماذج مما يقوم به الآخرون في تراثنا وحضارتنا . ولنحاول أن نضع هذه المراجعات في منظورها العالمي ، وهو منظور متغير مع إيقاعات التفاعل بين العالم الاسلامي وما حوله من الحضارات ، ويتوازى معه إيقاع داخلي بين أجزاء العالم الاسلامي ، يأخذ صورا متضادة من الحرب والسلام ، والتعاون والتخريب ، ثم تزداد الصورة تعقيدا حين تدفع القوى الخارجية بمؤثراتها إلى أرض الاسلام ، وتتقاطع فيها الظلال والمسارات ، وتتدافع التيارات ، تحمل على غواربها أمواج الاحداث ، ويشتد التعقيد حين تتصل القوى العالمية بأطراف الصراع فوق أرض الاسلام ، تؤيد هذا حينا ، والآخر حينا ، في خطة

العربي العدد ٣٥٨ سبتمبر - أيلول ١٩٨٨ م

استنزاف رهيبة تمتص حيوية الاجيال الحاضرة ، وتورث الاجيال المقبلة ضعف الحياة وذبول الأمل .

فالمراجعات الفكرية بحر متلاطم ، سنحاول أن نرى فيه بعض النجوم وبعض الصخور ، وعلى الربان الماهر أن يستعين بوضوح الرؤية وحسن اختيار المسار وتجنب العقبات ليصل إلى غاية رحلته .

بعض النجوم :

ما زلت أذكر في السبعينيات سلسلة من المؤتمرات نظمتها جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية في مدريد ، وكان لقاؤها في قرطبة : درة الاندلس حيث المسجد الجامع أحد روائع العمارة الاسلامية . وكان اللقاء الأول عرْضا متوازيا للاسلام والمسيحية ، يتولاه من كل جانب سبعة من الباحثين ، وهدفُ الاسئلة ـ بعد العرض ـ المزيدُ من معرفة ما عند الآخر ، مجرد المزيد من المعرفة . وكان اللقاء الثاني عن الرسولين محمد وعيسى عليهما وعلى جميع الانبياء الصلاة والسلام . وكان تكوين وفد مصر من باحثين مسلمين ومسيحيين ، وتولى بعض الباحثين المسلمين في الوفد عرض أخلاقيات الانجيل ، كما تولى زميل مسيحي عرض أخلاقيات القرآن . . لقد كان القرآن خلق النبي عليه الصلاة والسلام كما جاء في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

وسار التعاون خطوة أوسع استهدفت تنفية كتب التاريخ الاسلامي في إسبانيا مما تحمل من مطاعن في الإسلام بحيث يعرض فيها الاسلام عرضا موضوعيا كما يؤمن به أهله ، دون تجريح الرسول والرسالة ، ولا تشويه لمسار تاريخه .

ومن إسبانيا أنتقل إلى فرنسا : فقد أصدرت الجمعية الفرنسية « الإسلام والغرب » دراسة في عام ١٩٨٤ عنوانها « صورة الاسلام في الكتب الدراسية الفرنسية » ، تناولت بالنقد والتوجيه أحد عشر كتابا في التاريخ مما يدرس في الصفين السادس والخامس .

وترجع فكرة التقرير إلى مؤتمر عن « الاسلام والغرب » شهدته مدينة جنيف فيما بين ٣ ،٦ أكتوبر ١٩٧٩ ، وكان من أهداف المؤتمر المساهمة في فهم أفضل متبادل بين الاسلام والغرب ، ومن هنا برزت أهمية الكتب الدراسية في تكوين هذا الفهم الأفضل .

وضمت لجنة مراجعة الكتب علماء في الدراسات الاسلامية والعربية وساسة ودبلوماسيين وشخصيات عايشت العرب والمسلمين مدة طويلة ، ومنهم مسيحيون ومسلمون ، ويجمع بينهم عمق الدراسة والرغبة في تكوين الصورة الأفضل المتبادلة .

وقصد التقرير ألا يسند نصا معينا إلى كتاب معين ، واكتفى بوضع النص بين حاصرتين ، فليس الهدف نقد كتاب أو كاتب بعينه ، وإنما النقد الموضوعي الذي يستهدف الصورة الأفضل والأصدق . من أجل ذلك رحب التقرير بمساهمة وزارة التربية الوطنية والأساتذة والطلبة وآبائهم والباحثين الذين تجتذبهم الثقافة الاسلامية ، والقراء المتفتحين على الثقافة العالمية ، والراغبين في معرفة مكانة الاسلام في تاريخ الحضارات ، وبهذا يتسع أفق الرؤية وحوار الحضارات .

إن التاريخ ـ كما يذهب التقرير ـ علم إنساني يقوم على التجارب الإنسانية المحسوسة ، ويستهدف موضوعية تقتضي تصحيح الأخطاء وتوضح المسار بإخلاص ، وإن الحضارة الإسلامية من أغنى الحضارات الروحية في العالم ، وإن مراجعة كتب التاريخ هي إحدى وسائل إيقاظ الضمير التاريخي للأجيال الجديدة .

نماذج من المراجعات :

كان تكوين هذه اللجنة عام ١٩٨٠ ، وأمضت عامين في إعداد تقريرها ، ثم نشرت التقرير بعد عامين آخرين ، ولنذكر نماذج من هذه المراجعات التي وردت في التقرير :

١ ـ إن الصلات بين الاسلام والغرب قديمة ومعقدة ، وترتبط بالحياة اليومية في

مناحٍ متعددة ، وخلال القرون المتعاقبة حدثت مواجهات حادة بين الاسلام والمسيحية ، وكان مع الصراع جهل وإساءة متبادلة ، ونشأت من هذا صور مشوهة عاشت على ما تغذيها به أحداث التاريخ .

٢ ـ إننا نعيش زمانا تقوم فيه كل جماعة بمحاولات دائبة في البحث عن الذات ، كما تحاول في نفس الوقت الانفتاح على الآخرين . وقد يبدو الاتجاهان متعارضين ، ولكن مسار الحياة يريد منهما أن يتوافقا ، ومن الخير أن يعرف كل فريق عن طريق الدراسة الممعنة ما عند الآخر ، وما يتفق فيه معه ، وما يختلف فيه عنه ، وما يستطيع اقتباسه من الآخرين .

هذه خلاصة ماجاء في مقدمات ثلاث ، كتبها ثلاثة من أعضاء اللجنة هم : فرانسيس لامان ، وشارل بوسيه والسيدة هيلين أرفيلر رئيسة مجلس مديري جامعات باريس .

١ ـ وأول ما يسجله التقرير أن الصفحات المخصصة للإسلام محدودة بالنسبة الى حجم المنهج ، ولا يمكن أن تعطي صورة واضحة عن مسار الاسلام .

٢ ـ أن تقسيم المادة بين الصفين السادس والخامس يؤدي إلى مزيد من التفتيت .

٣ـ أن المادة الاسلامية مبتورة عن جذورها في الجزيرة العربية ، وتصورها ـ قبل الاسلام ـ كأنها الأرض المجهولة ، ثم تقف بالحضارة الاسلامية عند سقوط بغداد ، وقد يضاف العهد المملوكي . وتنص الكتب بعد هذا على أن « الغرب سيطر على الشرق » . ولنا أن نتساءل ـ ويتساءل معنا التقرير ـ عن ضياع مفهوم « الاستمرار » في التاريخ الاسلامي ، ومفهوم « السببية التاريخية » أيضا ، ويبدو عرض الاسلام كأنه كتلة انحدرت في التاريخ ، كأنها غارات الهون والوندال والمغول .

٤ ـ وفي عرض الاسلام ترد في الكتب ألفاظ : العنف ، القسوة ، وأن المسلمين هم السبب في سقوط الامبراطورية البيزنطية المسيحية ، كما أنهم السبب في سقوط الامبراطورية الساسانية ، وأنهم ـ أي المسلمين ـ توسعوا على حساب هذه القوى الحضارية العالمية . فالنظرة أوروبية المركز ، والتفكير

بعقلية غربية ، ودخول المسلمين الى التاريخ ـ كما يصورونه ـ كان من الباب الأوربي . وقد نقد التقرير هذا الاتجاه في النظر الى الحضارة الاسلامية ، واستأنس ببحوث بعض أعضاء اللجنة كمحمد أركون وباقتباسات من كتّاب آخرين كمكسيم رودنسون الذي يقول :

« ليس هناك استشراق ولكن هناك منظومات علمية متخصصة تدرس مشكلاتٍ في مجال الاجتماع والسكان واللغويات وعلم الانسان (الانثربولوجيا) . ولا مجال لعبارات مثل : فرضَ العربُ دينهم ولغتهم وعاداتهم وحتى تقويمهم (الهجري) مما يبدو منه أن هذا الانتشار كان بالقهر وتحت وطأة الاضطرار ، وأن قبول الذميين الاسلامَ كان لأسباب اقتصادية كالتهرب من دفع الجزية ، (بينما هي في الاسلام تقابل ضريبة الدفاع) . وحتى الصفحات المشرقة تعرضها بعض الكتب في صور كابية معتمة ، فالتسامح مع نصارى الشام كان لفائدة العرب ، وهو ثمرة سياسية مكيافيلية . ثم يضربون مثالا عنيفا لعلاقة الأتراك بالأرمن » .

ويمضي التقرير في نقد ماجاء بالكتب الدراسية عن الرسول عليه الصلاة والسلام وعن القرآن الكريم ، وينتقل إلى محاولات عرض الاسلام المعاصر ، وكيف أن الأقطار العربية « مع تقدمها المحدود » ليست في نظر أوربا إلا « موردة للنفط ولليد العاملة المهاجرة » ثم يعقب التقرير بأن عرض الحضارة الاسلامية بهذه الصورة إنما هو « تاريخ بلا تاريخ » ، تاريخ طارىء معزول ، حتى إن ذروة الحضارة العربية يعرضونها كأنها قامت على أعمدة من الفكر اليوناني ، ثم انتقل المشعل الحضاري إلى الغرب ، وانتهى دور العرب والمسلمين . هذه النظرة الى الاسلام كأنه ـ في فترة من الزمان ـ كان أرض الغرائب والفكر القدري السلبي الذي يبرر الفقر ، وتبرزه بعض الفصول كأنه حضارة بائدة عاشت ـ تاريخيا ـ بين الحضارات القديمة والعالم المسيحي ، وهي عندهم أحيانا « الامبراطورية العربية العجوز » ، ولم يبق منها الا بعض الآثار المعمارية .

هذا بعض ما أوصى التقرير باعادة النظر فيه ،واقترح توفير وقتٍ للمراجعة والتصويب بين إنجاز المادة العلمية وتقديم الكتاب للطبع .

معهد العالم العربي :

وهذه نقطة مضيئة أخرى انطلقت من فكرة طرحها الرئيس الفرنسي السابق جيسكار ديستان في عام ١٩٧٩ ، ولاقت ترحيبا من السفراء العرب ، ومساهمة من الحكومات العربية ، وتم الافتتاح في نوفمبر ١٩٨٧ ، والمعهد مؤسسة ثقافية تهدف إلى تنمية العلاقات بين فرنسا والوطن العربي في مجال الثقافة والفنون والآداب ، وبعث حركة أبحاث معمقة عن الوطن العربي حول قِيَمه الثقافية والفكرية والاجتماعية والتاريخية ، وقد ساهمت الكويت في الانشاء ، فضلا عن حصتها السنوية في ميزانية التشغيل .

والآن : ماذا علينا ؟

وفي هذا الجزء من البحث وهذه المرحلة من المراجعة سأتبع منهج تقرير صورة الاسلام في الكتب الدراسية الفرنسية ، فلا داعي لتحديد أسماء المؤلفين ، ولا أسماء الكتب ، ويكفي التركيز على الهدف الذي تشكله عدة مصادر من بينها المقولة الآتية :

إذا كان ميدان العلاقات الفكرية بين الاسلام والغرب يشهد هذه المراجعات أفلا يحق لنا ـ أو هو الأجدر بنا ـ أن نقوم بجهد مناظر على صعيد الفكر والمذاهب الإسلامية ؟ لقد أحس بعض علماء الغرب بمرارة ما اجترحه بعض الكتاب والمؤرخين الغربيين في حق الاسلام والحضارة الاسلامية ، وحاول بعضهم أن يفسر ذلك بالصراع الذي كان بين الحضارتين الاسلامية والأوربية ـ المسيحية ، مما اقتضى ـ في الغرب ـ تكوين صورة مشوهة عن الاسلام والرسالة والرسول لتكون « مبررا فكريا » لحرب الاسلام ومحاولة القضاء عليه . هذا الجيش والحشد من المستشرقين والمبشرين والعسكريين ،

وهذا الجهد الدائب في جمع التراث الاسلامي ونقل ـ ما استطاعوا ـ من أصوله ومخطوطاته إلى جامعاتهم ومجامعهم وأديرتهم ، وعكفوا عليه دارسين ومشرحين قبل أن يكونوا شارحين ، ليكونوا أقدر على السيطرة على العقل والأرض والبشر .

ونحن كمسلمين فينا من يقوم ببعض المسئولية في هذا ، فلقد مرت على العالم الاسلامي ـ وما تزال في بعض أقطاره ـ دورات من العداوة أدت الى إخراج حشد من الكتب المذهبية التي لم تكتف بتصوير مذهب معين ، وإنما حاولت تصوير الاسلام كله بلون معين ، بل محاولة توجيه القرآن والسنة النبوية وجهة معينة ، واستطاع الغرب أن ينفذ من هذه الثغرات ، وأن يطعن الاسلام بأقلام أبنائه ، وأن يشكك حتى في النص القرآني الذي وعدنا الله بحفظه في قوله : (إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون) (الحِجر : ٩) ، وفي السنة النبوية المطهرة بعد كل الجهود الجبارة التي بذلها علماء الحديث ، وهو جهد غير مسبوق ولا ملحوق في أي حضارة والله أعلم .

ثم جاء تصوير عهد الصحابة والخلافة الراشدة والعهدين الأموي والعباسي وعهد الدول اللاحقة بعد سقوط بغداد كأنه تاريخ التآمر والدماء واغتصاب الحقوق الشرعية لفريق من المسلمين ، واشتد هذا التدفق من التأليف المذهبي في فترة الصراع بين الصفويين والعثمانيين .

وقد انبرى علماء من مذاهب كبرى يحاولون مراجعة مذاهبهم ، والكتب الكبيرة فيها . وأهل الدار أدرى بما فيها ، ورأيت وقرأت في هذا جهودا مشكورة ، ولقيت علماء من مذاهب شتى عندهم هذا الإتجاه ، ولهم هذا الانتاج الذي ما زال محدود الانتشار تحت ضغوط وسيطرة قيادات في المذاهب لاترضى بسماحة الاسلام وأخوّته السابغة التي تسع المسلمين جميعا ، ويأمن فيها من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وهنا يأتي دور الجامعات الاسلامية ومجامع البحوث باعتبارها مراكز بحث متقدمة . ولكن لن تستطيع القيام بهذا إلا إذا تم الاتفاق على تأمين الباحث قبل أن يقول ، وعندما يقول ، وبعدما يقول ، ولا تطلب من كل باحث أن تكون عنده شجاعة المغاوير ، وفدائية الشهداء . وإنّ خضوع الفكر العلمي

للضغوط القومية والمذهبية قد أضر كثيرا بالوحدة الاسلامية .

وهذا الحديث لاينادي بمصادرة هذه الكتب التي أفرزتها أرض الخصومة ، فلندعها على رفوف المكتبات ، ولكن ننادي بتنقية طبعات جديدة بالمراجع ، ورفع الأشواك منها ، فإن هذا الغذاء المسموم يتراكم في نفوس الاجيال الجديدة وهي غضة فتنشأ على الكراهية والحقد . وفي أكثر من حديث ولقاء تنادي المصلحون بخطورة التكوين الحاقد ، ومن ورائه جيل من المنتفعين بالخصومات والتعصب ، وإن الذين يتقاتلون بالسلاح تعرضوا قبل هذا لشحن عقولهم بالكراهية والعنف . ومرة أخرى أشير إلى الأسلوب الذي استطاع به الغرب أن يتجاوز - إلى حد كبير - الصراعات المذهبية الدينية ، ليفرغ إلى قبول التحدي الحضاري والتفوق العلمي والتقني ، وهو من أهم موازين وأسباب التقدم في عالمنا المعاصر . ولا ينقصه عندهم إلا الميزان الاخلاقي ، وأصوله عندنا متوافرة والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا .

واللغة العربية لها دورها وحقها :

ومع العناية بالأفكار التي نود أن تسود بين المسلمين ، وتصل إليهم دون أن تصطدم بعقبة اللغة واللسان أو المكان أو المذهب فإن لغة القرآن - وهي العربية - لها حق واجب الأداء ، فمهما قيل عن الجهود المبذولة في ترجمة معاني القرآن والأحاديث النبوية الشريفة فإن المحجوبين عن تدبر القرآن في لغته العربية التي نزل بها الوحي يفوتهم خير كثير .

ولقد سار انتشار الاسلام واللغة العربية معا ،وكان في إقبال الشعوب التي اسلمت على تعلم اللغة العربية ، وحبهم لهذا اللسان المبين ، ما دعاهم الى المساهمة الايجابية في الحضارة الاسلامية شرحا وتأليفا وإبداعا . ولقد أدرك الاستعمار هذا الرباط الوثيق بين اللسان العربي والاسلام فكان يحاربهما معا : إما عن طريق سيادة ألسنة أخرى أو تشجيع اللغات واللهجات المحلية لتزاحم

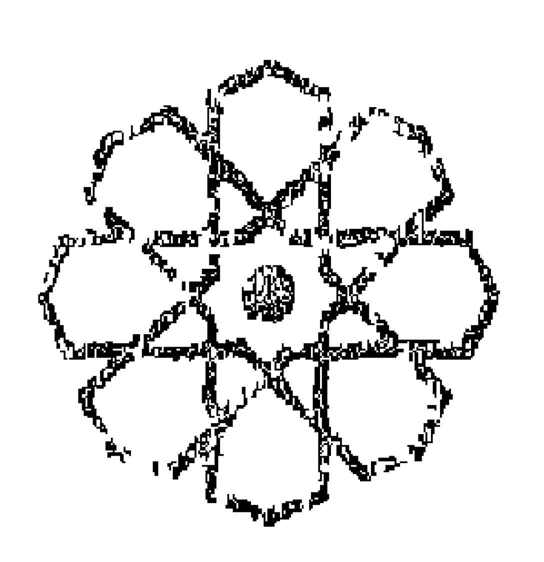
العربية ، وبالتالي تبعد قطاعات كبيرة من المسلمين عن النص القرآني قراءة وفهما .

علينا أن نبذل جهودا مضاعفة في نشر اللسان العربي ، ولننظر كمثال إلى جهود الناطقين بالانجليزية والفرنسية في نشر لغاتهم ، فالثقافة من أمضى أسلحة الحياة وصدق الله العظيم : (خلق الإنسان علمه البيان) (الرحمن ٣ ـ ٤) وما أكرم أن يكون البيان بلغة القرآن !

ولنا مع العام الهجري الجديد أمل في :

- مراجعة التراث ليستقيم على نهج الموضوعية .
- إضافة إليه ليستقيم على نهج الإخاء والتعاون .
- مشاركة في الإبداع الحضاري تلتقي عليها الجهود .
- عناية باللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم .

أربع منارات على الطريق ، نذكرها وندعو الله قائلين : اهدنا الصراط المستقيم . . !


الفصل الثالث

مع الشباب

* « يا يحيى خُذِ الكِتابَ بِقُوةٍ، وآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِياً . وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَيهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ».

(مريـم : ١٢، ١٥)



الوسيط الغائب بين الشباب والسلطان

اكتب هذه الكلمات ، وفي ذهني شريط طويل من الصراع بين الشباب والسلطان باسم الاسلام . بعض فصوله كانت في مصر ، وبعضها في اقطار أخرى الى شرقها وغربها . بعضها كان في أقدس ارض ، وفي أقدس مكان : البيت الحرام . والبعض خيوط تتجمع ، تنذر بالخطر ، في بعض أقطار الشرق الاقصى الاسلامية ، وبعضها كان في العالم الجديد ، حيث مجتمعات اسلامية ناشئة من عناصر مقيمة او وافدة ، والى هؤلاء انتقلت بعض « عدوى » العنف وانفجاراته باسم الاسلام .

ولا أقصد بالشباب قطاعا من المحكومين من الشعب . وإنما قد يكون الحاكم نفسه من « الشباب » : سنا أو تصرفاً . فاذا هو يجمع بين الشباب والسلطان في ذاته ، وله من مقومات الدولة وامكانياتها ، ما يوفر له الاستجابة لما يؤمن أنه الحق .

ونستطيع هنا أن نستعير تعبير دولة الشباب ، أو « الدولة في مرحلة الشباب » من استاذ الجغرافيا السياسية فالكنبرج ، وإن كانت هذه المدرسة قد

العربي العدد ٢٧٨ يناير ـ كانون الثاني ١٩٨٢ م .

أخلت الطريق لمدارس اخرى لاحقة ، وليس معنى إخلاء الطريق أن تضيع كل معالم النظرية القديمة ، وانما يحيا بعض ما بها في نظريات جديدة . فالدولة اذا وصلت الى مرحلة النضج استقرت . هذا اذا كانت ظروفها الداخلية والخارجية مما يعين على ذلك ، وإلا ظلت في فورة وتدافع حتى تصل الى ما تؤمن أنه حقها .
وفي عالمنا الاسلامي نشاهد كل أنواع هذه الصراعات : في داخل الدولة الواحدة بين أجيال متتابعة ، أو بين قطاعين من جيل واحد ، أحدهما حاكم والآخر محكوم . ونلقاها بين دول متجاورة ، تسيطر على بعض تصرفاتها اندفاعات الدولة في دور الشباب .

فالعلاقة بين الشباب والسلطان متداخلة ، ومتبادلة ، ومتقابلة ومن هذه الأوضاع الثلاثة ، بدرجاتها المتعددة ، تلقى صورا كثيرة التفاعلات .

من هذا التفاعل ننتقل في الموضوع خطوة لنسأل :

- من هو الوسيط الغائب ؟

- وفي كلمة واحدة أقول :

- الحوار العقلي .

ولنعرض نماذج من هذا الحوار في عالمنا المعاصر . مجرد نماذج لما نراه .

نموذج من ألمانيا

حدثني صديق عاش في ألمانيا فترة طويلة ، وشغل فيها مناصب في السلك السياسي ، وعنده متابعة واعية للحياة هناك . وكنت اسأله عن العلاقة بين الشباب والدولة ، قال :

- نأخذ نموذجا من الحزب الحاكم الآن . إن الشباب فيه لهم اتجاه يختلف عن اتجاه القيادة السياسية . هناك نقاط التقاء سنعرض لها بعد قليل . ونقاط اختلاف تتعلق بمدى الأخذ بجوانب من الفكر الاشتراكي ، هذه النقاط يدور

حولها حوار ، « داخل الحزب » وتحدث لقاءات بين الشباب والقيادة السياسية . ويبدي كل فرد رأيه بكل حرية وشجاعة ، وبعد دراسة واعية . فالحزب مدرسة للتربية السياسية . وهو امتداد لحرية الفكر التي يمارسها الشباب في الجامعة والمراحل التي تسبقها . حتى وفي المراحل الاولى : يدور الحوار بين المدرسة والمنزل . بين الحي والمدرسة في لقاءات بين الآباء والمدرسين . والطالب في المدرسة لا يلقى مصادرة على رأيه ، ولكنه يتعود من أول أمره ، أن يبدي الرأي المدروس ، وان يحترم القرار الذي تنتهي اليه الاغلبية ، وان يقوم بتنفيذه . ويقودنا هذا الى أمرين مهمين في بناء المانيا الحديثة :

الأول : هو الشعور بالانتماء . إن الوطن ملك لجميع ابنائه ، وعليهم جميعا مسئولية المحافظة عليه ، أمناً وعلماً وعملاً وإنتاجاً .

والثاني : هو العناية بالطفل وتربيته على هذه المبادىء عن طريق الأسوة الحسنة .

هذه بكل اختصار هي ، المعجزة الألمانية . وان كان الألمان لا يحبون هذا اللفظ ، فالأمر عندهم جهد ونظام وعرق ، استطاعوا به أن يبنوا هذه الدولة من حطام الحرب العالمية الثانية ، حتى تصبح قوة صناعية لها وزنها العالمي .

وتابع صديقي قوله :

ـ ولك ان تربط بين هذا وبين جهود المانيا وفرنسا وغرب اوربا في إقامة السوق الأوروبية المشتركة ، والبرلمان الاوربي ، ومحاولة بناء « غرب اوربا » لتقف بين القوتين العظميين : الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة . وما برهن به غرب أوربا على وعي بالقضايا العالمية :

اولا : من خلال العمل والنظام وادخار الجهد لما هو أجدى .

وثانيا : من خلال مقاومته الواعية للخطر الذي يتهدده ، من ان يصبح غرب اوروبا ميدانا للحرب النووية بين القوتين العظميين .

وثالثا : بالجهد الدائب في مقاومة المنافسة العنيدة لصناعات بعض اقطار الشرق الاقصى كاليابان وتايوان وكوريا ، حتى اطلق بعض الالمان على اليابان

اسم « البروسيين الصفر » كأنهم المان الشرق الاقصى دقة ونظاما . وما ندري : هل ستطلق على بعض شعوب غرب اوربا اسم : اليابان البيض » بعد التطور الكبير الذي حدث هناك ؟ ! .

ومن اليابان نموذج

ذكر لي صديق زار اليابان قريبا ، والتقى بعدد من كبار المسئولين عن الصناعة هناك وسألهم عن اضرابات العمال ؟ . . ونظر بعضهم الى بعض :

ـ لماذا يضربون ؟ انهم شركاء في المصنع .. اي زيادة ، وتطوير في الانتاج ، يعود خيره على كل العاملين فيه : من رئيس مجلس الادارة الى اصغر العاملين فيه . الوقت حياة ورأس مال .

وقال الصديق :

ـ كان سن معظم الجالسين معنا فوق السبعين . وقابلت منهم عالما وضع خطة تأليف معجم ياباني ـ عربي ، وقدر المدة التي يستغرقها العمل بثماني سنوات مضى منها ثلاث . وكان الرجل في نحو الخامسة والسبعين . هكذا أملهم في العمل والانتاج .

ونستطيع أن نتصور عطاء مجتمع : شبابه لا يؤمن بالاضراب ، وشيوخه بهذا الحماس للانتاج .

ونموذج من الولايات المتحدة

ففي دراسة نشرتها صحيفة كريستيان سانيس مونيتور بقلم سارة تيري (١٩٨٠) : ذكرت كيف تحول النضال الطلابي « من المظاهرات الى المذكرات » وذلك عن طريق الاتصال والحوار مع أعضاء الكونجرس وادارات الجامعات ،

وكيف استطاع الحوار الطلابي الواعي في عام ١٩٧٩ ان يقنع الكونجرس بالموافقة على قانون الطلاب متوسطي الدخل ، فارتفعت بذلك - الى الضعف - قيمة المساعدات المالية الفيدرالية المقدمة الى طلاب الجامعات ، والتي كانت تبلغ نحو مليارى دولار . وذكر المقال نماذج اخرى من حوار الطلاب مع السلطات ، وتصعيده من مستوى الى مستوى أعلى ، الى الصحافة والرأي العام والقضاء ، بحيث أصبحت المظاهرات تشغل المكانة الاخيرة في سلم الوسائل .

وأكتفي بهذه الأمثلة الثلاثة : من أقصى الشرق ، ومن غرب أوربا ، ومن العالم الجديد ، لأبين مكانة اسلوب الحوار الواعي وتطوير العلاقة بين الشباب والسلطة .

مقارنة

ولو عدنا الى أوربا بعد الحرب العالمية الثانية وفي أواخر الستينيات ، لرأينا كيف تفجرت قضايا الشباب ، بدءاً من الجامعات الفرنسية في فبراير ١٩٦٨ ، وكيف انتشرت هذه الموجة فعمت أوربا وانتقلت منها الى غيرها من القارات والأقطار ، ومن بينها العالم الاسلامي . وكان محور الأمر عندهم : العلاقة بين الحياة والتعليم الجامعي . فمهما قلنا في التعليم ، فان هدفه الأول أن يكسب الشاب رزقاً . ان تكون في فكره وبين يديه ، وسيلة ايجابية تعينه على أن يعيش في قطره اذا كانت أمامه الفرصة ، او في غيره من الأقطار اذا كانت الفرص أوسع . وظهرت أهمية الدراسات العلمية والتقنية والتطبيقية ، وبدأت مكانة العمل اليدوي تعلو الى جانب مكانة الفكر البحت . واليهما معاً يحتاج التطور ، بالاضافة الى التخطيط والابتكار .

أسلوب المظاهرات العنيفة الناتج من انقطاع الحوار الواعي بين الشباب والسلطة ، قاد الدبابات الى داخل الجامعات في أوروبا ، وملأ الميادين

بالمتظاهرين ، وتحول به قطاع من الشباب الى العمل في الجماعات السرية ، التي تحاكم الفرد غيابياً ، وتصدر عليه الحكم بالاعدام غيابياً ، ثم تقتله علنا ! ! . . وتفنن الشباب في أنواع الصراع : من اصابة الأطراف السفلى ، وترك الضحية نصف حية ، الى حرب المدن في أمريكا اللاتينية ، الى احتجاز الرهائن واعادتها حية أو ميتة . .

وفي عالمنا الاسلامي :

وأقول آسفاً : أكثر من مسئول في أكثر من قطر ، كنت ألقاه ، فاذا جاء ذكر الشباب بدأ سوء الظن ، وغلبت على التفكير أساليب القهر والاستبداد ، إلا قليلا منهم .

للأسف أقول : وكنت أسمع منهم تمجيد « المستبد العادل » .

ـ ولا أدري كيف يجتمع العدل والاستبداد ؟ أو يقولون : إن شعوبنا لا يصلح معها إلا القوة .

حسناً . . اذا كانت القوة هي السبيل الوحيد في الاقناع ، أو على الأصح : في الطاعة بلا اقتناع ، أو في النظام بلا ارادة ، فما الذي يحول بين الشباب واستخدام أسلوب يتبعه بعض القادة في تعاملهم مع الشباب ؟ ! القوة أمام القوة . والمفاجأة أمام المفاجأة ! !

الطريق طويل :

واعتقد أن الطريق الوحيد أمامنا : هو اتاحة الفرصة لهذا الوسيط الغائب « الحوار العقلي » . والأمر فيه ليس عصا سحرية ، أو عصا معجزة تشق البحر يبسا ، وتفجر الصخر ماء .

إنه طريق طويل ، سارت فيه شعوب أخرى غير إسلامية ، واستطاعت أن تقيم المعابر بين الشباب والسلطان . ولهذا الطريق معالم نوجزها فيما يلي :

أولاً : الانتماء : شعور المواطن ان الوطن ملك للمواطنين وأجيالهم المتتابعة ، ومستوياتهم الاجتماعية ، وقواهم الاقتصادية . وهذا الانتماء يقوى بأسلوب يعتمد أساساً على الأسوة : العمل الكثير والقول القليل . فائض انتاج دون إسراف في الاستهلاك .

ثانياً : أسلوب التربية : ذلك الذي يوثق العلاقة بين العمل والحياة ، وبين الاعداد للمستقبل ، وممارسته بنجاح . أما الشبع العلمي الكاذب عن طريق كتب ضخمة الحجم ، هزيلة المحتوى ، بعيدة عن هموم الواقع ، فمكانها ـ للأسف ـ ما نراه من إلقاء الطلاب كتبهم بعد انتهاء العام الدراسي : إما على سور المدرسة ، أو التخلص منها إهداء ، أو بيعاً بالوزن في الدول الفقيرة .

ثالثاً : الربط بين العمل والأجر : هذا الربط الصادق الذي يفتح المجال أولاً للشاب أن يتكون في ظل من تكافؤ الفرص ، فلا يقعد به وضع اجتماعي أو اقتصادي . ثم يفتح له المجال لأن يأخذ الأجر العادل على ما يعمل ، دون بطالة حقيقية أو مغطاة ، يصبح بها العمل الحكومي أو الأهلي ـ في بعض قطاعاته ـ نوعاً من التسول المستور ، أو التخدير المؤقت .

إن الانقطاع بين الأجر والعمل الانتاجي ، يدعو الى الانقطاع بين المال والاحسان في انفاقه ، فما جاء بغير جهد ، يذهب بغير جهد . فاذا الشباب مخلوقات هشة لا تصمد أمام المغريات ، وتستجيب لأي نزوة .

رابعاً : التطبيق التدريجي في عالمنا الاسلامي لما أنزله ربنا وهو من القرآن الكريم ، وما تعلمناه من المصطفى عليه الصلاة والسلام .

أقول : التطبيق التدريجي ، بمفهومه الواسع ، ويشمل - فيما يشمل - النقاط الثلاث السابقة : وهي من الفطرة والاسلام . فالدين حياة « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . (الروم : ٣٠) .

وتأمل ما بعدها من الآيات الداعية الى الايمان والعمل والعبادة والوحدة :

« منيبين اليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ، ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون «) الروم : ٣١ - ٣٢) .

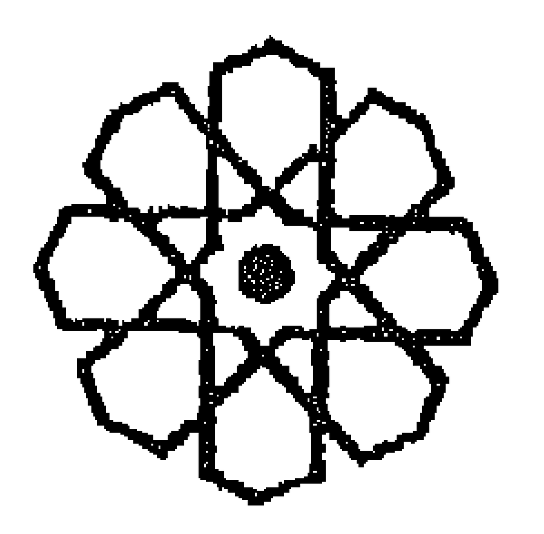
ذلك ان الاقتراب الواعي من التطبيق الاسلامي على مستوى الفرد حيثما كان موقعه ، وعلى مستوى الجماعة ، يلقي في القلوب اطمئناناً ، ويوثق الصلة بين الشباب والسلطان ، ويؤكد أن الجميع على الطريق ، وفي حوار صاعد الى غد أفضل .

خامساً : فتح الحوار الديني مع الشباب نظرياً وتطبيقياً ، ليصل الى الاقناع والاقتناع . مع دراسة علمية متكاملة ، لحركات الشباب الاسلامي وعلاقتها بالسلطة . ولنتفق مبدئياً على أن الحوار ليس اقناع طرف لطرف بكل ما عند الآخر . وانما هو لقاء يكون فيه كل شريك على استعداد للنزول عن رأيه - أو بعض رأيه - عندما يتجلى له وجه أفضل،والأفضلية هنا لا يحكمها مستواها النظري المجرد ، وإنما يحكمها اللقاء بين سلامة الفكرة وسلامة التطبيق .

وهذا الحوار يمتد من المدرسة بما فيها من كتب ، المسجد وما به من دروس وعظات ، والصحافة وما فيها من مقالات ، والكتب وما فيها من معلومات وآراء .

ويمتد ليفتح أبواب الأجهزة التشريعية لتسمع الى الشباب وتحاوره ، ولتتعود الأسرة أن يكون تعامل أفرادها بالفكرة لا بالقوة . بعبارة أخرى : بقوة الفكرة لا بفكرة القوة .

وبعد : فهذه مجرد خطوط وخيوط من نسيج طويل يمتد سنوات وسنوات حتى يصبح في حياتنا عادات يومية ، كما صنع غيرنا ، وبهذا نستطيع أن نجمع بين سلامة العقيدة وسلامة أسلوب الحياة ، والمستوى الأخلاقي الذي يدعو اليه الاسلام مصدقاً لما بين يديه ، مما أنزل الله على أنبيائه ، وما يزكو به وجه الحياة . وعسى أن نفسح في حياتنا مكاناً للوسيط الغائب بين الشباب والسلطان .



الدين والعلم والشباب

جاءتني دعوة لحضور ندوة عن مستقبل الوطن العربي . الداعي صديق عزيز جاد . ومجال الندوة واسع خصب شائك .

تذكرت ندوات حضرتها ، وأمضيت ليالي في إعداد بحوثها ، وليالي وأياما في مناقشاتها ، وفي بعض الحفلات التي أصبحت من توابع الندوات ، وما فيها من تحيات متكلفة ، وابتسامات مرسومة على الوجوه ، وانتقال سريع من صديق الى صديق ، ومن حديث الى حديث .

وفكرت في الاعتذار قائلا لنفسي : ماذا ؟ أوراق فوق أوراق ، وما أكثر أوراقنا ! ! هي في كثير من الأحيان لا تزيد عن نفثة ألم تندفع من الصدر أو الفكر الى الفضاء العريض ، أو جلسة اعتراف في محفل علمي أمام كهنة الدراسات . صناعة جديدة أتقنتها منظمات عالمية ، وسارت فيها منظمات اقليمية ، ومن ورائها منظمات محلية :

إذا لم تستطع أن تعمل ، فقل . واذا لم تستطع تحريك السلاح في ميدان قتال ، أو القيام بتنمية حقيقية فتكلم وتكلم .

العربي العدد ٣٠٣ فبراير ـ شباط ١٩٨٤م

دارت هذه الأفكار في نفسي ، عندما قابلت الصديق في وطنه ، وفي المؤسسة العلمية التي يتولى أمرها ، وحدثته بها ، واستمع لكل ما قلت ، ثم عقب عليه بقوله :

ـ هذا بعض ما بقي لنا : أن نلتقي وأن نتحدث . وألا يفقد بعضنا بعضا في زحام الحياة .

أحيانا أحس في هذه اللقاءات بعض عبرة الحج : أن يلتقي المؤمنون في صعيد واحد ، وقد جاءوا من كل فج عميق . وفي الحج يحس المؤمن ـ مهما يكن غريبا في وطنه ـ انه في وطن عقيدته : في البيت الحرام وشعائر الله ، وعند وقوفه بعرفات وافاضته منها ، في كل هذا يحس نفسه فردا من هذه الأمة المؤمنة . فردا مندمجا . شعاعا من حزمة ضوئية قوية . قطرة من هذا النهر المؤمن النابع من دعوة أبينا ابراهيم عليه السلام ، وروافده تجري في مشارق الأرض ومغاربها في تجدد واستمرار حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

إن المؤمن في الحج يستمد الثقة من رؤية غيره . ويستمد غيره الثقة من رؤيته . وهم جميعا يعبدون ربا واحدا ، ويؤمنون بنبي واحد دعاهم الى التصديق بجميع الأنبياء والمرسلين .

الفكر نبض العقل

ويعود الحاج وهو يحمل روح الجماعة في ذاته ، يطرح شعوره بالعزلة والوحدة . والمثقفون بطبيعتهم غرباء . والغربة موقف فكري أولا . المثقف يقرأ كثيرا ، ويلقى كثيرين ويفكر كثيرا . حركة فكره مستمرة مادامت حركة قلبه مستمرة . الفكر نبض عقله . فهل نحرم أنفسنا حتى من اللقاء ؟ فلنتقابل . وليحاور بعضنا بعضا . وليعرض كل منا ما عنده على عقل أخيه . ثم ننطلق ، كل في طريق . وبين الجوانح ذكريات هذه اللقاءات ، التي نرجو

أن تكون حافزا على متابعة السير ، والتذكر الدائم لقضايانا ، ومراجعة واحصاء انجازاتنا .

وسكت الصديق : وساد الحجرة صمت . ودارت عيني بين المراجع المصفوفة عن يمين وشمال : روائع كتب التراث . قواميسنا العربية : لسان العرب ، القاموس المحيط ، الصحاح . . كتب التاريخ : الطبري . الكامل لابن الأثير . تاريخ ابن خلدون ومقدمته العملاقة وشروحها . رواد من شعرائنا : أصحاب المعلقات . المتنبي . البحتري . أبو تمام . الشريف الرضى . أحمد شوقي . أبو القاسم الشابي . محمود حسن اسماعيل . . . أجيال بعد أجيال . أولئك الأساتذة والأصدقاء الصامتون باللسان ، الناطقون بالقلم . علماء ومفكرون وأدباء عاشوا في وسط آسيا . في الهند . في بلاد الأفغان . في ايران . في المشرق العربي . في المغرب . في قلب افريقيا ، العالم الاسلامي في امتداده الزماني والمكاني تضمه حجرة . وفي الجهة المقابلة أرفف عليها كتب المستشرقين . بعض ما حققوه من التراث ، وما كتبوه عن العالم الاسلامي والوطن العربي ، ومجموعة مما اصدرته هيئة اليونسكو في توجهها الحديث نحو العناية بالتراث العربي والاسلامي ، ضمن توازن فكري علمي عالمي أخذت نفسها به : قرارات ومشروعات وتنفيذات .

وعلى أرض الحجرة قطعة من السجاد ، متواضعة كمائدة الاجتماعات الصغيرة ، ومن حولها مقاعد عمل لا تدعو الى الاسترخاء .

وعدت أنظر الى الصديق بجسمه النحيل ، ومنظاره السميك ، وابتسامته الودود ، وهدوء صوته ، وأتصور الكتب حولي صحائف منشورة . آلاف الصحائف ، ومئات الآلاف من السطور ، وملايين الكلمات وساعات العمل . هذا طريق الصديق ، وطريق كل باحث وهو يعمل في بناء مستقبل امته وعقيدته واخوته في الانسانية .

لم يدخل اليأس نفسه ، وإن خالطه الألم . يرى النور مع تكاثف الظلمة

من حوله . يضع قدميه على الطريق رغم الصخر والشوك ، ورنين صوته في أذني .

ـ هذا ما بقي لنا ، أن نلتقي ، وأن نتحدث ، وألا يفقد بعضنا بعضا في زحام الحياة . واستأذنت في الخروج قائلا :

ـ سنلتقي إن شاء الله ، ونتحدث ، ولن يفقد بعضنا بعضا في زحام الحياة .

وفي الأمل حياة

وأنتقل الى مشهد آخر من حياة عالم جليل هو الأستاذ باولو دي بدرو كارنيرو ، الرئيس السابق للجنة العالمية لتاريخ الانسانية العلمي والثقافي في اليونسكو ، كانت ولادته عام ١٩٠١ ووفاته عام ١٩٨٢ .

كان هذا اللقاء في مكتبه في نوفمبر ١٩٨١ عقب محاضرة عن الثقافة والدين دعتني هيئة اليونسكو الى القائها ضمن أحد مواسمها الثقافية ، حضر المحاضرة ـ مع تقدم السن ـ وشارك في التعقيب والحوار بكلمات كريمة ، وأحسست عند الجلوس اليه أننا قد تعارفنا من وقت بعيد . اتصالي بنشاطه العلمي يرجع الى ما قبل اللقاء بسنوات ، ويتصل بالعمل الكبير الذي أشرف عليه منذ منتصف القرن العشرين وأثمر « تاريخ الانسانية » في ستة أجزاء ضخمة ، عنيت بالجوانب العلمية والثقافية والنظرة العالمية ، وما كادت تتكامل أجزاء الكتاب عام ١٩٧٦ حتى بدأ النظر في مراجعة الطبعة الأولى ، وتلقى الأستاذ كارنيرو النقد كله بقبول حسن . فهذا من حق الأجيال المتتابعة والشعوب ، واسندت اليه هيئة اليونسكو رئاسة اللجنة الجديدة التي تشرف على الطبعة الثانية ، توثقت بيننا الصلة مع عضويتي فيها . قلت له :

ـ لقد استغرق هذا العمل من عمرك ربع قرن سبقها تمهيد من سنوات

خمس . وأنت الآن على أبواب الثمانين . فما شعورك وأنت تبدأ هذا العمل العلمي الجديد ؟

في الحجرة التي يدير منها كارنيرو العمل ثلاثة مكاتب : احدها له ، والثاني للأمينة العلمية للمشروع ، والثالث للمسئولة عن الطباعة على الآلة الكاتبة وحفظ الملفات . . هذه كل ادارة المشروع في مبنى اليونسكو بشارع ميوليس في الحي الخامس عشر بباريس . وقد أضيف اليهم أخيرا أمين عام من موريتانيا ، هو الأستاذ ألوين تراوري .

ولم يكن مكتب كارنيرو يختلف عن المكتبين الآخرين . حجرة واحدة تكفي الثلاثة . المهم الفكر والتنظيم .

وأعود الى الرجل الكبير وهو يقول :

ـ من أول الدروس التي ينبغي أن يعيها العالم ، أن يفصل بين عمره وبين عمر المشروع الذي يعمل فيه . أنا متأكد اني لن أرى اكتمال هذا العمل . إنني أعرف ظروفي الصحية جيدا (قد علمت فيما بعد انه كان يعاني من مرض خطير وان احتمالات العمر عنده قصيرة وكان يعرف ذلك) ولكني أؤدي حق الحياة .

وأمسك بيده القلم وهو يقول :

ـ مادامت يدي قادرة على أن تمسك بالقلم . ومادام عقلي قادرا على التفكير ، ولساني قادرا على التعبير ، فسأظل اتابع عملي من هذا المكتب . كل أوراقي هنا . الملفات . البحوث . الاتصالات . كلها منتظمة ويعرفها من معي . فإذا سقط القلم من يدي ، وتوقف عقلي عن التفكير ، ولساني عن التعبير ، سيأتي في غد من يجلس على هذا المقعد ويتابع العمل دون أن ينقطع العمل يوما .

ثم أردف قائلا :

ـ لا علاقة بين عمري وعملي .

قال هذا فسبق إلى ذهني قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

- « إن قامت الساعة ، وبيد أحدكم فسيلة (شتلة) ، فإن استطاع أن يغرسها في الأرض فليغرسها » (رواه أحمد) .

هذه قداسة العمل التي يلتقي عندها العلم والدين والتقدم .

وقلت له : يكفيني في هذه الرحلة أن ألقاك وأن اسمع هذا منك في جلال السن . لا يحول هذا دون حضورك المحاضرة والمشاركة في الحوار ، ولا أن تحمل مسئولية عمل طويل متشعب ، أنت تقول انك تحضر بدايته ، ولن ترى ثمرته . تقول هذا وعلى وجهك هذه البسمة ، وفي صوتك الهدوء والاستقرار .

ثم اشار الى الطبعة الأولى من تاريخ الانسانية بأجزائها الستة واقسامها الثلاثة عشر . وقال :

- من الخير أن تقرأها جميعا حتى تستطيع أن تتابع العمل معنا . مشكلتكم في المشرق أنكم تتركوننا نعمل ، ثم تنتقدون العمل بعد هذا . هذه المرة شاركوا في مراحل هذا العمل جميعا . تحملوا معنا مسئولية الاعداد والتنظيم والحوار والمراجعة . هذا واجبكم وحقكم . كل حضارة ينبغي أن يكتبها أبناؤها أولا . هم أكثر احساسا بها وأقدر على التعبير عنها . جوانب نقد متعددة جاءت عن الطبعة الأولى . وهذه طبيعة الحياة والتطور . وهذه الطبعة الثانية ستتعرض بدورها للنقد بعد عشر سنوات أو عشرين سنة . المناهج تتغير . كشوفات جديدة تظهر . حفريات ووثائق يعثر عليها الباحثون .

وهذه أيضا مجموعة « مجلة تاريخ العالم » هي ثمرة من ثمار عمل اللجنة . . . هي مائدة الحوار المتصل حول التاريخ العالمي وقضاياه . راجعها أيضا . وزملاؤك في الحجرة المجاورة مسئولون عن تاريخ أفريقيا . أصدروا منه مجلدين . وشارك فيه زملاء كثيرون من أفريقيا . وهذه بادرة طيبة . راجعه أيضا . مادام الانسان حيا ، فعليه أن يعمل وأن يتعلم . ولا مجال في الحياة للباحث المعتزل . نحن الآن في عصر الفريق المتكامل والفرق المتعاونة ، خصوصا بعد أن تيسرت سبل الاتصال واللقاء بين الباحثين .

ظلت كلمات كارنيرو حية في نفسي . وعدت الى الكويت ، وبعد قليل جاءنا خبر نعيه ورحيله عن دنيانا . والعمل من بعده يسير .

حوار بين العلم والدين

من الخير لشبابنا ولعلمائنا أن يعلموا ما في دوائر التفكير والعلم العالمية الآن من اتجاهات . .

وبين يدي كتاب أصدرته اليونسكو عنوانه « العلم وعوامل التباين » : دروس من الماضي وآمال في المستقبل ، وقد صدر عام ١٩٧٩ .

أشرف على الكتاب المؤرخ الفرنسي الأستاذ شارل مورازيه وكتب مقدمته وقسمه الأول عن اتساع وانتشار العلم الحديث ، كما كتب خاتمته . وشارك فيه باحثون من الوطن العربي والشرق الأقصى وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، والأستاذ مورازيه هو الذي أسندت إليه هيئة اليونسكو رئاسة اللجنة العالمية للتاريخ العلمي والثقافي للانسانية بعد وفاة الأستاذ كارنيرو .

شاركت في الدراسة أيد من حضارات متعددة ، ولكني أقف عند بعض المعاني التي وردت في الفصل الختامي وعنوانه « العلم : ذلك المجهول » .

يشير في مطلع الخاتمة الى يقظة الروح الدينية وتأثيرها السياسي في الوقت الحاضر . وهذا عنده غير مستغرب : ذلك لأن نصف البشر يعانون من الفقر المادي الذي وصل الى أبعاد قاتلة ، وحرم الانسان من الدواء الضروري والغذاء ، وأصبح يعاني أيضا من الفقر المعنوي .

ان العلم لا يزوده بوسائل الحياة التي تعصمه من خطر الفناء . وحتى ممارسة الزهد أصبحت غير ممكنة ، فإن كثيرا من البشر يعيشون دون مستوى الزهد ، هؤلاء يجدون في الدين تعويضا . إنه يمنحهم الاحترام المفقود ، ويدفعهم الى روح نضالية دينية » .

إن الأستاذ مورازيه يضع هنا التقدم العلمي بديلا كافيا ، ويضع الروح الدينية تعويضا ، عن تقدم مفقود .

وهو يربط في موضع آخر بين الاستعمار وكيف حال دون التقدم في البحث العلمي ، في الأقطار التي وقعت تحت سيطرته ، لأن همّ الدول الاستعمارية كان الاستيلاء على مصادر المواد الأولية وفتح أسواق لانتاجها الصناعي ، ذلك الانتاج النمطي القائم على قدر أقل من الابتكار ، وأكبر في التوزيع . وهو يختلف عن الانتاج المعاصر الذى أصبح فيه البحث العلمي عنصر أساسيا وحاسما .

من أجل ذلك لم ترحب هذه الدول بأية رغبة في التطوير أو فكرة علمية تنبث في المستعمرات . مع أن هذه المستعمرات شهدت حضارات أصيلة كحضارات الوطن العربي والهند والصين . وكان من الممكن أن « تشارك » في الحركة العلمية دون أن يقتصر دورها على تصريف الانتاج و « تقبل » ما يقدمه إليها الغرب من نتاج علمي .

صراع بين العلم والدين

في عالمنا الاسلامي . وفي أكثر من حضارة في الشرق الأقصى لم يحدث هذا التضاد بين التقدم العلمي والنهضة الدينية . كمثال : حدث في اليابان تزاوج بين النهضة الحديثة والبوذية كمصدر ودافع . وفي الوطن الاسلامي من قديم : لم يحدث أي تضاد بين العلم والدين . فأول أمر نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى عليه الصلاة والسلام كان « اقرأ » ، وأول أداة أقسم بها الحق تبارك وتعالى هي القلم في قوله « ن . والقلم وما يسطرون » وهي أول أداة ذكرها الله في أول القرآن نزولا « اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم » .

الانحراف عن الدين والانحراف به

ولكن القضية التي ينبغي أن نوليها مزيدا من العناية وأن ندير فيها الحوار مع أبنائنا هي « مناهج العلم » و « مناهج الدين » .

مناهج العلم تتصف بكثير من الثبات والاستقرار ويرجع هذا الى أسباب أربعة رئيسية :

١ ـ شعور الزمالة بين العاملين في الحقل العلمي . فكل منهم يكمل الآخر . والفريق متعاون . والكل يشارك في نظام عالمي يقوم على المنطق والاحكام القائمة على التجربة .

٢ ـ إنه يميل الى تحقيق قدر من المساواة في استخدامات الابداع العلمي : وسائل النقل العالمية . الأدوية . وسائل حفظ الطعام . وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية .

٣ ـ وبهذا يبدو دور العلم في نشر الديموقراطية فكريا وعمليا ، وان كان نمو العلم وتقدمه ليس متوازنا في العالم الآن ، ولا متعادلا بين المجتمعات ، وانما هو مركز في مناطق جذب وتأثير .

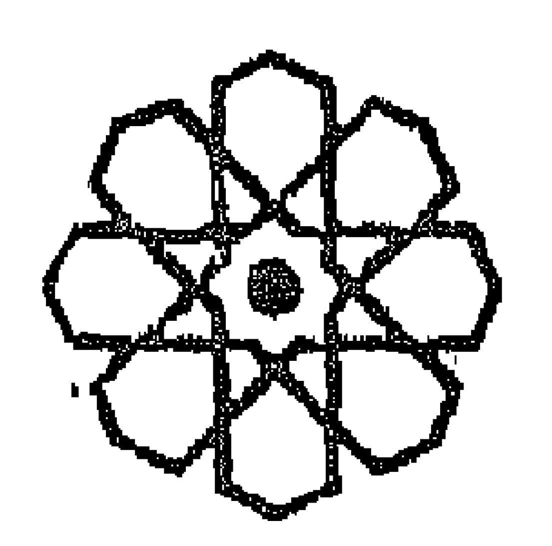
٤ ـ إن البحث العلمي له جدواه ولذته ونموه . إنه تقدم وسعادة واقتراب من أسرار الوجود وجماله وخالقه جل وعلا .

هذا العلم الذى يجمع بين عالمية المنهج ، وتجريبية الدليل ، وروح الفريق ، هو الذي نود أن يسود بين شبابنا . .

وان التحديات التي يقابلها المجتمع في نموه ، والموازنة بين الأوضاع العلمية في وطننا العربي والاسلامي من ناحية ، والعالم المتقدم من ناحية أخرى ، تفرض علينا أن نوجه طاقة شبابنا الى التعاون في تحقيق صورة أفضل للمستقبل .

لا بديل عن العلم ، ولا بديل عن الايمان . ومن الخير أن تنبعث النهضة من أصولنا وجذورنا ، وأن تتخذ من الدين دافعا قويا ، ومن المنهجية العلمية أسلوبا ، ومن التغلب على عقبات التخلف هدفا ، ومن التعاون العلمي العالمي وسيلة تجعلنا على صلة بكل ابداع الانسان .

بهذا تتكون عندنا قاعدة علمية جديدة مؤمنة ، تستطيع أن تستقطب الكثير من طاقات الشباب الى ما هو أجدى ، دون أن تنحرف بالدين أو تنحرف عنه ، ويكون لشبابنا هذا الصبر الطويل على العمل ، والتواصل الحميد بين الأجيال ، والتعاون الذي يختصر الطريق ويقترب به الهدف البعيد .



ينبوع من الايمان في أرض المعركة

كُتب عن حرب رمضان سنة ١٩٧٣ ، التي خاضتها الجيوش العربية (المصرية والسورية وغيرها) ضد المغتصب الاسرائيلي الكثير . بعض هذه الكتابات شهادات للتاريخ ، تمثل وجهة نظر أشخاص اطلعوا على بعض جزئيات من هذه الحرب .

وهذا المقال أحد تلك الشهادات .

هذه سطور من الاستعداد لحرب رمضان ١٣٩٣ هـ / اكتوبر ١٩٧٣ م ، والحديث فيها عن ينبوع من الايمان ، وفي أرض المعركة ينابيع اخرى للنصر : المستوى العلمي ، واللياقة النفسية والبدنية للقوات المسلحة ، السلاح ، التدريب ، التخطيط ، التوقيت ، وتهيئة الجو السياسي والاعلامي ، العلاقات الانسانية والنظامية بين القيادات والقواعد ، وبين القوات المسلحة والشعب والدولة ، هذه الروافد كلها تصب في نهر النصر .

وانت حين تشرب من ينبوع الايمان ، يسري ماؤه في جسدك كله ، كالعصارة الحية في النبات ، هي في الجذر والساق والأوراق والزهر والثمر ، هي شيء في كل شيء ولكنها ليست كل شيء .

العربي العدد ٣٣٣ أغسطس - آب ١٩٨٦م

كيف يكتبون التاريخ ؟

١ ـ في هذه الحدود نقترب من أرض المعركة ، ذلك لأن من أبرز ما تعاني منه الدراسة التاريخية : النظرة الأحادية ، التي تحاول أن تفسر التاريخ على أساس عامل أساسي واحد ، ينفرد بالتفسير ، أو تدور حوله العوامل الأخرى ، كأنها كواكب في مجموعته الشمسية .

٢ ـ وقد يكون الباحث على استعداد للتعامل مع عناصر المؤلف أو الفترة بشيء من التوازن ، ولكن لا تكون بين يديه الوثائق الكافية ، إمّا لأنها بعيدة عن اهتماماته الأساسية ، أو لأنها غابت تحت ركام الأيام ، وكم طويت من سجلات ما تزال تنتظر جهود المؤرخين ، ومن هنا تأتي ضرورة الفهارس المركزية ، ودوائر التوثيق التي تعين الباحثين .

ونحن في وطننا العربي نمر في مرحلة وسطى بين العمل الفردي والمركزي . عندنا مراكز توثيق ومكتبات عامة ، ولكنها ماتزال دون الاحاطة والتنظيم المنشود ، وهو في ذاته هدف دائم التجدد . والوصول الى الوثائق ـ أحيانا ـ تقابله صعاب : إمّا ادارية أو أمنية أو سياسية .

وعلينا أن نتابع المسيرة بكل الصبر والدأب ، بحيث تقل الجهود المبذولة في الحصول على الوثائق ـ او يفرغ له متخصصون ـ وتزداد الجهود المبذولة في تحليل ومقارنة الوثائق ـ وتأريخ الموضوع ، أو الفترة ، أو الاقليم ، أو الحضارة التي نحن بصددها .

٣ ـ واذا كان التاريخ هو ما يكتبه المؤرخون ، فأود هنا أن أشير الى كتاب أصدرته هيئة اليونسكو هو « الاتجاهات العامة للبحث في العلوم الاجتماعية والانسانية » ١٩٧٨ م ، وتحديدا الى البحث الذي كتبه الأستاذ جفري باراكو ـ أستاذ التاريخ الحديث بجامعة اكسفورد ـ عن الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية ، وقد ترجمه الى العربية ـ الدكتور صالح العلي رئيس المجمع العلمي

العراقي (بغداد) ، ونشرته مؤسسة الرسالة (بيروت) عام ١٩٨٤ م . وهو عرض شامل وعميق عن اتجاهات البحوث التاريخية في القرن العشرين ، وأزمة التأريخية ، والبحث عن أفكار ومناهج بحث جديدة ، وأثر العلوم الاجتماعية ، والأبعاد الجديدة في التاريخ ، والبحث عن معنى التاريخ ، وتنظيم العمل التاريخي ، واتجاهات اليوم ومشكلاتها . ومراجع البحث تشغل وحدها نحو مائة صفحة ، فضلا عن اتصالات المؤلف المباشرة بكبار المؤرخين واللجان الوطنية .

٤ ـ أقول ذلك لأن تطور الدراسات التاريخية ومناهجها ، لا يقل أهمية ولا خطورة عن تطور الدراسات في المجالات العلمية الأخرى ، فالعلوم تتفاعل وتتبادل التأثير .

ومن الظاهرات الايجابية في وطننا العربي تقوية اتصالاته بالمنظمات الدولية : كاليونسكو ، واللجنة الدولية للعلوم التاريخية ، وتعقد مؤتمراتها العالمية الدورية كل أربع سنوات ، وهي أكبر تجمع عالمي تاريخي ، فضلا عن الصلات بين الجامعات العالمية والعربية ، وزيادة العناية بالوثائق المحلية والعربية والاسلامية ، ونشاط حركة الترجمة من العربية واليها ، وزيادة الروابط مع الجامعات الاسلامية . وعلينا دعم هذه الاتصالات جميعا ، رغم ما قد تلقى من معوقات وصعوبات داخلية وخارجية ، وأن تكون فينا القدرة على مراجعة الذات وتعديل الأسلوب ، والافادة من الجديد في دعم الشخصية الحضارية ، وهي ـ أيضا ـ في حركة مستمرة .

مشكلة العصر الذهبي :

يبقى بعد هذا مشكلة وثيقة الصلة بحرب رمضان / اكتوبر ، وبدراسة تاريخ مصر في القرن العشرين . . هل أقول إنها مشكلة عربية أو أوسع ؟ وسأقتصر في النموذج المصري على جانب منه :

١ ـ الـذين عاشـوا قبل ثـورة ١٩٥٢ ، وسعدوا بحيـاتهم فيهـا ، لهم مؤرخوهم من مصريين وغير مصريين ، وكان مما عنيت به الأسرة المالكة كتابة تاريخ مصر ، وفق الخطوط التي يريدونها ، وتحت أيديهم الوثائق . . كمثال : كتاب « دوان » تاريخ الخديوي اسماعيل ، وكتاب بيير كرابيتس : اسماعيل المفترى عليه . . وكانت هناك أصوات عنيت بالجانب القومي من هذا التاريخ ، وأبرزهم في هذه المرحلة عبد الرحمن الرافعي المحامي في موسوعته : تـاريخ الحركة القومية ، وإن كان تركيز الرافعي على ابراز دور الحزب الوطني الذي ينتمي اليه ، ومحمود الخفيف في كتابه عن أحمد عرابي ، مـدافعا عنه ، وعن مواقفه التي شوهتها الكتب الرسمية والمدرسية .

٢ ـ والذين حملوا المسئولية في فترة الرئيس جمال عبد الناصر لهم أيضا مؤرخوهم . أو كتبوا التاريخ بأنفسهم ، ولأنفسهم ، وهؤلاء تباينت مواقفهم مع طول او قصر المدة التي قضوها في مراكز القيادة السياسية والفكرية أو في جوارها ، ومع الأسباب التي أدت الى استمرارهم أواعتزالهم ، أو عزلهم ، أو حجبهم ، حيث لا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ، ومن هؤلاء ـ وهم كثير ـ ساسة ومؤرخون محترفون ، وأصحـاب أقلام ، ورجـال صحافـة لهم أوزانهم .

٣ ـ وهناك جيل ثالث تقدم الى الصدارة السياسية مع الرئيس السادات ، أو تابع المسيرة جامعا بين العهدين ـ وأحيانا الثلاثة ـ ومنهم من بقي معه ، ومنهم من لم يستطع معه صبراً ، أو لم يستطع الرئيس معه صبرا .

٤ ـ وجيل رابع ارتفعت رءوسهم مع الرئيس حسني مبارك ، منهم من أخلص للتاريخ ومن كان اخلاصه للعصر الذي عاش فيه أكثر ، والمعـاصرة معرفة ، وهي أيضا حجاب ، وعين الرضـا غير عـين السخط ، وسيل كتب التاريخ يتدفق ، والمذكرات وأقلام الهواة والمحترفين وأصحاب الذكريات ،

والمدافعون عن أنفسهم ، والمهاجمون لغيرهم . . كلهم يكتبون .
الحادث الواحد تقرؤه في أكثر من كتاب فتراه - اذا جمعته - كألوان الطيف ، ولكل كاتب لون من القوس ، وسهم مندفع منه ، أو شعاع « كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » (الرعد : ١٧) .

دور الايمان :

وما زلت أذكر في حرب رمضان كيف تعددت الآراء حول دور الايمان والعقيدة في المعركة ، وكنت وقتئذ مسئولا عن القطاع الديني في مجلس الوزراء الذي شهد الحرب [١] .
ارتفعت أصوات بعض الزملاء بالدور الذي قامت به القوات المسلحة من عبور قنال السويس وتحطيم خط بارليف ، وتثبيت الأقدام المصرية في الضفة الشرقية للقنال : ارتفعوا بهذا الدور الى ما يقرب من الاعجاز والمعجزات ، وتحدث البعض عن ظاهرات - كالمطر - جاءت عونا من الله عند انقطاع مورد الماء ، ومحاصرة الجيش الثالث ، وهاجم آخرون هذا الاتجاه باعتباره إغراقاً في الغيبيات ، ودعوا الى الفكر العقلاني . ورأى أنصار الرأي في هذا جحودا .
هذا والمحاربون - وهم مادة الايمان وعدة الصمود والاقتحام - يخوضون المعركة بكل البطولة والعقل والفدائية . لا يقفون عند تحليل المحللين ، وصراع أصحاب التنظير .

---

(١) تولى الكاتب مسئولية وزارة الأوقاف ، ووزير الدولة لشئون الأزهر من ربيع ١٩٦٨ الى مطلع عام ١٩٧٢ في آخر عهد الرئيس عبد الناصر وأول عهد الرئيس السادات ، ثم عاد فحمل المسئولية نائبا لرئيس الوزراء للشئون الدينية ووزيرا للأوقاف من ربيع عام ١٩٧٣ الى ربيع ١٩٧٥ - وهي الوزارة التي شهدت حرب رمضان / اكتوبر ١٩٧٣ .

الجذور :

ولكن لكي نعرض هذا الأمر ينبغي أن نرجع الى جذوره ، والى الأيام الحزينة بعدهزيمة ١٩٦٧ ، ومهما قلنا في أسمائها : نكسة كما سميناها ، هـزيمة كما هي ، كارثة بكل المقاييس ، رغم البطولات الجزئية والفردية فيها ، فقد كانت صدعا في الحياة المصرية والعربية عامة ، وما تزال بعض آثاره باقيـة ، والشقوق التي أحدثها زلزاله ـ بطريق مباشر أو غير مباشر ـ قائمة .

وظهر الاتجاه الى دعم الايمان في بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ كركيزة ـ هو والعلم ـ في بناء الحياة الجديدة .

وتواكب هذا عالميا مع ثورات الشباب التي انطلقت من فرنسا وانتشرت في غرب أوروبا ، ومحورها اعادة النظر في إعداد الشباب للحياة الجديدة : حياة العلم والتقنيـة والابداع ، وجـذب أنظار الجـامعات من أبـراجها الى أرض الواقع ، مع مزيد من التأكيد على الجوانب التطبيقية والعملية . ومهما قلت عن أهداف التعليم ، فسيكون في مقدمتها ، كيف يستطيع الشاب أن يعيش وأن يكسب رزقـه . وليست هناك وصفـة جاهـزة . فلكل منـطقة خصـوصيتها الحضارية ، وقاعدتها التي تنطلق منها ، أضف الى هذا في مصر شعور الشباب بوجوب محاكمة المسئولين عن هذه الهزيمة ، ووجوب الاستعداد الجاد لإزالة آثار العدوان . وبهذا كانت حركة الشباب ثلاثية الأبعاد : محاكمة الماضي ، توسيع آفاق الحاضر ، التحرك نحو المستقبل بفكر جديد .

ومن طبيعة الشعوب في فترات التحدي الحضاري والمصيري ، أن تستند الى مواريثها وذخائرها . ومن وسط الأحزان ومرارة الهزيمة ، ورغم الجراح والشهداء ، انطلقت الروح الجديـدة . . . روح التحدي المـوازي للعصر ، الزاحف نحو المستقبل . هكذا تبلور الموقف بعد الهزيمة ، فما دور الدين في هذا البناء ؟ خيط واحد سنلتقطه ، وهو ليس الخيط الأوحد . وسندرس هذا الخيط

في عـامين فقط : مـا بين ١٩٦٨ ، ١٩٧٠ ، وهي الفتـرة الأخيرة من حكم الرئيس جمال عبد الناصر ، وفيها كان مطلع الاعداد للمعركة .

الايمان في الاستعداد للمعركة :

ومرجعنا في دراسة هذه الفترة بحث طويل للكاتب عنوانه : « الدعوة والمجتمع » مقدم الى المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الاسلامية بـالأزهر (ذو الحجة ١٣٨٩ هـ / مارس ١٩٧٠ م) ونشر في أعمالـه من ص ٢٥٧ الى ص ٣٣٥ .

والبحث من ثلاثة أقسام رئيسية ، أولها تجربة عملية ساهم فيها عدد كبير من العلماء والوعاظ خلال العامين السابقين لعرض الدراسة ، وهي تجربة قائمة على التخطيط العلمي والتعاون ، والثاني : نماذج من مطبوعات وبرامج اعداد الأئمة للمهام الجديدة التي تتطلبها المرحلة في هذه التجربة .

والثالث : حديث للسيد اللواء أركان حرب حسن البدري مدير أكاديمية ناصر العسكرية العليا ، عند لقائه بـالأئمة والـوعاظ في قـاعة حـراء بوزارة الأوقاف ـ مندوباً عن الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية ، وكان هذا يوم ٢٥/٦/١٩٦٩ .

ولن أقف طويلا عند البرامج ومراحلها العامة ثم التخصصية ، ولكن أقف عند نقطة أساسية ـ في هذا المقال ـ وهي عـلاقة رجـال الدين بـالقوات المسلحة وتطورها ، ودور الأئمة الشبـاب الجامعيـين في آفاق العلم واللياقة البدنية ، والالتحام بالقاعدة الشعبية ، والتمرس بالحياة العسكرية . . وأدع القول للسيد اللواء أركان حرب حسن البدري ، وحديثه يشغل الصفحـات ٣٢٥ ، ٣٣٣ من أعمال المجمع (الدورة الخامسة) وقد نشرته وزارة الأوقاف ايضا في مطبوع خاص ، وكان مما قال لرجال الدين :

« أشكر الظرف الكريم الذي أتاح لي أن أجتمع بحضراتكم ، وأحدثكم عن الدور الكبير الذي يقوم به رجال الدين في القوات المسلحة ، بهدف خلق المعنويات وتثبيت العقيدة الاسلامية في نفوس الأفراد في القوات المسلحة ، تحقيقا للنصر الذي يسعى اليه العرب باستعادة أرضهم » .

بحث أسباب النكسة :

« ما ان انتهت المعركة الخاسرة التي دارت بين العرب والصهيونية فيما بين الخامس والتاسع من يونيو ١٩٦٧ حتى سارعت أجهزة الدولة بدراسة الأسباب التي أدت اليها . . واهتم السيد رئيس الجمهورية اهتماما بالغا بتحديدها . . وشكلت لجنة من القوات المسلحة ، وكنت أحد أفراد هذه اللجنة ، وكلما بحثنا أمرا وصلنا في نهايته الى علامة استفهام وعلامة تعجب ، لقد كان لنا في الميدان ٨٠٠ دبابة من أحدث أنواع الدبابات ، وكان لنا في الميدان نيّف وألف وستمائة مدفع ، و ١٣٠ ألف مقاتل ، و ١٥٠ طائرة ، وأسطول بحري من مدمرات وغواصات وزوارق طوربيد وصواريخ . . وقامت الحرب في الخامس من يونيو في الساعة الثامنة والنصف ، وانتهى القتال في ظهر يوم التاسع من يونيو . وحاقت هزيمة كبرى بالقوات المسلحة . . هزيمة لا تتعادل مع ما كان لها من عتاد وأسلحة وذخائر ، وأفراد وقادة وأمل في النصر ، لم يكن ينقص القوات المسلحة في هذا اليوم العتاد ، ولا الذخائر ولا القادة ، ولا الأفراد ، ولا الخطط ، ولكن كانت تنقصهم الروح المعنوية » .

سلاح الدين :

« وكانت العقيدة ، عقيدة الجهاد ، لا شك أنها كانت مهزوزة ومختفية ، وكانت الماديات قد تسلطت على الفكر والعقل بما حجب السلاح الحقيقي .

السلاح الأول هو سلاح الايمان والاصرار والعقيدة ، هذا هو الدرس الأول والحقيقة الناصعة ، وعلى هذا الاقتناع بدأت القوات المسلحة من فراغ كامل تعمل لإعادة البناء ، كانت أيام جهاد وكفاح ، تزيد على كفاح المعركة ، يتقدم كبار القوم للبناء والمشاركة في اعادة القدرة للإرادة العربية ، معتمدين في ذلك على الدين وعلى العقيدة وعلى الايمان ، وكان اعتمادهم الأول عليكم أنتم رجال الدين الحنيف ، وعلى ما تسبغونه من طمأنينة ومعنويات على كافة مجالات القوات المسلحة » .

أسلحة الصهيونية في الحرب :

« أؤكد لحضراتكم أن هزيمة التاسع من يونية ليس مرجعها أبدا الى قدرات خارقة للعدو ، ولا الى قصور مادي في القوات المسلحة العربية ، ولكن كانت الهزيمة من انصراف المسلمين عن المعنويات وتحولهم الى الماديات ، وكان النصر الاسرائيلي مرتكزا على بغضاء وحقد وتفرقة عنصرية ، وأكاذيب عملت لها قيادة الصهيونية العالمية ، وجهازها التنفيذي الممثل في الحكومة الاسرائيلية ، وركزت في العشر سنوات السابقة للعدوان ، على شحن نفوس الاسرائيليين بالخوف والرعب والحقد على الانسانية وعلى العرب خصوصا ، وعلى المسلمين على الأخص ، ووصلوا في هذا الحد الى أنهم ذهبوا في اواخر مايو ١٩٦٧ الى الساحل الشمالي للبحر المتوسط في اليونان وايطاليا وفرنسا ، واستأجروا منازل في الأماكن والموانيء المطلة على البحر في اوروبا ، وأشاعوا انهم يجهزون هذه المنازل ، لأن العرب سيقتلون اليهود ، ويلقون بهم في البحر .

وأقنعوا اليهود أنهم يحاربون حرب اليائس ، « إما أن تقاتل وإما أن تذبح أنت وأهلك ويلقى بكم في البحر » .

أما نحن العرب فقد ذهبنا الى الميدان ونحن لا نعلم لماذا نذهب ، وأمرنا

أن نعود ونحن لا نعلم لماذا عدنا ، فكان أن وقعت الهزيمة ، ودمر فيها ٨٠٪ من جند العرب ، وتعثرت المعنويات تعثرا بالغا ، وهنا كانت الطامة الكبرى » .

تصحيح الصورة

« ثم نهض رجال أخيار من العرب ، ودرسوا السبب ، ووفقهم الله الى الحقيقة ، وعلموا أن الأمر كان ضعفا في الايمان والمعنويات ، فسارعت وزارة الحربية تنشد العون من مكان العون ، ولم يكن هناك أفضل ولا أقرب من وزارة الأوقاف ، ومن رجال الأزهر ، وعلماء الدين الذين هبوا سراعا للمساعدة ، وفي زمن لا يتجاوز الستة أشهر حدث تغيير كبير في الصورة ، وتحققت انجازات رائعة تبلغ حد الاعجاز » .

تحويل ميزان القوة العسكرية

« بعد التاسع من يونيو عادت القوات المسلحة من مسرح سيناء فلولا وشراذم ، فاقدة السلاح ، منهارة المعنويات . . ثم لا يمضي شهر واحد حتى نرى معارك رأس العش ومعارك القنطرة شرق ، ويذهل العالم ويعجب الاسرائيليون ، ثم تمضي أشهر قليلة ، واذا السلاح البحري العربي يغرق فخر القطع البحرية الاسرائيلية يوم ٢١ اكتوبر ١٩٦٧ وتهتز معنويات الاسرائيليين » .

من الدفاع السلبي الى الدفاع الايجابي :

« ثم تتحول القوات من الدفاع السلبي الى الدفاع الايجابي ثم الى الردع ، وفي مطلع مارس ١٩٦٩ تبدأ تراشقات المدفعية وتحطيم خطوط الدفاع الاسرائيلية ، ثم يذيع العدو ان ثمة قوات عربية تخترق دفاعاته في سيناء وتصل

الى أعماقها ، ثم تعود الدوريات بالأسرى الاسرائيلين والمعدات الاسرائيلية التي تنشر صورها في العالم . .

ونتابع ما يقوله العدو والصديق . كيف تمكن هؤلاء الرجال، أن يستعيدوا الثقة ؟

ان الاعتراف بالفضل لأهله يلزم القوات المسلحة أن توضح لكم انها ليست قطع الحديد الصامتة التي تأتي الى الجندي ، وليست أجهزة التدمير التي يتسلح بها ، هي التي مكنت هذا الجندي أن ينجز ما أنجز ، ولكن الكلمة والاشعاعة والعاطفة التي تخاطب قلبه ، وتدخل عقله ، هي التي وفرت الأساس الصحيح لهذا الجندي ليقاتل ويرابط وينجز الواجب » .

رجال الدين في الخطوط الأمامية

« القوات المسلحة تطمئن كثيرا على وجودكم بين صفوفهم ، وتتشرف وتسعد بأن تلقاكم في الخطوط الأمامية في مواجهة العدو ، وتزداد يقينا بفائدة هذا الالتحام القتالي الديني ، وتشاهد آثاره الطيبة في كل يوم ، السادة الوعاظ الذين اندمجوا في المجتمع العسكري اندماجا كاملا : ارتدوا رداءه ، وعملوا بأساليبه ، وشاركوا افراده في المعركة :

ـ ذلك الواعظ المؤمن العامل الذي شارك في نقل الذخيرة بنفسه في أحد المواقع ، في أثناء التراشق الأخيرة ، عندما حدثت بعض الخسائر في الجنود ، الذين يمدون المدفع بالذخيرة .

ـ ذلك الواعظ الذي وقف أمام غرفة الغاز فلمس من الجنود خشية الدخول لأول مرة ، فما كان منه الا ان تقدم الجنود ودخل الغرفة أمامهم ليثبت لهم ان ذلك أمر لا بد منه ، فدخل الجنود وراءه مطمئنين .

ـ ذلك الواعظ الذي وقف في منتصف الليل منذ أيام قليلة على الخندق الأول على الضفة الغربية للقنال ، وتحدث مع دورية كلفت بمهمة بالغة الخطر ،

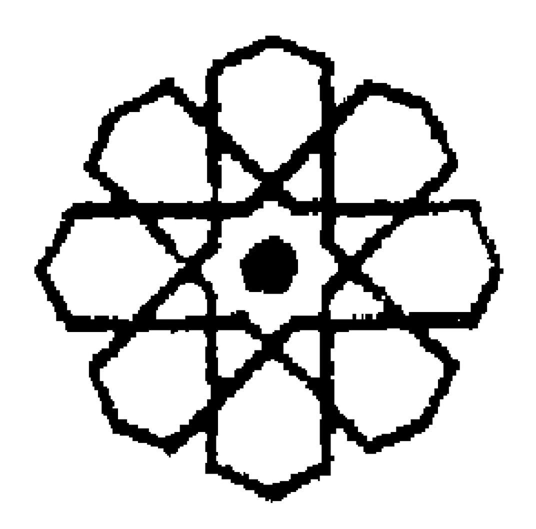
بينما كان صوته اشبه بقبس من نور الله . . يذكرهم بالواجب ، ثم يتحول الى القائد ويطلب منه ان يدخل معهم ويشاركهم شرف الجهاد ، هل هناك اعظم من هذا ؟

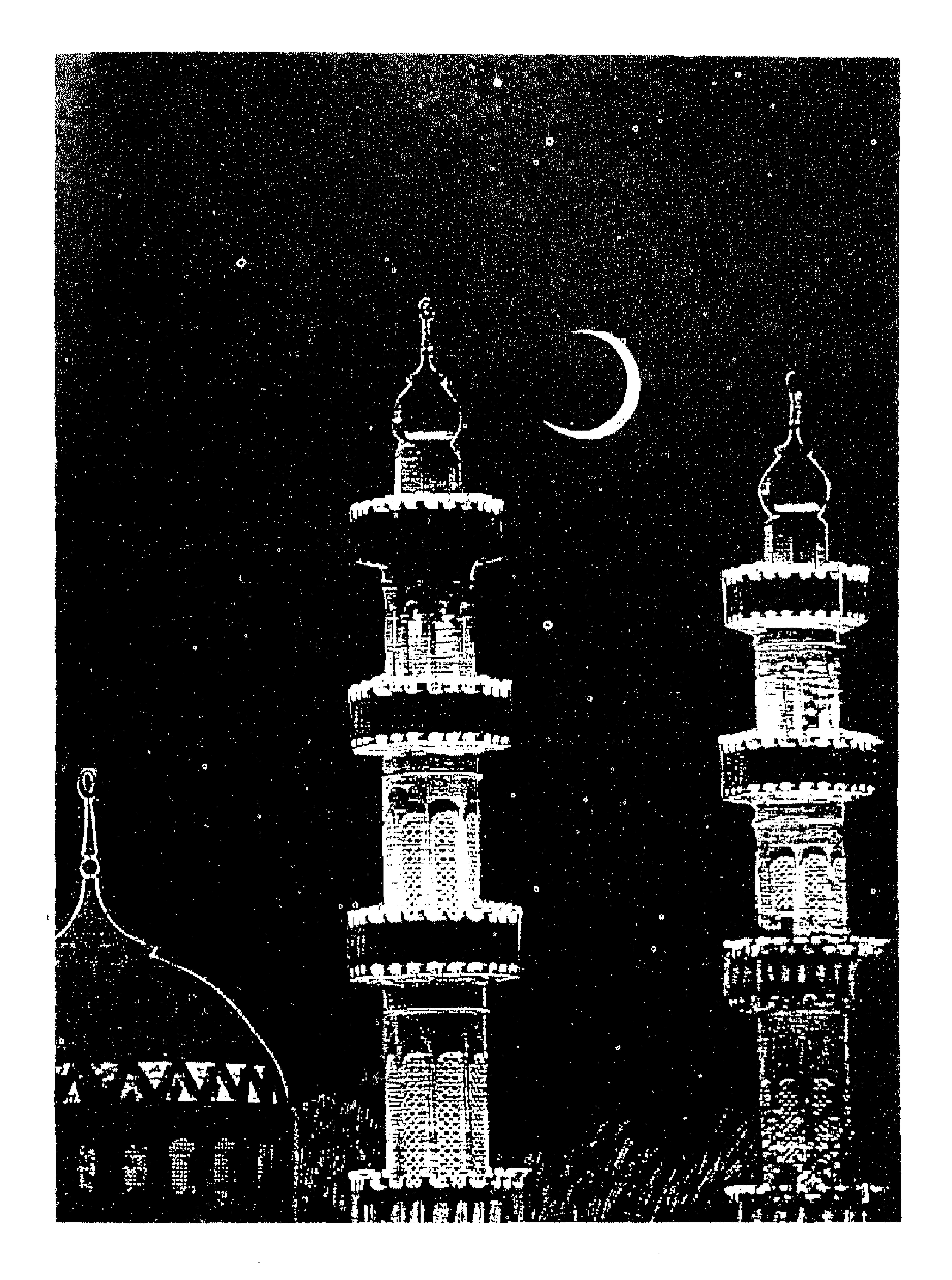
ان القوات المسلحة ترجو أن يزداد عدد الوعاظ لثقتها في فاعلية التوعية الدينية في كل أجزاء البنيان العسكري .

المعركة القادمة قوامها ركنان أساسيان : الركن المادي والركن المعنوي ، والقوات المسلحة لا تفصل بينهما : الركن المادي يستند الى حديد مطلق ، والمعنوي يسند الى ايمان وعقيدة . بهذا المفهوم تشكر القوات المسلحة كل من عمل على اعادة بناء معنوياتها » .

وبعد ، فأقف عند هذا العرض في حدوده التاريخية والموضوعية . انه ينبوع من الايمان في أرض المعركة . .

تدفق فيها مع ينابيع قوة أخرى ، لتصنع النصر . وفي ذلك تبصرة وذكرى ، وعون على العرض المتوازن .





أبناؤنا في رمضان

رمضان يتقرب الى أبنائنا قبل أن يتقربوا اليه . ويأتي ومعه الهدايا دون أن يسألهم شيئا .

وهو الشهر الوحيد الذي جاء اسمه صريحا في القرآن كأنه يوسف بين إخوته .

حين تثبت رؤية الهلال يتبدل في العالم الاسلامي نظام الحياة اليومية ، في فرحة تضيء بها الوجوه والمآذن . وتشرق آفاق من الحب والسخاء وصلة الأرحام .

رؤية الهلال . . . والوجه الآخر

ومع هذه الفرحة ، من حق أبنائنا ومن حقنا معهم أن نتوقف عند مشكلة تقابل العالم الاسلامي كل عام ، وهي الاختلاف في بدء شهر الصوم . ذلك الشهر الداعي الى الوحدة في العبادة ، وهي التي نراها في الصلاة كما نراها في الحج .

العربي العدد ٣٥٣ ابريل - نيسان ١٩٨٨ م

إن رمضان يتبع التقويم القمري ، والنظام الإداري والعلمي في أكثر أقطار الاسلام يتبع التقويم الشمسي . والشمس والقمر آيتان من آيات الله ، جعلهما لنعلم بهما عدد السنين والحساب . وبهذا يدور رمضان مع التقويم الشمسي ، فيأتي في الصيف أو في الشتاء . وإن أكثر أرض الاسلام في المنطقتين الحارة والمعتدلة ، ولها امتدادها الحديث الى العروض الباردة ، وقد قاربت بعض الجاليات الاسلامية الدائرة القطبية . وأدى هذا إلى ظهور قضايا لايصح أن تترك لاجتهادات فردية أو محلية .

إن العالم أصبح الآن مدينة واحدة كبيرة . وقضى التقدم العلمي على الاحساس بالمسافات . وأمامنا اقتراحان عمليان لتوحيد بدء الصيام في العالم الاسلامي :

الأول : أن نتفق على اعتبار مطلع مكة هو مطلع الهلال . فمع كروية الارض لابد أن تتعدد المطالع . ولنعامل الصوم كما نعامل الحج . يقول الله تعالى « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » (البقرة : ١٨٩) . ولا يمكن أن يجادل مسلم في اتخاذ مكة مطلعا موحدا للعالم الاسلامي .

الثاني : مع التقدم الهائل في علم الفلك وعلوم الفضاء الخارجي لم يعد الحساب الفلكي محل شك . ونحن عمليا نسير عليه في بقية ايام رمضان بعد ثبوت الرؤية ، ونتبعه امساكا وصلاة وفطرا ، فلماذا يبقى هلال رمضان وحده بعيدا عن دائرة الحساب الفلكي ؟ هذه الامساكيات أو الروزنامات التي نسير على هداها كلها تتبع الحساب الفلكي . ألا نرى في هذا تناقضا استمر في حياتنا حتى أصبح عادة لها احتفالاتها واتصالاتها ـ وأحيانا ـ محاولات التوفيق فيها ؟ ! .

وأبناؤنا يعرفون الكثير عن التقدم العلمي المعاصر من مدارسهم وصحافتهم وأجهزة الاعلام ، ويعجبون ـ ونعجب معهم ـ في أمر هذه القضية المتجددة .

لو اتفقنا على إقامة مرصد رئيسي في مكة ، فيه رجال فلك ورجال شريعة ، وأصدرنا « تقويم مكة » لكانت هذه خطوة جليلة نقدمها الى الأجيال المقبلة .

عمليا : سيكون هناك أقطار لاترى الهلال وتصوم . والعكس قد يحدث .

ولكن توحيد المطلع واتخاذ الحساب الفلكي الدقيق فيه ، هو الطريق الأمثل - هل أقول الوحيد - الى وحدة العالم الاسلامي في شهر الصيام وفي الحج معا ، وهما أهم شعيرتين تقتضيان رؤية الهلال وتحديد أول الشهر .

وعندما يطول نهار رمضان

وفي المنطقة الحارة لايزيد الفرق بينهما عن أربع ساعات ، ثم يزداد في المناطق المعتدلة الدفيئة ، ويتسع الفرق في المناطق المعتدلة الباردة حتى يصل الى عروض يزيد فيها طول النهار عن عشرين ساعة .

ولفقهائنا في هذا أكثر من رأي . وان الامر يحتاج الى لقاء عالمي بين علماء الاسلام . علماء يمثلون هذه المناطق جميعا ، ويبحثون مشكلاتها وعلاقة الصوم بالحياة اليومية ، ودورة العمل والنظام الدراسي والامتحانات . والله تبارك وتعالى يقول في كتابه وسط آيات الصوم « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (البقرة : ١٨٥) .

ونحن في المناطق المعتدلة نقابل أمر الصيام وقت أداء الامتحانات . وفي الابناء حب لأداء الفريضة . وحب للتفوق الدراسي . فما دور الدولة في تنظيم ذلك ؟ هذا بالاضافة إلى مشكلات الاقطار الشمالية والجنوبية الباردة .

صورة واقعية

ومازلت أذكر مؤتمرا إسلاميا في أواخر الستينيات شهدته في مدينة كوالالمبور عاصمة ماليزيا بدعوة من حكومتها . وكان هذا المؤتمر - عمليا - تمهيدا طيبا لقيام منظمة المؤتمر الإسلامي التي عقدت اجتماعها الأول في الرباط بعد حريق المسجد الاقصى عام ١٩٦٩ م .

كانت قضية القدس الشريف وفلسطين في مقدمة جدول الاعمال ، وكنا وفودا من أكثر من عشرين دولة اسلامية . وفي الجدول موضوع رؤية الهلال وموضوعات أخرى .

وفي سهولة ويسر اقترح أحد الحاضرين إعلان الجهاد المقدس في أمر القدس وفلسطين . ووافق الحاضرون بالاجماع . ثم جاء موضوع رؤية الهلال فاختلفوا ، وما زالوا مختلفين . ودعا رئيس وزراء الدولة المضيفة رؤساء الوفود الى اجتماع خاص . وكان مما قاله بكل الوضوح :

ـ إنكم تجمعون على اعلان الجهاد المقدس . فهل أنتم رؤساء دول حتى تتخذوا هذا القرار ؟ إن الجهاد المقدس هو ذروة الاسلام . وهو قرار استراتيجي كبير يقتضي حشد كل طاقات العالم الاسلامي وتوجيهها الى هدف محدد ، وتنسيق العلاقات بين الدول . أتدرون لماذا اتخذتم قرارا اجماعيا ؟ الحق أقول لكم : إنكم اتخذتموه لأنكم لن تنفذوه . واختلفتم في رؤية الهلال لانكم ستصومون . فأنتم اتفقتم على مالا تعملون ، واختلفتم فيما تعملون .. لكل منكم رأي لايود التنازل عنه . منكم من يأخذ بالحساب الفلكي وقد أعلن ذلك . ومنكم من يتمسك بالرؤية النظرية .

ثم تابع الرئيس قوله :

ـ أود أن أنقل لكم ما يقوله إخوانكم في ديارنا ، وما سمعته في الأقطار النائية . إن إخواننا في كثير من الاقطار العربية يفكرون بعقلية صحراوية . السماء فوقهم صافية أكثر أيام السنة . ومن اليسير على صاحب النظر « الحديد » منهم أن يرى الهلال بالعين المجردة . ونحن في ديار لانكاد نرى فيها السماء الا قليلا . ويسقط المطر أكثر ايام السنة . وليس أمامنا الاسؤال الجيران أو الأخذ بالحساب الفلكي . والاسلام جاء عالميا . والعلم من صفات الله تعالى ، ومما دعانا الى طلبه والاجتهاد فيه . فلماذا لا نوحد المطلع ونأخذ بالحساب الفلكي ؟

ثم هناك أقليات إسلامية تعيش في دول أكثر أهلها من غير المسلمين : وضرب لنا مثلا من سريلانكا ، حيث يقل المسلمون عن عشر السكان .

وكذلك الجاليات الاسلامية الجديدة في العالم الجديد وأوروبا واستراليا ونيوزيلندة . يسألهم رؤساؤهم عن موعد العيد لتنظيم دورة العمل ، وإعطائهم فرصة لصلاة العيد وعطلته . فيقول المسلمون : حتى ترى الهلال . ويعجب الرؤساء من طريقتنا في مقابلة مشكلاتنا ، ونحن في عصر العلم والتقنيات وغزو الفضاء . ولكم أن تتصوروا الحرج الذي يعيش فيه اخوانكم .

ورغم هذه الدعوة الحارة المخلصة ، لم يتفق قومنا على كلمة سواء في أمر الصيام ورؤية الهلال .

فهل نستطيع الالتقاء ، ليكون هذا هدية من علمائنا الى أبنائنا ؟

أحكام صيام الأبناء

ولنا في هذا كلمتان : الاولى لغوية والثانية فقهية .

الصوم في اللغة هو الامساك . قال تعالى عن مريم « إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا » (مريم : ٢٦) والصوم هنا الصمت ، لأنه إمساك عن الكلام . ويصفون به الخيل لو كانت صامتة .

بقول الشاعر :

خيل صيام وخيل غير صائمة
تحت العجاج وأخرىْ تعلك اللُجما

(والصائمة الممسكة عن الصهيل)

والصوم شرعا الامساك عن أشياء مخصوصة في أوقات مخصوصة . وصوم رمضان فرض في الكتاب والسنة والاجماع .

ونقرأ في الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة (ت ٦٨٢ هـ) : « ولا يجب الصوم الا على المسلم البالغ العاقل القادر على الصوم . ولا يجب على كافرولا مجنون ولا صبي . فأما الصبي العاقل الذى يطيق الصوم فيصح

منه ، ولا يجب عليه حتى يبلغ . وكذلك الجارية » . نص عليه أحمد بن حنبل (رضي الله عنه) وهذا قول أكثر أهل العلم . وذهب بعض أصحابه إلى أنه يجب على الغلام الذي يطيقه إذا بلغ عشرا ، يقول ابن قدامة « ويمكن حمله (أي القول بالوجوب) على الاستحباب » ،وسماه « واجبا تأكيدا » (٣ : ١٣) ، ويأمر الولي الصبي بالصيام إذا أطاقه ليتمرن عليه ويعتاده كالصلاة (٣ : ١٤) واعتبار الصوم بالصلاة أحسن لقرب إحداهما من الأخرى في كونهما عبادتين بدنيتين من أركان الاسلام ، إلا أن الصوم أشق ، فاعتبرت له الطاقة ، لأنه قد يطيق الصلاة من لايطيق الصوم (٣ : ١٤) .

وأنت ترى في هذا درجات من التحمل والارادة ، وأسلوبا في التربية بالحرمان الى حين . حرمان مما أحل الله وبأمره ، ليس فيه على الانسان رقيب الا الله .

وتستطيع أن تأمر الصبي بالصلاة ، وترقبه حتى يصلي ، فإذا فرغ انصرف الى شئونه من مذاكرة أو عمل أو ترويح . أما الصوم فلا تستطيع أن ترقبه فيه طول نهاره . فالصوم عبادة متصلة تقوم على الرقابة الذاتية واحترام النفس والوعد أمام الله تعالى . وفي هذا ينفرد عن العبادات جميعا ، وتأتي منزلته التي نقرؤها في الحديث الشريف « كل عمل ابن آدم يضاعف . الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف . قال الله تعالى : الا الصوم فإنه لي وأنا أجزى به . يدع شهوته وطعامه من أجلي . للصائم فرحتان : فرحة عند فطوره ، وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فيه (أي رائحة فمه) أطيب عند الله من ريح المسك . » (رواه الستة عن أبي هريرة) .

فرحتـــــان

وفرحة الفطر ليست ذاتية فقط ، وإنما تمتد الى المشاركة في إعداد الطعام وتيسيره لأهل البيت وضيوفه والعابرين . وللأبناء في هذا نصيب . وما زالت بعض أقطار الاسلام تحافظ على تقاليد كريمة ـ وبخاصة في الريف وعلى مواقع السفر والرحلة ـ فمنهم من يمد المائدة في رحبة أمام بيته ، فلا يحتاج

العابر الى استئذان في دخول . ومنهم من يجعل لدار الضيافة بابا مفتوحا على الطريق . وللأبناء في اكرام الضيوف تسابق . ولو تأملنا لفظ « حفيد » وهو ابن الابن ، رأيناه يحمل معنى المسارعة الى عمل شيء . وفي الدعاء « وإليك نسعى ونحفد » والحفدة أيضا من يقومون بالخدمة . وفي هذا يبدو الترابط اللغوي والاجتماعي ـ قل والانساني ـ بين الأبناء والتعود على المسارعة الى عمل الخير ، وله في رمضان مجالات واسعة . وتبلغ هذه الفرحة مداها مع نهاية الشهر المبارك ، والمشاركة في توزيع زكاة الفطر قبل صلاة العيد .

وفي حديثين رواهما الامام مسلم عن عبد الله بن عمر نقرأ :

١ ـ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باخراج زكاة الفطر ، أن تؤدى قبل خروج الناس الى الصلاة .

٢ ـ أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس : صاعا من تمر ، أو صاعا من شعير ، على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين .

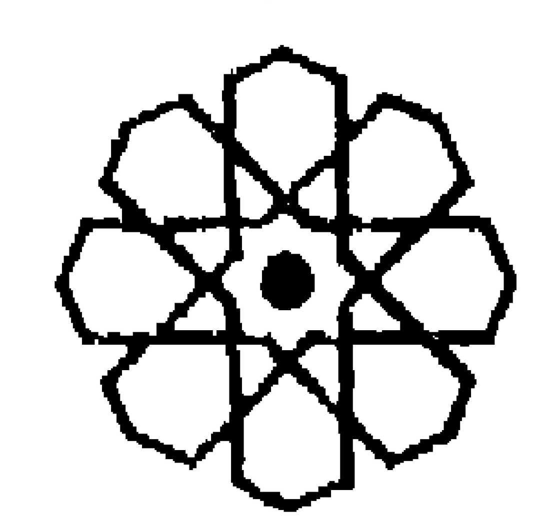
ويعادل الصاع نحو أربعة كيلوجرامات مع جبر الوزن ، ودفع القيمة أفضل من دفع العين . وفي هذا تفصيل يمكن الرجوع اليه في كتب الفقه .

والذي يعنينا هنا بالنسبة لأبنائنا ، أنهم يشعرون مع رمضان ، ومن طفولتهم ، بالإخاء الاسلامي والمشاركة والتكافل . يدفع الآباء زكاة الفطر عنهم وهم صغار ، فإذا بلغوا السعي دفعوا عن أنفسهم ، واذا كوّنوا أسرا دفعوا عن أهلهم .

أما الفرحة الثانية فهي عند لقاء الله . وكل انسان مهما طالت حياته فسيودعها يوما . ولكل انسان ثلاثة أصدقاء : المال والأهل والعمل الصالح .

أما الأول فيظل في داره ولا يخرج لوداعه . واما الأهل فيشيعونه الى قبره ثم ينصرفون . وأما العمل الصالح فهو الرفيق الذي لا يتخلى عن صاحبه « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (الأنبياء : ٤٧) .

هناك حيث البقاء ، وحيث يموت الموت ، وحيث الخلود في دار الخلود .



المنبر والزهر والصخر

يستوقف نظري مدخل قطاع من شبابنا إلى الاسلام . وحين أقول شبابنا ، لاأقصد فقط جمهور المترددين على المساجد ، والمتابعين للبرامج الدينية في أجهزة الاعلام المقروءة والمسموعة والمنظورة ، والانتاج الثقافي الاسلامي ، وإنما أقصد أيضا قطاعا غير قليل من الدعاة الى الله ، الذين اندفعوا في خطوط فكرية حصروا فيها أنفسهم .

المنبر والزهر

وأود أن أذكر مثالا له نظائر كثيرة . وقبل هذا المثال ، أؤكد أن الأمثلة الفردية لاتصلح أن تكون قواعد عامة . ولكن هذا المثال القريب نموذج لاتجاه لمسته بنفسي في أكثر من قطر إسلامي ، وتابعت محاولات تعديله من مواقع المسئولية التنفيذية ، ومن خلال أجهزة الاعلام .

فمن قريب كنت أؤدي صلاة الجمعة في مسجد كبير ، وكانت خطبة الامام

العربي العدد ٢٨٢ مايو - أيار ١٩٨٢ م .

عن الاسراء والمعراج . عرض ما لقيه الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم في مكة من أذى وعنت ، ذكر الحصار الاقتصادي في شعب بني هاشم . وذكر عام الحزن ووفاة خديجة وأبي طالب ، وذهاب الرسول إلى الطائف وما لقيه من صدود وجحود . . ويأتي الاسراء والمعراج يمسح عن قلب الرسول ألما ، ويستضيفه الرحمن الرحيم في السموات العلا . . ووقف الامام عند فرض الصلاة وإنها صلة بين العبد ومولاه . هي معراج الأرواح ومسراها ، وكنت من قلبي أدعو الله له وهو يحبب الصلاة إلى الناس . وهي عروة الاسلام الوثقى ونقطة الانطلاق إلى كل الخير ، وقرة عين المصطفى عليه الصلاة والسلام .

كانت الخطبة الأولى باقة زهر فواحة الأريج ، وهدية المنبر إلى الناس ، ومضت الخطبة بكل هذا التوفيق .

ثم جاء الصخر !

وما أن بدأت الخطبة الثانية . حتى كأني أرى على المنبر خطيبا آخر . . بدأ يختفي الوجه السمح ، ويرتفع الصوت . تدافعت العبارات كأنها صخور منحدرة في سيل جامح : أيها الناس ماذا بقي بين أيديكم من دينكم ؟ لم تبق إلا الصلاة ، وقد ضيعها كثيرون . وهي آخر ما تفقدون . أين الاسلام ؟ أين شعائره ؟ أين أحكامه . ومحاكمكم لاتحكم بما أنزل الله . أجهزة اعلامكم تبعدكم عن طريق الله . الاذاعة أذى ، التلفزيون تلف ، ترك الشباب بيوت الله إلى ملاعب الكرة . كان آباؤكم يعرفون أسماء المجاهدين ، فأصبح أبناؤكم يعرفون أسماء اللاعبين .

وتحول الجو الصافي في خطبته الأولى إلى غبار تضيق به الصدور .

لم أكن أستطيع تبين ملامح كثير من الوجوه . فنحن في المسجد صفوف صلاة . ومن السنة الجلوس في سكينة ووقار ، دون تلفت أو حديث . كلنا إلى القبلة نتجه ، وفي حضرة الخطيب نستمع دون أن يكون من حقنا أن نبدى أي اعتراض .

شريط من الخير

كان يخطب وفي ذهني شريط آخر يدور :
ألا يصلي الناس ؟ ألا يحجون ؟ ألا يزكون ؟ ألا يتراحمون ؟ وهؤلاء الذين حولي في بيت الله ، وقد صحب الوالد ولده ، والصديق صديقه ، وجاء الشيخ الكبير يحمل على كتفيه أثقال السنين ، وهذا الشاب المتفتح للحياة والأمن والمستقبل ، وهذا الصغير بملابسه الجديدة وفرحته الوليدة ، يتلفت حوله فرحا بهذا الجمع الكبير . تجربة جديدة هو بها سعيد . ووالده إلى جواره في هدوء يربت على ظهره ليستقر . وهو في قلقه الفرح ونظراته السريعة ، كأنه طائر على غصن رطيب في الصباح ، ثم تجمد البسمة على شفتيه ، عندما يندفع الامام في عنف الخطاب ، وينكمش إلى جوار أبيه يحتمي به من غضب يحس به ولا يدري له سببا .

ذكرت جهودا تبذل في أرض الاسلام ، نرجو لها المزيد ، ودوائر من الخير تتسع . جاليات جديدة ، مؤلفات ، وسائل اعلام ، أجيال جديدة في الشباب تجمع بين أصالة الاسلام وتفتح الحياة من حولها .

كنت أسمع الخطيب ، وشريط الخير يمر في ذهني ، كأن اذاعتين تداخلتا .

ذكرت في جلستي كيف تطور العمل الاسلامي وانتقل من التعميم الى التخصيص . جيل جديد من أبنائنا تركوا الحديث في عموميات العمل الاسلامي إلى خصوصياته : كيف يرقى التعليم ؟ كيف يتطور ليكون أكثر ملاءمة للحياة المعاصرة ، والمستقبل الذي ينتظر أبناءنا ؟ في أكثر من مرفق من مرافق حياتنا صاغوا قواعد الاسلام ومبادئه ، قوانين صالحة للتطبيق . أكثر من تجربة في مجال الاقتصاد الاسلامي . بعضها صادفه النجاح وبعضها فشل . والتجربة والخطأ وجهان لأي تطور .

وهذا الوعي الدائم والمتجدد بقضايانا المصيرية ، على الرغم من الضغوط والمؤامرات العالمية ، أليس دليل خير ؟ .

واستعيد ما بين المسلمين من صراعات لن يستفيد منها إلا تجار الأسلحة

والحروب صانعو ومستوردو مواد الانشاءات التي تهدمها الحروب . وهذا النزيف من ثروات المسلمين ، والقاتل والمقتول كلاهما مسلم . ورصيدهم ـ جميعا ـ في تناقص . وثرواتهم تتحول إلى أرصدة الآخرين ، وأسائل نفسي قائلا :

ـ وسط العاصفة يحتاج الربان إلى الأعصاب الهادئة والرؤية الواضحة ، أيها الصديق الامام ، أيها الخطيب والواعظ : كن عونا وأخا ، ولا تكن قاضيا أو شريكا في تعذيب اخوانك ، يكفيك التذكير ، والذكرى تنفع المؤمنين .

وأقيمت الصلاة ، ودعوت الله أن يلهمنا الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد

لاأريد أن أعاتب الخطيب على منهجه . فلو فعلت ، لوقعت فيما أنهاه عنه . ولكن كيف السبيل إلى الارتقاء بمستوى الخطبة والعظة ؟

وساءلت نفسي :

. ترى لو كانت الرؤية أمامه أكثر وضوحا ، لابتغى اليها سبيلا ؟ فما أبعاد هذه الرؤية التي يتفجر بها الماء من الحجارة ، وينبت الزهر وسط صخور الحياة ، ويكون في طريق العاملين روحا وريحانا وعونا ؟

مكتبة الامام

شيء من هذا تعاونت فيه مع اخواني في وزارة الأوقاف بالقاهرة منذ أواخر الستينيات ، ومع احتفالنا بمرور أربعة عشر قرنا على بدء نزول القرآن الكريم .

كانت الفكرة تعاونية :

أن يقوم نفر من الأئمة ، يتوفر لهم المكان والوقت والتفرغ والمراجع المتجددة ، ليضعوا بين يدي اخوانهم المادة العلمية التي يمكن الاستناد اليها في اعداد عظات الجمعة ودروس الدعوة .

المراجع الأصلية موجودة : من كتب التفسير والحديث الشريف والفقه والتشريع والتاريخ والأخلاق والحضارة الاسلامية .

ولكن تأتي ضرورة إطلاع الأئمة على التطورات الجديدة في العالم الاسلامي ، وجهود اخوانهم في المناطق البعيدة عنهم : ماذا يعرف الإمام في عاصمة من عواصم الشرق الأوسط عن الجهود الدائبة لاخوانه في كندا أو في الولايات المتحدة ، أو أمريكا اللاتينية ؟ وأحيانا تصنع اللغة حاجزا . وعلينا أن نشق هذا الحاجز . ثم ما جهود اخوانه في يوغسلافيا مثلا ؟ وفي الشرق الأقصى ؟

نعم : هناك جهود تقوم بها جامعات اسلامية للتعريف بالأقليات الاسلامية ومعاهد متخصصة في ذلك . وهي جهود مذكورة ومشكورة . ولكن الهدف الذي أتوخاه أن تكون تجارب إخوانه في نشر الدعوة ميسرة بين يديه . أن يكون لدينا « مختار » يعرض جهود إخوانه ، ويستطيع هو إن قام بتجربة ناجحة أن يرسلها إليه ليطلع اخوانه عليها ، أن يكون هناك حوار مستمر وخصب بين الدعاة ومن الممكن ـ ابتداءً ـ أن تقوم إحدى مجلاتنا المعنية بالشؤون الاسلامية العالمية بدور « الوسيط » بين علماء الدين . أن تكون هي « المنبر » الذي تلقى عنده التجارب ، ويعين على رؤية أكثر وضوحا .

بل نستطيع أن نفيد من تجارب غيرنا من الأديان في قضايا ربط الدين بالحياة ، وابراز المضمون الاجتماعي والاقتصادي للدين ، وبيان المادة العلمية للقضايا الحيوية في العالم الاسلامي ، والرد على الشبهات ، أو طلب الرد على الشبهات ، بحيث تصبح المجلة نوعا من « غرفة عمليات » للدعوة الاسلامية ، تتلقى التجارب والمشكلات . تنشر منها ما يعين على الارتفاع بمستوى العظات ، وتحيل المشكلات على مختصين ـ أكثر من واحد ـ ليبدي كل منهم وجهة نظره فيزداد الحوار خصوبة ، والاعصاب هدوءا ، والتناول موضوعية ، والاهداف وضوحا .

وقد يحتاج إلى تحليل التجارب :

أن يتناول الكاتب موضوعا واحدا ويعرضه بأكثر من طريقة ، ويبين مزايا كل منها وأهدافها . وفي تعدد زوايا الرؤية ما يعين على مزيد من الوضوح . ولنذكر مقالا موجزا من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام .

١ ـ أحيانا يأتي التركيز على الجانب المعجز منها : الغار . الحمامة والعنكبوت . الغصن المتدلي . وهذه الثلاثة كانت حماية إلهية للغار الذي أوى إليه الرسول وأبو بكر . ومن قبل هذا كيف خرج الرسول والقوم نيام ومهمتهم الحراسة . وفي الطريق الى المدينة كيف ساخت قوائم فرس سراقة بن مالك . كيف بارك الله في شاة أم معبد العجفاء ، فدر لبنها بما يكفي الرسول ومن معه ، وأصحاب الشاة جميعا .

٢ ـ وأحيانا يأتي التركيز على الجانب التخطيطي فيها ، والجهد البشري : كتقسيم المسئوليات على الافراد المشاركين فيها ، دور علي بن أبي طالب في المبيت في فراش الرسول ، وبقاؤه ليرد الودائع .

دور عبد الله بن أبي بكر في جمع الأخبار من قريش ليحملها إلى الرسول ﷺ .

دور عامر بن فهيرة في مروره بأغنامه على آثار أسماء وعبد الله ، ورواحه إلى الغار ليسقي الرسول وصاحبه . دور عبد الله بن أريقط في حفظ الرواحل ثم قيامه بمهمة الدليل من مكة إلى المدينة .

هنا يبرز عنصر التخطيط وتقسيم الاعمال وحتى الاستعانة بغير المسلم إذا كان محل ثقة . فعبد الله بن أريقط لم يكن يومئذ قد أسلم .

٣ ـ وأحيانا يأتي التركيز على اختيار « المكان » وعلاقته بمكة . وصلاحيته كقاعدة للانطلاق . وهنا نفرق بين هجرة الايواء في الحبشة ، وهجرة الانطلاق في المدينة . وكيف أن الهجرة كانت « عربية » المصدر والهدف ، وان بيئة الجزيرة العربية بعامة والحجاز بخاصة كانت وقتئذ أنسب البيئات ليظهر فيها الدين الجديد : فهي منطقة محايدة بعيدة عن نفوذ الروم والفرس مما يجعل من السهل ـ نسبيا ـ عليهما قبول الدين من هذه الأرض البيضاء ، فلا ترى الروم فيه هزيمة أمام الفرس . ولا ترى الفرس فيه هزيمة أمام الروم ، وكانتا القوتين المتنافستين وقتئذ على السيادة . ولما « هاجرت » قاعدة الاسلام من مكة

إلى المدينة ثم استقرت فيها حتى عام ٣٥ هـ . « هاجرت » منها مرة ثانية الى الكوفة ، ثم إلى دمشق ، وبغداد وغيرها من العواصم ، وبقيت للجزيرة العربية مكانتها كمهد ومنطلق للاسلام ومهوى أفئدة المسلمين دون أن تعود اليها عاصمته السياسية الكبرى ، ثم جاء عهد التعاون بين عواصم متعددة .

زوايا كثيرة يمكن أن تدرس بها الهجرة ، يمكن عرضها وعرض أهدافها ، ونختار من الأهداف ما هو أنسب لظروفنا الحالية .

ونحن في حاجة إلى تأكيد التخطيط العلمي في ظل الإيمان . نؤمن بالمعجزة ، ونؤمن أنها لاتعود ، ولكن التخطيط مستمر ، والايمان مستمر ، وصدق رسول الله اذ يقول في حديث شريف رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهما :

« ما من نبي الا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إليَّ به فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

مضى عهد الآيات الكونية والمعجزات . القرآن هو المعجزة الباقية . القرآن وحي يدعو إلى العلم والتخطيط . هو هدية الله وهدايته الى الناس جميعا ، هو فوق مستوى العنصرية والعصبيات الضيقة .

الدين والحياة

ومهما كانت زوايا الرؤية لأي تجربة يعرضها الإمام أو الخطيب ، فإنها تبدأ أساسا بالمعرفة الصحيحة ، وهو ما حاولته تجربة « مكتبة الإمام » في سلسلة عنوانها « الدين والحياة » يقوم بإعدادها نفر من الأئمة ، يختارون في كل نشرة موضوعا واحدا ، (كمثال الحرب النفسية) يذكرون ما يرتبط به من الآيات الكريمة مع ذكر رقم الآية واسم السورة والأحاديث الشريفة ، مع تخريجها وأقوال الأئمة ، ونصوصا من التاريخ ، واقتباسات أدبية ، ونصوصا لكتاب معاصرين من مختلف الثقافات ، والأساس في كل هذه النقول أن تكون واضحة المصادر ، بحيث يستطيع الامام إذا أراد الاستزادة أن يرجع الى

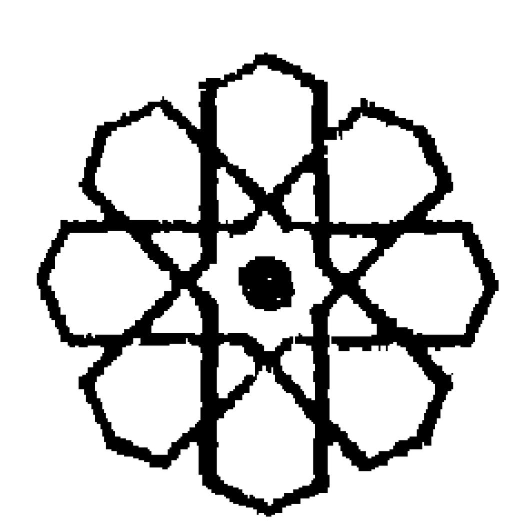
المصدر ، وبهذا يتوفر للعاملين في الحقل الاسلامي - على أساس تعاوني فيما بينهم - مواد علمية موثقة ونامية ، فتكون كل نشرة « مكتبة صغيرة » للموضوع ، ودليلا لأهم المراجع التي تعنى به ، دون أن تكون قيدا على حريته في الاختيار .

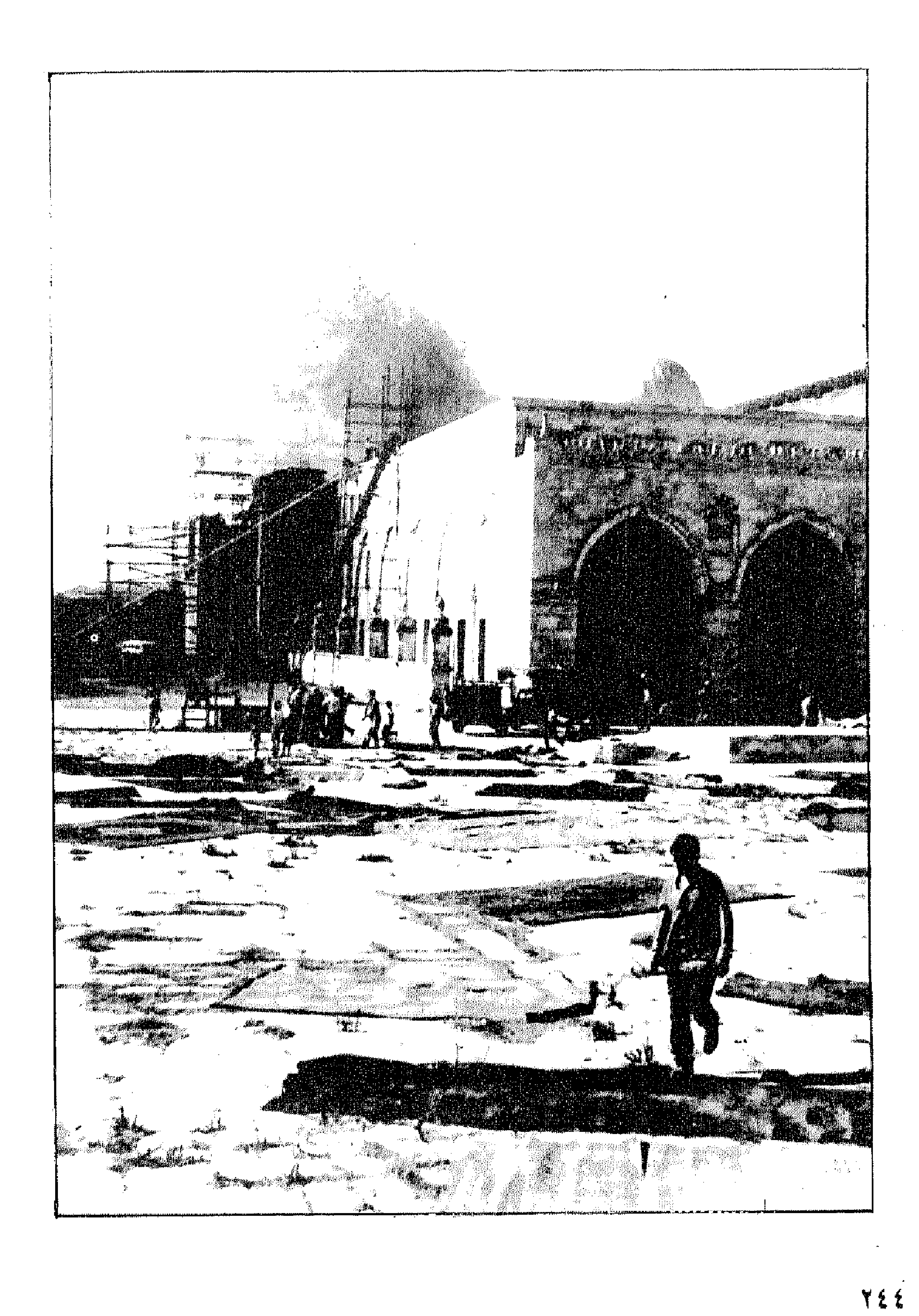
وأعود الى المسجد . .

وأنظر إلى صفوف الصلاة وقد جاء كل مصل متطهرا ، وجلس أمام الامام صامتا ، وإلى القبلة متوجها .

هؤلاء المصلون أمانة . ووقتهم أمانة . وعلينا أن نحسن القول معهم ليزدادوا على المسجد إقبالا ، وله حبا ، ولعظاته استماعا . « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين . ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » (فصلت : ٣٢ - ٣٥) :

وليكن « الصخر » أساسا في البناء ، وليكن « الزهر » كلمات طيبة يهديها المنبر إلى المصلين ، لتكون لهم عونا على طريق الحق .





الفصل الرابع

قضايا عالمية

* « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »

(البقرة : ١١٥)

انتحار أم بقاء : تحديات عام ٢٠٠٠

هذا عنوان ملتقى عالمي عقدته هيئة اليونسكو في عام ١٩٧٧ ، وهو الاول من سلسلة من الملتقيات التى انبثقت عن مائدة مستديرة عقدتها في عام ١٩٧٦ عن تحديات عام ٢٠٠٠ م وهي تحديات واسعة المدى متنوعة الآفاق : اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية واخلاقية .

شارك في هذا الملتقى ثلاثة وثلاثون من اعلام الفكر العالميين من مختلف التخصصات : علماء . فنانون . فلاسفة . سياسيون . منهم الحاصلون على جائزة نوبل . وصدر كتاب الملتقى عام ١٩٧٨ . ولا يشترط في هذه الندوات والملتقيات أن تكون آراؤها معبرة عن اتجاهات اليونسكو . فلكل مشارك ان يبدي رأيه بحرية كاملة .

ودارت أعمال الملتقى حول أربعة محاور :

العربي العدد ٢٨٧ أكتوبر ـ تشرين الاول ١٩٨٢ م .

- الانسان ؛ أهو دمية أم سيد انتاجه ؟
- الانسان في مواجهة القوى القائمة .
- عقد اجتماعى جديد .
- المعركة المستمرة للثقافة .

افتتاح

وفي كلمة الافتتاح دعا الدكتور احمد مختار أمبو - المدير العام لليونسكو يومذاك - المشاركين الى طرح المشكلات ، كما دعاهم الى اقتراح الحلول ، أو على الاقل ، الطرق الممكنة للتغلب على التحديات التي تواجه الانسان . الانسان - لا كمفهوم مجرد - ولكن ككائن حي يقابل التحديات : الغني والفقير . الرجل والمرأة . في النصف الشمالي أو الجنوبي من هذا الكوكب . يقول أمبو « فمصير الانسانية هنا والان مترابط . « هنا » في الجملة الماضية ينبغي ان تفهم على أنها تشمل العالم كله . « والان » تغطي السنوات الخمس والعشرين المتبقية من هذا القرن . وهي لمحة خاطفة في موكب التاريخ . ولكن تركيز هذه اللمحة وتوجيهها سوف يقرر مصير ابنائنا وأحفادنا ، وربما الصيغة الغالبة في القرن الحادي والعشرين .

من الوطن العربي

كان الاستاذ توفيق الحكيم هو المدعو من الوطن العربي . وتحدث في المحور الاول . الانسان : أهو دمية أم سيد انتاجه ؟ وكان موضوعه « التحديات المقبلة وغير المنظورة في عام ٢٠٠٠ » وأكد ضرورة تحديد المشكلات والمفاهيم واختار منها أربعا : الطاقة . العلاقة بين العلم والدين . والتقدم . والاستقلال الوطني .

وسأذكر خلاصة آرائه ، باعتبارها المساهمة العربية في اللقاء ، لأنتقل الى الهدف الرئيسي الذي دعاني الى كتابة هذا الحديث ، وهو ما جاء في آراء العلماء الذين درسوا المحور الثاني « الانسان في مواجهة القوى القائمة » وبخاصة ما عرضه شين ماكبرايد . وفيليب نويل بيكر . والاثنان من الحائزين على جائزة نوبل . الاول عام ١٩٧٤ . والثاني عام ١٩٥٩ .

١ ـ تكلم الاستاذ توفيق الحكيم اولا عن مشكلة الطاقة وأننا نسرف في استخدام الطاقة الميكانيكية ، ونقلل من الاعتماد على الجهد البدني ، حتى في أبسط أمور حياتنا . وفي هذا ما يضر الانسان ، في صحته وكيانه . واذا استمر هذا الوضع أخشى أن نقول في مطلع القرن الحادي والعشرين « مات الانسان » . وانه لأمر شديد الخطر ان نتصور الانسان المقبل انسانا ميكانيكيا . فكما نقول إن الله موجود ، نأمل بأن نقول« الانسان موجود » .

٢ ـ الامر الثاني هو العلاقة بين العلم والدين ، فالدين خاص بالانسان وحده . وهو يجيب عن السؤال الخالد « من خلق العالم ؟ هل العلم « الملحد » في القرن التاسع عشر يمكن أن يصبح « علما مؤمنا » ؟ إن السؤال عن الايمان قائم . ولكل عصر ان يسأل ذلك السؤال . ان العلم حين يصمت ، يتكلم الدين . ولو اجاب العلم عن هذا السؤال بنعم فما عمل الدين إذن ؟ قد نفكر في أن يتوحد رجل العلم برجل الدين . تماما مثل كهنة آمون في عهد الفراعنة » . يقول الاستاذ الحكيم : هذا السؤال عن العلاقة بين الدين والعلم أوجهه الى العالم الكبير الاستاذ الفريد كاستلر . وسنذكر تعقيبه بعد الفراغ من عرض آراء الحكيم .

٣ ـ التقدم : هل يجب أن نعطيه مفهوما جديدا ؟ وهل مسار الانسان في الحياة كمسار الارض حول الشمس دائري وليس مستقيما ؟ كمثال : هل معمار الاهرام الفرعونية في شكلها الهندسي وكتلتها المربعة الضخمة ، يتكرر في

تصميمات حديثة ؟ كمثال : الكتلة المربعة الكبيرة في برج مونبارناس في باريس ؟ انني اترك الاجابة عن هذا للمختصين . ولكن ما اود تأكيده هو الحاجة الى مراجعة مفهوم « التقدم » .

وعلينا أن نسأل انفسنا : التقدم بالنسبة لماذا ، وبالنسبة لمن ؟ : إن الحيوانات تدرك كيف تكيف وسائلها مع غاياتها . انها تستخدم فقط القدر الذي تحتاج اليه من طاقتها ، ولا تبدد شيئا . كذلك تقتصد في طعامها دون تبديد . يدفن الاسد بقايا فريسته لطعام غده . ويدع - بنبل - جزءا منه لغيره من الحيوانات الأضعف . الحيوانات أعقل من أن تشن حربا عدوانية على بعضها البعض كي تفرض أسلوب حياتها على غيرها . ولكن الانسان مازال عاجزا عن تكييف وسائله وفق غاياته . انه يبدد موارد الطاقة الميكانيكية ويحاول تعويض حاجته الى التوازن ، بوسائل تقنية وعقائدية ، فاذا نجحت هذه الوسائل سموها « تقدما » .

٤ ـ كذلك ما نسميه . « الاستقلال الوطني » معناه ان تنطوي كل دولة على مصالحها الخاصة دون نظر الى الصالح الانساني العام . هل من الصعب أن نتصور اليوم الذي تلتقي فيه حكومات جميع الدول ـ دون تحيز ـ للنظر في مستقبل الانسانية ؟ واذا امكن ـ رغم اختلاف القوميات والدين والعرق ـ ان تجمعنا اليونسكو لدراسة مشكلات الانسانية جميعا ، فلماذا لا نأمل في اجتماع مناظر على مستوى القادة ، على الصعيد العالمي ؟ قد يكون اعادة النظر في مفهوم الاستقلال الوطني معينا أو مقربا لذلك الهدف .

واختتم الحكيم كلمته بقوله :

أخشى أننا اذا لم نراجع معطيات حضارتنا اليوم ، أن نلفى انفسنا مع تحديات غير متوقعة عام ٢٠٠٠ .

بين العلم والدين

شارك الاستاذ الفريد كاستلر في هذا الملتقى . وهو عالم فيزياء وعضو في اكاديمية العلوم في فرنسا ، وحائز على جائزة نوبل عام ١٩٦٠ .

وعقب ـ بناء على طلب الاستاذ توفيق الحكيم ـ على العلاقة بين العلم والدين فقال :

« لا تناقض بين هذين المنشطين للانسان : العلم والدين . هما متكاملان ، العلم والدين موجودان في مستويات متعددة من الحياة الروحية . يدخل العلم في نطاق المعرفة ودراسة الحقائق التي تدركها حواسنا . ويدخل الدين في نطاق الايمان .

في كل عصر كان هناك علماء مؤمنون ، وعلماء غير مؤمنين . وأود ان أفحص تعبيرا جاء على لسان الاستاذ الحكيم . إنه يتكلم عن العلم « الملحد » في القرن الماضي . ولا اظن ذلك صحيحا . لقد شهد القرن التاسع عشر نمو اتجاه فلسفي معروف باسم « المادية العلمية » . بعض الناس مازال يستند في أدلته الى معطيات ناقصة من العلم . ومن هنا قالوا بعدم وجود الله وهذا وهم ، إن وجود الله ـ يقول الفريد كاستلر ـ أو خالق الكون لا يمكن الاستدلال عليه أو نفيه بالعلم ، العلم ليس معاديا للدين ، ولا مناصرا له . إنه مواز له . ان العلم يحاول تفسير تطور الحياة عن طريق قانون السببية ؛ بينما يؤكد الدين مبدأ الغائية في هذا العالم . هذان المبدآن (السببية والغائية) متكاملان وليسا متعارضين . والاثنان يدركهما العقل الانساني .

المخزون من القنابل الذرية

ننتقل الآن الى بحث شين ماكبرايد وعنوانه « غسيل المخ بقنبلة طيبة ونظيفة » . . يقول .

رغم تصريحات الزعماء في الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي عن عزمهم على الحد من الاسلحة الذرية أو الغائها ، فان الترسانة الذرية آخذة في النمو . وحتى الحديث عن تحديد الاسلحة الذرية أصابه اجهاض ، حتى اصبح المخزون الآن (وكان هذا عام ١٩٧٧) يعادل عشرين ضعفا للقدر اللازم للقضاء على البشرية كلها .

ففي عام ١٩٦١ اتفق زعماء العالم (ويقصد لقاء كنيدي مع خروشوف في فيينا من ٢ الى ٤ يونيو عام ١٩٦١) على ان عالمنا يقابل خطر الفناء ما لم تحرم الاسلحة النووية وينزع السلاح النووي نزعا كاملا . كان هذا ما انتهى اليه زعماؤنا وقتئذ ، ومن معهم من الخبراء المختارين . وهم من عاشوا اخطار الحرب العالمية الثانية . والان يقولون إن نزع السلاح النووي ليس أمراً واقعيا . هل يعني هذا ان قادة العالم ـ في الفترة من ١٩٤٥ الى ١٩٦١ كانوا في غفلة ولا يقدرون المسئولية ؟ أم أن قادة العالم الان لا يواجهون الحقائق التي تتحدانا ؟ لماذا وضعوا اتفاقيات سنة ١٩٦١ على الرف ؟ لماذا لا يذكرونها الآن ؟

ففي عام (١٩٧٦) سرت اخبار خطرة عن زيادة التسلح في العالم . دولة هي جنوب افريقية أصبحت قاب قوسين أو أدنى من ان تصبح دولة نووية . وفي هذا تهديد موجه اساسا للدول الافريقية والمطلة على المحيط الهندي . وانه لمن النفاق بعد هذا ان نتحدث عن اعتبار المحيط الهندي منطقة سلام بينما مركز تصنيع الاسلحة الذرية قائم في سيمونتون وفالندابا (في جنوب افريقية) .

وقد نشر المجلس الامريكي للتنمية الاقتصادية ـ وهو جهاز غير حكومي ـ تقريرا ذكر فيه « انه في خلال عشرين عاما سوف تستطيع مائة دولة أن تملك المواد الاولية والمعرفة الضرورية لانتاج القنابل الذرية . وفي عام ٢٠٠٠ سيكون ناتج البلوتونيوم معادلا لمليون قنبلة ذرية . وليس هناك أي حماية من هذا الخطر ، وليست هناك أي سياسة خارجية أو تجارية لايقاف هذه القدرة على إنشاء الاسلحة النووية » .

القنبلة فوق الصوتية

وانتقل ماكبرايد بعد هذا الى الأسلحة الحديثة وما يقوم به العسكريون في هذا المجال .

« فلقد اكتشفوا رأسا نووية جديدة أرخص في التكلفة وأشد تأثيرا : انها القنبلة النيوترونية وهي تقتل عددا كبيرا من الناس بالاشعاع ، اكثر بكثير مما تفعل الرءوس النووية التقليدية ولكنها لا تؤثر في المباني ولا الممتلكات .

بعبارة اخرى هناك مرحلتان : اولاهما: قنبلة ذرية تقتل الناس وتهدم المباني . والثانية قنبلة نيوترونية تقتل الناس وتترك المباني .

يقول ماكبرايد : وفي عدد حديث من جريدة الواشنطن بوست كان الامر كما يلي : ما يحبذه أصدقاء الرءوس النيوترونية انها تقتل الناس بطريقة نظيفة : بالاشعاع لا بالانفجار ولا بالحرارة .

ولكن هذه الطريقة واحدة من طرق فناء البشرية التي يعمل لها رجالنا العسكريون ، وفي خلال الاسابع القليلة الماضية ذكر لي - يقول ماكبرايد - بعض خبراء التسليح أن هناك جهودا تبذل في صناعة قنبلة فوق صوتية **Uitra-sonic bomb** قادرة على هز العقل الانساني وتحويل كل سكان مدينة الى مجموعة من المعتوهين . وذلك بإتلاف خلايا خاصة في المخ ، فيفقد سكان المدينة القدرة على التفكيرأو السيطرة على أنفسهم . وهذه الاصابة غير ممكنة الاصلاح أو العلاج ، كما انها لا تتلف أي شيء في الممتلكات ، ولا تنشر الاشعاع . وهي بهذا - كما يقولون - اكثر انسانية من القنابل السابقة ، لانها لا تقتل . كل الذي تعمله أنها تحول البشر الى حيوانات أونباتات » .

ويذكر ماكبرايد بعد هذا مثالا آخر لما يصنعه العسكريون والعلميون ، وإلى أي درك سقطوا .

« فمنذ شهور قليلة جاءت نشرة أنباء لم تحظ بأي عناية أوبعناية محدودة

على هذا الشاطيء من المحيط الاطلسي (يقصد اوروبا) وذكرت أن البنتاجون (وزارة الحرب الأمريكية قد استوردت خمسة واربعين الف جنين بشري مجمد من عمليات الاجهاض في جمهورية كوريا . وتفسير ذلك أن هذه الاجنة كانت ضرورية لاختبارات تأثير الاشعاع على الانسجة البشرية الحديثة التجميد . وذلك لان الانسجة البشرية في الجثث عندهم لم تكن كافية .

تطور السلاح وانهيار الاخلاق

هذا الذي ذكرته ـ يقول الكاتب ـ دليل جديد على الانهيار الاخلاقي في العالم . فالتقدم الذي شهده العالم منذ الحرب العالمية الثانية ، لم يصاحبه نمو معادل في المسئولية الاخلاقية . واعتقد اننا لم نبحث هذا الامر بما تقتضيه اهميته خلال مناقشتنا . واعتقد اننا نستطيع ان نعدل المسار المدمر للانسانية ـ ولا شك عندي في ذلك ـ لو وجهنا عنايتنا الى السلام لا إلى الحرب لنحول بين الانسانية وتدمير نفسها . ويعتمد هذا على رغبة الحكومات في ان تقوم به ، كما يعتمد على وجود ضمير أخلاقي عند القادة .

ومنذ ثلاثين عاما حذرنا البرت شفيتزر (١٨٧٥ ـ ١٩٦٥) من أن الانسان قد فقد القدرة على رؤية عواقب اختراعاته . (وشفيتزر : مبشر وطبيب ورجل دين فرنسي عاش في الجابون في افريقية الاستوائية لمحاربة مرض الجذام وحصل على جائزة نوبل عام ١٩٥٢) . وهذ صحيح . ولكن خلال هذه الاعوام الثلاثين حدث انهيار كامل في الاخلاقيات العامة ، وأصبح العلم غير المصحوب بالحكمة القائمة على المسئولية الاخلاقية خطرا على بقاء الانسانية وتهديدا لها . والحكمة ـ في هذا السياق ـ هي أن ندرك أن الكون لم يخلقه انسان ، وانه عن طريق العبث بالطبيعة ، تتعرض حياة كل الناس للخطر . المسئولية الاخلاقية ـ في هذا السياق ـ تقتضي ايمانا اخلاقيا بمهمة الانسان ، وانها

تعاون بينه وبين اخيه ليعيشا معا ، وليتقاسم الجميع الجمال والخيرات ، التي وفرها الخالق لهم . وقد يبدو هذا القول مني ذا روح دينية . ولكنه في ذات الوقت نفس ما تهدف اليه الشيوعية ، (اي انه هدف يلتقي عنده الشرق والغرب) . وباختصار ـ والقول مازال لماكبرايد ـ ان القضية هي اقتسام خيرات العالم ، واستخدامها لصالح الانسانية .

وللصحافة ووسائل الاعلام مشكلة

ومن المشكلات التي يقابلها عالمنا المعاصر ، اتجاه زعمائنا السياسيين ـ يقول الكاتب ـ ووسائل الاعلام الى التهوين من شأن سباق التسلح ، وتأثيره على بقاء الانسانية . هل شبه الصمت هذا أمر غير مقصود ؟ أم هو شديد الرهبة ؟ أم هل تمارس القوى العسكرية والمنتجة للسلاح ضغطا تصمت به اجهزة الاعلام والصحافة ؟

ان الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن نقابل بها عبثية سباق التسلح ، أن يتكون رأي عام عالمي ، لايسمح للحكومات أن تنفق الشطر الاكبر من مواردها على تطوير اسلحة الحرب النووية ، وألا يقبل هذا الرأي العام العالمي هدفا دون النزع الكامل للسلاح على الصعيد العالمي .

وهنا يبدو دور الصحافة واهميته . ولكننا للأسف نعيش أياما تقابل فيها الصحافة ضغوطا اقتصادية وسياسية رهيبة . وفي بعض مناطق العالم الغربي تبذل الشركات المتعددة الجنسيات والمصالح الاقتصادية ، المرتبطة ارتباطا وثيقا مع الاجهزة الصناعية والعسكرية ، جهودا مكثفة للسيطرة على الاجهزة الصحفية . فجريدة الاوبزرفر البريطانية ذات التقاليد المحترمة العريقة تمتلكها الان شركة بترول امريكية (هي شركة اتلانتيك رتشفيلد) وفي حالة اخرى تحاول شركة متعددة الجنسيات وصفها أحد رؤساء الوزارة السابقين من المحافظين (هو ادوارد هيث) بأنها « الوجه غير المقبول للرأسمالية » . هذه

الشركة في طريقها الى السيطرة على اجهزة صحفية هامة في بريطانيا وافريقية .
وفي فرنسا رأينا ما تعانيه الصحافة من سيطرة مجموعة هرسان على الفيجارو (وهذه المجموعة تسيطر على اثنتي عشرة صحيفة يومية في فرنسا منها اثنتان في باريس . وقد ادت سيطرتها على الفيجارو الى استقالة عدد من محرريها) وكذلك في بريطانيا تمارس شركة فيات سيطرة على الصحافة .

ويعقد شين ماكبرايد أمله على اليونسكو ـ أو اي جهاز مناظر ـ ليدرس هذا الامر ، توطئة لاصدار بيان أو ميثاق لتأمين الحق في حرية الاعلام . وهذا ضروري لتأكيد وصول المعلومات الصحيحة وما يهدد الانسانية من اخطار إلى الرأى العام العالمى ، واذا لم يتيسرهذا ، بحكم التكوين السياسي لليونسكو ، فيمكن ان يقوم به المجلس الاوروبي فيما يتعلق بأوربا . ميثاق يوازي حقوق الانسان وخاص بالصحافة .

انه لأمر اساسي أن نوجد رأيا عاما ، وان نتأكد من ان الحكومات لا تستغلنا عن طريق الاجهزة الصناعية ـ الحربية ، أو الارباح الاقتصادية التي تعود على صانعي السلاح والحروب .

هذه خلاصة وافية لآراء ومقترحات ماكبرايد انتقل منها الى :

حديث بالأرقام عن السلاح النووي

وألخص فيه بحث فيليب نويل بيكر . وقد اختار له عنوانا هو « وحش الأسلحة فوق النووية » يقول فيه :

حارب هتلر ستة أعوام ، واشاع الفوضى في العالم ، ولم تكن عنده قنبلة ذرية . كانت حربه بالاسلحة التقليدية ، ولقد كتب الدكتور هربرت بورك عام ١٩٧٣ ـ وكان كبيرا للعلميين في البنتاجون ـ ان مخزون الولايات المتحدة من السلاح النووي يبلغ ١٥,٠٠٠ ميجا طن (والميجا طن يعادل مليون طن) .
هل تدرك معنى هذا ؟ :

في خلال السنوات الست (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) اسقط الحلفاء على المانيا ١,٢ مليون طن . وأدى هذا الى ان اصبحت المانيا خرابا من شمالها الى جنوبها ، ومن شرقها الى غربها . هذا القدر الذي أسقط على ارض المانيا كلها في ست سنوات تستطيع ان تسقطه الآن قاذفة قنابل واحدة في ثانية واحدة على مكان واحد .

ويذكر فرانك برنابي رئيس معهد استكهلم الدولي لبحوث السلام (وهو معهد بحوث مستقل يعنى ببحوث الحرب والسلام) :

ان اربعمائة وحدة سلاح قوة كل منها ميجا طن ، لو اسقطت على الاتحاد السوفيتي سوف تقتل ثمانين مليونا من سكانه وتدمر ثلثي صناعته .

٤٠٠ ميجا طن تعادل ٣٪ من مخزون الولايات المتحدة أي ٩٧٪ غير مستخدم ، و ٨٠ مليونا من القتلى .

ولو توسعنا في استخدام هذا النوع من السلاح فسنصل الى ما يسميه الاقتصاديون تناقص العائد ، ولكن عندما نصل الى رقم ٦,٠٠٠ (من الاسلحة التي تلقى من قوة مليون طن) ستكون النتيجة قتل كل روسي وكل حيوان وكل زاحف هناك . وستصبح الارض صحراء اشعاع نووي . هذا الرقم (٦٠٠٠) ميجا طن يعادل ٤٠٪ من مخزون الولايات المتحدة الحالي . (وكان هذا عام ١٩٧٣) .

خطورة الاشعاع

انك لا تستطيع ان تقتل الروسي مرتين ، ولكن القنابل النووية غير قنابل المدفعية . أنت تطلق قذيفة عيار ١٦ بوصة ـ يقول الكاتب ـ وقد كنت هناك في الحرب العالمية الاولى عند استخدامها ـ فتدمر مبنى كبيرا وتقتل مائة انسان . ولكن بهذا ينتهي امرها . السلاح النووي غير ذلك .

انت تدمر الهدف وتقتل هيروشيما بقاذفة نووية متوسطة . في صباح يوم واحد مات ٢٤٠ الفا أي ربع مليون . ومات كثيرون ومازال تأثير القنبلة الاولى

باقيا . ولكن هذه ليست النهاية .

ان سحابة عش الغراب ـ أي هذه السحابة المتوالية الانتشار الناتجة من قنبلة قوة ميجا طن ـ ترتفع الى اربعين الف قدم كأنها تخترق حائط السماء . وفيها تكون نهاية الانسان : ذلك لان الرياح العليا تحمل التساقط النووي القاتل الى المملكة المتحدة وفرنسا وتعبر المحيط الاطلسي الى الولايات المتحدة . وان نسبة الستين بالمائة من المخزون النووي للولايات المتحدة وهي المعادلة ل ٩,٠٠٠ ميجا طن ، حتى لو استخدم ، ستصبح خطرا قاتلا على الأمريكيين انفسهم . ان امريكا صنعت هذه الاسلحة ، وانفقت عليها خزائن اموالها ، حتى تجودها . ولكنها لو استخدمتها فسيموت الامريكيون . ولو استخدمتها جميعا لمات الناس جميعا .

ليس هناك من أمل في مستقبل الانسانية الا نزع السلاح . ولكن هذا خيال ومثالية .

وبعد هذا قص الكاتب تجاربه منذ الحرب العالمية الاولى ، وتعاونه مع الزعماء ، وقيام عصبة الامم كأمل للشعوب ، وقيام محكمة العدل الدولية . ورأى [illegible] الدول الكبرى عصبة الامم وتسببت في انهيارها ، والدور الخطير الذي قام به الخبراء العسكريون في حكومات هذه الدول ، دعما للسلاح ودعوة اليه ؛ وقيام الحرب العالمية الثانية التي قال عنها تشرشل مع اقتراب النصر « هذه الحرب ينبغي ان تسمى الحرب غير الضرورية ولقد كان من الممكن تجنبها لو وجدت منا عصبة الامم عونا شجاعا في اتخاذ قراراتها » .

ونسأل انفسنا الآن لماذا نظل تحت استعباد رجال الحرب ؟ نحن نريد فكرة بسيطة : ان هذه الحروب ليست ضرورية . ان السلاح لعبة الحكام والقادة العسكريين .

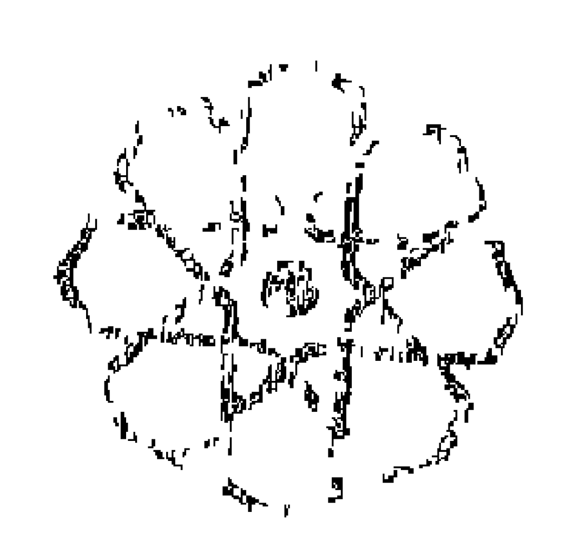
انها أسلوب عفا عليه الزمن .

وتعلق أمل الكاتب كما تعلق أمل ماكبرايد والكثيرين من قبله ، برأي عام عالمي وتشاور وتعاون بين الناس .

الدمار أم التنمية ؟

وأود قبل أن اضع القلم ان انتقل الى فقرات جاءت في المقدمة التي وضعها فيلي برانت في تقريره المعروف « الشمال ـ الجنوب : برنامج من اجل البقاء » ١٩٨٠ ـ يقول فيه تحت هذا العنوان : ان هذا التقرير قائم على ما يبدو انه ابسط المصالح المشتركة ، ونقصد بذلك رغبة البشرية في البقاء ، بل والتزامهامن الناحية الخلقية بالعمل على البقاء . ان ما تبتلعه النفقات العسكرية في نصف يوم يكفي لتمويل كل برنامج منظمة الصحة العالمية الخاص بالقضاء على الملاريا . ويكفي ثمن طائرة نفاثة واحدة (٢٠ مليون دولار) لاقامة نحو ٤٠,٠٠٠ صيدلية قروية . ويكفي مبلغ يعادل نصف الواحد بالمائة من مجموع النفقات العسكرية في العام لدفع ثمن كافة الاجهزة والادوات الفلاحية الازمة لزيادة انتاج الاغذية والاقتراب من حد الاكتفاء الذاتي عام ١٩٩٠ في الدول ذات الدخل المنخفض ، التي تعاني من عجز في الغذاء . وقد نادى التقرير بنظام اقتصادي دولي جديد .

ولكن القرار في هذا لمن ؟ ومن قبل قالها الامام على رضي الله عنه « إن من البلاء ان يكون الرأي لمن يملكه لا لمن يعقله » . لقد تكلم علماء وفلاسفة وساسة ورجال فكر . ولكن مازال القرار سياسيا عسكريا . ومن ورائه كل هذه المصالح والشركات والمنتفعين فمتى يعتدل الميزان ؟



جسرٌ من كلماتٍ ونور

« لو كان هذا الجسر مجرد لقاء أفكار لقلنا إنه من الكلمات . ولو كان مجرد لقاء قلبين لقلنا إنه من النور . . ولكنه جسر يضم العقل والقلب جميعا ، وهو قادر على أن يمتد عبر الزمان والمكان ، غير متقيد بوحدة إلا وحدة الانسانية في [illegible] لها » .

في هذا الحديث نذكر نماذج من الجسور ، وهي إن تغيرت في مظاهرها ـ والتغير في الحياة يتدفق كما يتدفق النهر ـ إلا أن حقيقة كبيرة تظل كامنة فيها متجلية منها ، حقيقة يظل الأفراد وتظل المجتمعات في حاجة دائمة اليها . .

ولنبدأ بنموذجين أحدهما من الشرق والثاني من الغرب .

مالك والشافعي وأحمد بن حنبل

ونستطيع أن نستبدل بهؤلاء الأعلام أقطارا فنقول إن الجسر كان بين الجزيرة العربية والعراق ومصر مرورا بديار الشام .

---

* العربي العدد ٣٤٦ سبتمبر ـ أيلول ١٩٨٧م .

ولنأخذ واسطة العقد وهو الإمام الشافعي . . نصحبه وهو في حداثته في مكة يتلقى العلم في المسجد الحرام ويختلف الى شيوخه ، وتتطلع نفسه الى أن يتلقى عن عالم المدينة المنورة الإمام مالك ، وحصل على خطاب تزكية من والي مكة إلى والي المدينة ليقدمه الى مالك . ونقتبس من هذه القصة بعض ما أورده عنها ياقوت في معجم الأدباء حاكيا عن الشافعي ، وقد سار معه والي المدينة الى بيت مالك ، متهيبا هذا اللقاء ، واستأذن ، وأعلم مالكا عن طريق جارية البيت أنه يحمل اليه رسالة من أمير مكة ، وعادت الجارية وفي يدها كرسي فوضعته ، يقول الشافعي « ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار . . فجلس . . فرفع اليه الوالي الكتاب فقرأه . . ورمى بالكتاب من يده ثم قال :

« سبحان الله ، أوصار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالوسائل ؟» فرأيت الوالي قد تهيب أن يكلمه ، فتقدمت اليه ، وقلت : « أصلحك الله ، اني رجل مطلبي (من بني عبدالمطلب) وقص عليه الشافعي قصته . وكان لمالك فراسة ، فقال : ما اسمك : قلت محمد ، فقال : يا محمد ، اتق الله ، واجتنب المعاصي ، فانه سيكون لك شأن من الشأن ، إن الله قد ألقى في قلبك نورا ، فلا تطفئه بالمعصية ، اذا كان الغد تجيء ويجيء من يقرأ لك ».

هذه الكلمة من مالك ، من الجسور بين عقلين وقلبين ، لقد تفرس مالك في الشافعي ورأى فيه النور وأحس فيه العقل ، ودعاه الى أن يحافظ على هذا النور فلا يطفئه بالمعصية ، ودعاه الى مجلس العلم ، فلننظر ماذا كان في المجلس .

جاء الشافعي في غده ، ومعه موطأ الامام مالك ليقرأه عليه ، فابتدأ يقرأ ، فأعجب مالك بحسن قراءته ، فكان الشافعي كلما تهيب الاستمرار في القراءة يقول له مالك : زِدْ يا فتى ، ولذلك أتمه في القراءة على مالك في أيام يسيرة .

جانب ثالث كفله مالك للشافعي ، وقد كان يعاني من ضيق ذات يوم ، وكان مالك يرعى المحتاج من تلاميذه . وصحبه الشافعي نحو تسع سنين عاد بعدها الى مكة ، وفيها لقي والي اليمن الذي صحبه وولاه أمر نجران ، وأراد أهلها أن يصانعوه ، فلم يجدوا عنده إلا العدل والاستقامة .

وضاق به بعض القادرين من أهل النفاق والظلم ، فاتهموا الشافعي بأنه مع العلويين ، وأرسلوا بهذا الى الخليفة العباسي الرشيد ، وقال الوالي الذي سعى بهذه الوشاية « إن ها هنا رجلا من ولد شافع المطلبي ، لا أمر لي معه ولا نهي ، يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه ».

وسيق الشافعي مكبلا بالحديد من نجران اليمن الى بغداد ، سنة ١٨٤هـ ، وسنه وقتئذ نحو أربع وثلاثين .

وفي هذا الموقف العصيب يسر الله له جسرا آخر من النور والكلمات . .

فلقد أحسن القول أمام الرشيد . وكان في مجلسه محمد بن الحسن الشيباني . وهو أيضا من تلاميذ مالك وأبي حنيفة معا .

كان محمد بن الحسن وقتئذ قاضي بغداد ، واستأنس الشافعي عندما رآه ، ولعلهما التقيا من قبل في مجلس مالك بالمدينة .

فقال الشافعي مخاطبا الرشيد « إن لي حظا من العلم ، وإن القاضي محمد بن الحسن يعرف ذلك » فسأل الرشيد محمدا فقال : « له من العلم حظ كبير ، وليس الذي وقع عليه من شأنه ».

ووجد الرشيد في هذا القول ذريعة ، فقال لمحمد بن الحسن وهو أهل ثقته « خذه اليك حتى أنظر من أمره » وكان هذا آخر العهد بهذه الإدانة الظالمة .

وكان محمد بن الحسن للشافعي في بغداد كما كان مالك له في المدينة : يسر له الانصراف الى العلم ، وأنزله في بيته ، وآواه ، وتلقى عليه فقه العراقيين ، واجتمع له بذلك فقه الحجاز وفقه العراق ، واستطاع بهذا الجمع مع الموهبة العقلية ، وطهارة القلب والتفرغ للعلم أن يضع القواعد ، وأن

يصل الى مرتبة الاجتهاد . وخير شاهد لذلك كتابه « الرسالة » الذي وضع به علم « أصول الفقه » . ومع أن الشافعي استقل عن مالك ومحمد بن الحسن وكتب في ذلك كتابا سماه « خلاف مالك » وكتابا سماه « خلاف العراقيين » إلا أن الاحترام العميق الذي ظل يكنه ويعلنه لهما ، وعرفان الجميل والأدب والأمانة في العرض والنقد ظلت من أبرز صفات الشافعي ، وهي « جسور » الخير العقلي والقلبي والمادي التي سبق أن أنشأها أساتذته نحوه ونحو نظرائه من تلاميذهم .

نستطيع أن نتتبع عودة الشافعي بعد هذا الى مكة ، ثم عودته الى بغداد ، وقد ازداد نضجه . . وهناك تتلمذ له أحمد بن حنبل الذي لقيه في مكة من قبل ، وعجب من عقله وفكره ، ولم تطل إقامته في بغداد ، ولعل الصراع السياسي والعسكري بين الأخوين الأمين والمأمون جعله يؤثر الهجرة من بغداد ، ويؤثر الاقامة في مصر ، وكان فيها تألقه ثم مثواه ورحيله عن دنيانا سنة ٢٠٤هـ وهو في الرابعة والخمسين من عمره . ويروي عنه الحافظ بن كثير في تاريخه أنه كان يقول « وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولا ينسب إليّ شيء منه ، فأوجر عليه ولا يحمدوني » .

ونستطيع أن نتتبع العلاقة بين الشافعي وابن حنبل ، وكان بينهما ما يتفقان معه ، وما يختلفان ، ولكن مع الأمرين ، بينهما التوقير والمودة والاخلاص . .

تولستوي ورومان رولان وهرمان هيسه

ومن جسور الشرق ننتقل الى جسور الغرب ، وحديثنا عن ثلاثة من عمالقة الأدب : الأول روسي والثاني فرنسي والثالث ألماني فما الذي يربط بينهم ؟ ولنذكر أن وفاة الأول كانت عام ١٩١٠ والثاني عام ١٩٤٤ والثالث عام ١٩٦٢ .

اكتب هذه السطور وأمامي كتاب هرمان هيسه « عقيدتي : مقالات عن الحياة والفن » ط : ١٩٨٥ ، وله عدة طبعات سابقة ، وكان حصول الكاتب على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٦ . وفي الكتاب مقالان عن رومان رولان أولهما عن علاقته بتولستوي ، وكان نشر هذا المقال عام ١٩٢٢ تعقيبا على كتاب رولان « حياة تولستوي ». يقول هيسه : (والترجمة هنا للمعاني أكثر منها للألفاظ).

« كل انسان يعرف شيئا عن رومان رولان ، يعرف الدور الكبير الذي قام به تولستوي عندما كان رولان طالبا حديث السن في باريس ، ففي يوم من الأيام جلس رولان ونفسه ممزقة بين شكوكه وأخلاقياته واختياره طريق المستقبل ، أيتجه الى الفن أم الى حرفة يعيش منها ؟ فكتب الى تولستوي خطابا لعله لم يكن يتوقع له ردا ، خطابا كان أكثر من اعتراف ، كان محاولة لتوضيح الذات ، كان صرخة يأس أكثر من كونه سؤالا .

ولكن شيئا يهز النفس حدث ، فلقد أرسل الشيخ الروسي الذي عمت شهرته العالم الى هذا الطالب المجهول الحديث السن في باريس رد رسالته . كان ردا كريما عطوفا ، ومفصّلا ، فيه عناية واطمئنان نفس ، كان ردا من عدة صفحات .

كانت هذه التجربة عميقة الأثر في نفس الطالب رولان ، وعندما نشر كتابه نحو عام ١٩١٢ بعنوان « حياة تولستوي » أي بعد وفاته بعامين تقريبا ، لم يكن الكتاب دراسة لشخصيته ، ولا مجرد دراسة أدبية طيبة ، ولكن كان أيضا اعترافا عميقا بالجميل ، وتعبيرا عن حب مخلص وتقدير يستمر مدى الحياة .

إن قدرة رولان على إبداع هذا الكتاب عن تولستوي بكل ما فيه من إنسانية وحب وحيوية،كان ثمرة لخطاب تولستوي ، الذي لم يكن مجرد فنان كبير وداعية مؤثر ، ولكنه كان إنسانا مبادرا الى تقديم العون ومملوءا بالحب الأخوي .

بهذه الجوانب كانت العناية الأساسية في كتاب رولان عن تولستوي ، بمعركة حياته التي لم تنقطع فيها الآلام ، والتي شملت الكثير من الصعاب والهموم والإحباط ، ولكنها كانت حياة صادقة دائما . وفي الكتاب دراسة لروائع تولستوي : وبخاصة كتبه الباكرة : القوزاق ، الحرب والسلام، أنّا كارنينا ، وإن الصفحات التي كتبها رولان عن الحرب والسلام تعتبر من أروع ما كتب في حياته . وانها لسعادة أن يرى الانسان في هذا الكتاب ماذا يستطيع الحب أن يصنع : الطريقة التي فهم بها الفرنسي رولان ، الروسي تولستوي ، وكيف يفهم هذا المثقف الفرنسي باتجاهاته الاشتراكية في غرب أوروبا ، هذا الصوفي الشرقي ، وكم كان عادلا معه ، وكيف كان يقدر نظرياته ، وكيف تتبعه في آماد حياته الدينية ، وكيف أنه لم يكن يتتبع الأخطاء العابرة ، ولكن الخطوط الأساسية في حياته ، ان قراءة هذا الكتاب متعة نادرة وغير عادية » .

وندع الآن هذا التعقيب من « هيسه » على كتاب رولان عن تولستوي ، وهو مجرد نموذج لانتقال التأثير عبر الكلمات والاحساس ، نموذج للقاء الانسان بالانسان .

جسور في تراثنا وحياتنا

ونعود الى حياتنا ، ويستطيع كل فرد منا أن يحصي من هذه الجسور الكثير ، فقط كل الذي يتحراه أنها تجمع بين الفكر والمودة ، بين العلم والحب ونبدأ بقول الله تعالى موضحا الصلة التي تربط بين الرسول والمؤمنين بالعمل لله وهي صلة تجمع بين العلم والحب .

يقول تعالى مخاطبا رسوله « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (آل عمران : ٣١) .

والآية تجمع بين الاتباع ومدخله العلم ، والحب وهو ثمرة الايمان والمعرفة ، وبهذا كان الحب في الآية طريقا وغاية .

ولا نستطيع أن نتصور مسار الاسلام إلا بتحقق هذين الأمرين : العلم والحب . وكل مسلم يحس أن بينه وبين الله تعالى وبين الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الرباط ، أو قل هذا الجسر . قد يبدو بارزا في شخوص حملت الكبار من مسئوليات الاسلام ، ولكنه ميراث مشترك ، لكل مسلم فيه نصيب .

ان القرآن الكريم - وهو كتاب الله وكلامه - انتقل من فم الى أذن ، وتعيه قلوب واعية ، وسلاسل الحفاظ يرفعونها ليصلوا بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك سلاسل الأحاديث الشريفة .

وان الجانب الأكبر من حفظ التراث الاسلامي والاضافة اليه كانت عن طريق سلاسل من العلماء ، تبدو فيهم قمم عالية ، هي شوامخ الفكر الاسلامي ، وتجمع بين العلم والحب معا .

كأمثلة : مجرد أمثلة ، انظر الى الامام أحمد بن تيمية وتلميذيه الإمامين ابن القيم وابن كثير . ومن تاريخنا القريب لك أن تنظر الى هذه السلسلة بحلقاتها الثلاث : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا . ولكل منهم أكثر من زميل وتلميذ تلقى ووعى عنه ، وأبدع وحفظ الجميل والحب ونشر العلم .

الحاجة الى جسور جديدة

ولكن ألا نحس الآن أن هذه الجسور قد قلت في حياتنا ؟

قد تجد الترابط العلمي ، ولكن لا تجد معه التوقير والمودة . وقد تجد الحب ، ولكن لا تجد معه الوزن العلمي الدقيق .

ولأضرب مثالا من الحياة العربية الاسلامية المعاصرة ، ولن نرجع الى

أكثر من نصف قرن الى الحرب العالمية الثانية وما بعدها .

لقد شهدت هذه العقود القريبة تطورا ضخما في حياتنا العربية والاسلامية . ظهرت دول . استقلت دول . اشتد التفاعل مع المعسكرات العالمية . تزاحمت التيارات الفكرية فوق أرضنا . قامت أكثر من حركة اسلامية فيما اصطلحنا على تسميته بالصحوة الاسلامية . تعددت الاجتهادات والآراء . ولكن لا تحس أن هناك مائدة حوار واحدة يستطيع أبناء العروبة أو أبناء الاسلام أن يجلسوا اليها ، ودليلهم البحث العلمي المجرد ، ونورهم الحب والمودة .

ان الدفاع عن الفكرة أصبح دفاعا عن صاحبها ، واختلطت ـ أو امتزجت ـ الأفكار بالأشخاص ، وأصبح البحث العلمي في قضايا العروبة والاسلام كأن الطرفين فيه ممثل الادعاء وممثل الدفاع . . ولكن أين القاضي ؟

لك أن تنظر الى قضايانا على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو العسكري . لك أن تنظر الى العلاقات بين المذاهب الاسلامية ، وقد تطورت الى الحرب والسلاح والتخريب وتمزيق الأوطان وحرب الجيران . والكل خاسر . والمستفيد تاجر السلاح وهؤلاء المستفيدون قد فرغوا ـ أو كادوا ـ في ديارهم من أمراض العصبيات الضيقة ، دينية كانت أو سياسية ، واتجهوا الى الابداع العلمي والتقني وتسابقوا فيه وما زالوا يتسابقون ، وبينهم آفاق تعاون يعرفونها ، وآفاق تنافس يجددونها ، وآفاق صراع لا يتعدونها . .

عندهم من السلاح أضعاف ما عندنا وأقوى ، ولكنها للردع لا للقتال .

وعندنا القليل الذي يسمحون به ، وبعضه لتوازن القوى ، والبعض للاستهلاك فوق أرضنا وبأيدينا ولأبنائنا .

ألا نحتاج نحن الى جسور جديدة ومنهج جديد يجمع بين العلم ـ مع

دراساته الموضوعية دون تعصب ولا توتر ـ وبين المودة دون تهاون أو ميل مع الهوى ؟ هذه هي الجسور التي نحتاج اليها في مرافقنا :

ـ نحتاج اليها في جامعاتنا لتحيا بها تقاليد عريقة كانت بين الأساتذة والطلاب قبل أن تتحول جامعاتنا الى معامل تفريخ شهادات ، إلا ما رحم ربك .

ـ نحتاج اليها معاهدنا الدينية ليتخرج فيها عالم الدين القادر على أن يجمع القلوب والعقول على حب الخير والعمل له ، والتحول الى الانتاج والتقرب الى الله بالعمل وعمارة الحياة ، وكراهية الظلم وحب العدل .

ـ نحتاج اليها في حياتنا السياسية ، ومن الساسة ؟ إنهم إفراز جامعاتنا ، وحصاد نظام التربية القائم . فالسياسة هي الصورة التنفيذية لنظام التربية عندما تكون السلطة في يده ، نحن محتاجون الى ساسة لا ينعزلون عن الشعب ، ويضعون أيديهم دائما على نبض آلامه وآماله . ساسة قادرون على إدارة الشئون الداخلية والخارجية بوعي وتدارس ومتابعة تتوطد بها المؤسسات ، وتتكون بها صفوف القيادات المتتابعة ، بحيث تصبح السياسة مدرسة سياسية للتكوين والتدريب على التنفيذ .

ـ نحتاج اليها في حياتنا الاقتصادية بحيث يصبح للعلم والانتاج قداسة . نعم قداسة ترفعه الى أن يكون الميزان الاول لمكانة الفرد في المجتمع وأقصد العمل في أوسع آفاقه : العمل الفكري واليدوي والتنظيمي .

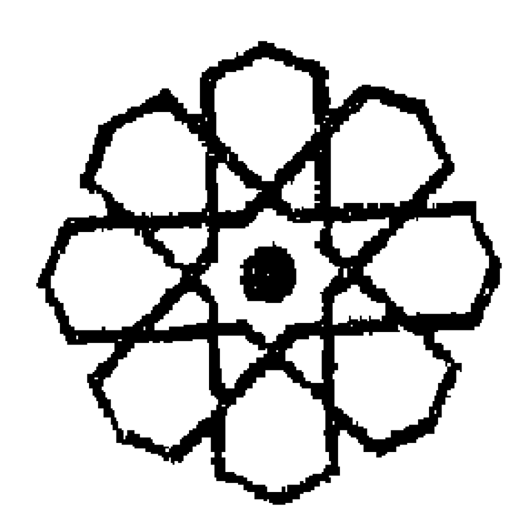
من أين نبدأ ؟

كل هذه جسور نحن في حاجة اليها . ولكن من أين نبدأ ؟ إن نقاط البدء قائمة ، والحياة لا تنتظر أحدا . وهي تسير بنا ، إن لم

نسر بها . ولكن الحديث هنا موجه الى المؤسسات مباشرة ، وتستطيع كل مؤسسة بإمكانياتها وقدراتها أن تتخذ الى ذلك سبيلا ، وما عليها من حرج ، فقط تحتاج المؤسسة الى الارادة والتخطيط لها والسير والمتابعة ، ثم التنسيق مع غيرها . إن الحديث ليس على المستوى الفردي ، ولا على مستوى الدولة ، وإنما على مستوى المؤسسة وهي ـ عمليا ـ الجماعة الأقدر على الحركة والتطوير .

ولنبدأ بأمل محدود : هل تستطيع هذه المعاني أن تجد طريقها الى عقول شبابنا وأبنائنا ، ولو عن طريق الاعلام والصحافة وكتب القراءة المدرسية ؟ وهل تجد من مؤسساتنا من يسارع في الاستجابة ؟

الأمل كبير . والحياة أمل وعمل .



الإسلام والعرب ورياح الشمال

من الاتجاهات التي زادت عناية المؤرخين المحدثين بها ، ما يسمونه صورة الآخرين . ويقصدون به : كيف ينظر أصحاب حضارة إلى حضارة أخرى أو إلى أبنائها إذا كانوا في قطر آخر يعيشون غرباء ، أو أقليات أو يسكنون منطقة هامشية ؟

كان هذا من الموضوعات الرئيسية في المؤتمر العالمي السادس عشر للعلوم التاريخية الذي عقد في مدينة شتوتجارت في المانيا في خريف ١٩٨٥ . ونوقش في هذا الموضوع سبعة وعشرون بحثا ، كان أغلبها عن آسيا وأوروبا وأجزاء من العالم الجديد . وتناولت بعض الدراسات العالم الاسلامي والوطن العربي في ماضيها وحاضرهما ، بالاضافة إلى دراسات في مناهج البحث .

ومن هذا اللقاء الذي يجمع مؤرخين على الصعيد العالمي ننتقل إلى دائرة أضيق :

لقاء في اليونسكو في صيف ١٩٨٦ : تتابع فيه لجنة علمية إعادة كتابة تاريخ العالم العلمي والثقافي . وهو مقسم إلى سبعة أقسام تبدأ من فجر التاريخ

العربي العدد ٣٣٧ ديسمبر ـ كانون الاول ١٩٨٦ م

وتنتهي إلى القرن العشرين . وكان اللقاء عن الجزء الرابع الذي يتناول تاريخ العالم ما بين القرنين السابع والخامس عشر الميلادي . وهذا الجزء قسمان : أولهما موضوعي يتناول قضايا البيئة الجغرافية والسكان ومظاهر الحضارة ، وثانيهما إقليمي يتناول الحضارات وتوزيعها .

في القسم الموضوعي تستطيع أن تتخذ الانسان مركزا وتدرس آفاقا تاريخية : كالدين وعلاقاته ، والكون ، والدولة ، والأسرة ، والمجتمع ، وجوانب المعرفة العلمية والتقنية ، والابداع الفني .

وأنت في هذا تستطيع أن تدرس علاقاتها الداخلية ، ثم التأثيرات المتبادلة موضوعيا ومكانيا وزمانيا .

ولكن عندما تتناول التقسيم الاقليمي ستجد أمامك اختيارات وبدائل كان فيها بعض الحوار ـ أو قل الصدام ـ بين « صور الآخرين » .

من أين نبدأ وما أساس التقسيم ؟

تستطيع أن تبدأ من أقصى الشرق . من اليابان وتتخذ مسارا نحو الغرب . وقد يكون هذا ـ من الناحية الجغرافية البحتة ـ مقبولا . فآسيا هي القارة الأم ، ولا تزيد أوروبا وأفريقيا ـ إذا نظرت إلى نصف الكرة الشرقي أو العالم القديم ـ عن أشباه جزر .

وأنت بهذا تتجنب النظرة التي انتقدتها كثير من شعوب العالم الثالث ، وعلماء منصفون من العالم المتقدم ، وهي البدء بأوروبا التي كانوا يعتبرونها حضاريا هي القارة المتصدرة ، فالقريب منها قريب والبعيد عنها بعيد، وهم الذين أطلقوا أسماء : الشرق الأدنى ، والشرق الأوسط ، والشرق الأقصى . وكان التاريخ الأوروبي يحتل ـ ولا يزال إلى حدٍّ ما ـ مكانا أكبر عند دراسة

التاريخ العالمي . والآن بدأ اتجاه الى تنحية المركزية الأوربية عند دراسة التاريخ ، وكتابة التاريخ العالمي المتوازن الذي يعطي لحضارات العالم الثالث والحضارات الآسيوية والحضارات العريقة التي استطاع أبناؤها أن يكشفوا الجديد من مصادر المعرفة عنها : أن يعطى هؤلاء جميعا مكانا أوسع وضوءا أقوى .

فلنبدأ من اليابان إقليميا ، ولنتجه إلى الصين وإلى الهند ووسط آسيا . هنا إلى حد كبير لقاء بين الحدود الجغرافية والطبيعية والحدود الحضارية ، ولكن إذا جئت إلى جنوب غرب القارة ـ حيث مهد الاسلام وامتداده بجناحيه الآسيوي والافريقي ـ ستجد نفسك ـ علميا وعمليا ـ مضطرا إلى الانتقال من الاسم الجغرافي إلى الاسم الحضاري وستتكلم عن « العالم الاسلامي » . وهنا اشتد الحوار ، ورأينا صورة عملية وحية من مشكلة : صورة الآخرين .

العالم الاسلامي ، وحوار حول المفهوم

قال قائل منهم :

لقد كان الحديث عن أقاليم جغرافية حضارية ، لكن عند الحديث عن العالم برز المفهوم الحضاري متخطيا حدود القارات ، ومعالم الجغرافيا الطبيعية . ألا ترون لي هذا تناقضا في الأساس العلمي الذي يقوم عليه التقسيم ؟ ثم إذا تحدثتم عن العالم الاسلامي فلماذا لا يتحدث غيركم عن العالم المسيحي والبوذي والهندوكي ؟

ألا ترون الحديث عن (الاسلام) و (العالم الاسلامي) يثير حساسية أهل الحضارات والديانات الأخرى ، بل كثيرين ممن لا يؤمنون بدين ، ويعيشون حياتهم علمانيين لا علاقة لهم بالأديان ؟ واستمعت واستمع معي

آخرون ، وقلبت أوراقي وقلت لصاحبي الذي اعترض : هناك حقيقة أولى أود أن تتذكرها : إن التقسيم الذي تقدمت أنت به ، وضعت العالم الاسلامي على

رأس القائمة ، ثم تابعت بعد هذا عرض الأقاليم الأخرى .

فقال : كان هذا قولي وقد رجعت عنه !!

قلت : وهذا تقريرك المقدم ؟

قال : رجعت عنه !!

وتحدث أكثر من زميل فكان مما قالوا : معنا هنا علماء متخصصون في أقاليم محددة من العالم الاسلامي ، وعلماء يتعاونون معنا - وإن لم يحضروا الاجتماع - لهم مؤلفات تحمل اسم العالم الاسلامي والحضارة الاسلامية . وهنا في جامعة باريس معهد للدراسات العربية الاسلامية ، وأساتذة أمضوا أعمارهم في هذه الدراسات ، وأطالس عن العالم الاسلامي ، ودائرة معارف إسلامية . إن العالم الاسلامى حقيقة قائمة ، إنه ليس أمرا مخترعا . أهله يقولون عنه « العالم الاسلامي » . ولهم منظمة المؤتمر الاسلامي . والوطن العربي له جامعة الدول العربية . والأفارقة لهم منظمة الوحدة الافريقية . هناك إطار واسع يجمع العالم الاسلامي ، وهو إطار مرن يتسع ويضيق ، وفي داخل هذا الاطار وحدات إقليمية بعضها يستغرقها العالم الاسلامي كالوطن العربي ، والبعض الآخر له روابطه بوحدات أخرى صديقة كمسلمي افريقية .

ولا مانع من تعدد الأسس المتخذة في التقسيم ، لتجمع بين الظاهرات الجغرافية الطبيعية والبشرية معا ، حسب أهميتها : فقد تكون اللغة - كالعربية - أو اللون كمسلمي افريقية وجنوب الصحراء - أو السلالة والعرق - كالأتراك - . ومع هذا التميُّز هناك إطار شامل هو العقيدة في أوسع مدلولاتها - يجمع المسلمين جميعا .

الوحدة والتنوع والصراع

وقال قائل :

وهذه الحروب التي بينكم ، كالحرب الدائرة بين العراق وايران ، وأنتم جميعا مسلمون ؟ ثم إن الدعوة إلى التمييز بين الاسلام العربي والاسلام الافريقي ليست نابعة من عندنا . إن علماء غرب أفريقية لهم تصورهم التطبيقي في الاسلام الذي يجمع بين العقيدة الاسلامية والمواريث القديمة ، أو على الأقل الصالح منها ، لكي يتكون منه مع الاسلام نسيج يستطيع أن يستجيب لحاجات الحياة المتجددة عندهم . ثم النزعات العرقية العنيفة والمذهبية في أكثر من قطر . من الأفضل أن يتحدث كل إقليم عن نفسه ، أما البدء بعالم إسلامي فأمر لا يحظى بقبول من الجميع ، وهو محل حوار ينبغي أن نبحث معه عن صيغة جديدة ، قد تكون تحديد أقاليم جغرافية في العالم الاسلامي ، ثم فصلاً ختامياً عن الوحدة والتنوع في أرض الاسلام أو بين الأقاليم الاسلامية . وتواعدنا على لقاء نحاول فيه الالتقاء .

مرصد لرياح الشمال

جاءت عطلة نهاية الأسبوع بعد هذا اللقاء . وخرجت في الصباح وخلوت إلى نفسي في مكان هادىء من حديقة عامة .

لماذا هذا العنف الذي بدا من بعض أعضاء اللجنة عند ذكر الاسلام ؟ ولماذا كان القبول من قبل ، والهجوم من بعد ؟ إنهم علماء لا يتحركون من فراغ ، ولهم مكانتهم في ديارهم ، ولهم انتاجهم ، فهل هذا التحول جزء من تحول أكبر كانت تستره أهداف ، ثم أبرزته أهداف أخرى ؟ حتى العلم فيه (الاستراتيجية والتكتيك) ، وفيه تغير المواقف بهذه السرعة ! ووجدت ذهني

يتحرك بين منظورين ، أولها تاريخي والثاني معاصر ، والاثنان متكاملان . قد يغلب على المنظور التاريخي العناية بموجات التاريخ الكبرى ، وعلى المعاصر العناية بالحوادث الفردية القريبة . هما مستويان أوأكثر من الدراسة ، وليسا وجهين متقابلين لحقيقة واحدة .

ووجدت نفسي أستعيد تقسيم المؤرخ الكبير فرناند برودل الذي أقام عليه كتابه « البحر المتوسط » ، وهو من أعمق الكتب التي أثرت في مناهج البحث التاريخي المعاصر ، فلقد وضع لكتابه ـ وللزمان ـ تقسيما ثلاثيا :

الزمان الجغرافي : عن علاقة الانسان بالبيئة ، وهو تاريخ بطيء التغيرات ، متكرر الدورات .

الزمان الاجتماعي وتغيراته أسرع : وهو تاريخ الجماعات والتجمعات . هنا يدرس النظم الاقتصادية ، والدول والمجتمعات والحضارات ، وكيف أثرت هذه القوى العميقة في الحروب . . ذلك لأن الحروب لا تحكمها فقط مسئوليات الأفراد .

الزمان الفردي أو زمن الأحداث والتغيرات السطحية : وهي غشاء من الزبد يحمله مد التاريخ فوق ظهره القوي . إنه تاريخ قصير سريع ، عصبي الذبذبات ، شديد الحساسية . ومع هذا هو أشدها روعة ، وأكثرها اجتذابا للنظر ، وأكثرها خطورة .

(من مقدمة الترجمة الانجليزية ص ٢٠ ، ٢١ من الجزء الاول ، ط . كولنز ١٩٧٢)

وعدت إلى موقف بعض الزملاء في لقائنا العلمي فوجدته من « الزمان الفردي » وإن كان يحمل جذورا من الزمان الاجتماعي والجغرافي معا . فأين أضع مرصدي لأسجل قوة رياح الشمال واتجاه الهبوب ؟ من أين ؟ والى أين ؟ وماذا تحمل من مكونات ؟ ولأنظر إلى سلاسلها الزمنية لأرى عمقها الزماني فهي

مما أطلق عليه برودل اسم الظاهرات الطويلة الأمد ، وهذا أيضاً من التعبيرات التي انتشرت مع تقسيمه الثلاثي أيضا .

من المدينة المنورة إلى القسطنطينية

ووضعت المرصد في المدينة المنورة ، وعدت إلى عهد النبوة . هذه الرسالة من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هرقل عظيم الروم ، ومن قبل هذا أقرأ قول الله تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير » (الاسراء : ١) ، فالأمر أقدم من المدينة ، وقد كانت القدس وقتئذ تحت سيطرة الروم ، وكان من الروم من يحاول الاتصال بالمنافقين في قاعدة الاسلام . هل نعود الى أبي عامر الراهب والى مسجد الضرار . وإلى دسائس الروم ؟ لذا كان على الاسلام أن يحمي نفسه ، وخرجت الغزوات على المحور الشمالي : غزوة مؤته عام ٨ هـ ، غزوة تبوك عام ٩ هـ . بعثة أسامة بن زيد عام ١١ هـ ، وهذا أول الأعمال التي قام بها أبوبكر عند توليه الخلافة ، إنفاذا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته . وتوالت بعد هذا الانتصارات : أجنادين واليرموك عام ١٣ هـ ، بيسان وطبرية وفتح دمشق ١٤ هـ وفتح بيت المقدس صلحا عام ١٥ هـ . واستمر الفتح والتقدم . ولننقل الآن مرصدنا من المدينة المنورة ونمر على العواصم الدينية والسياسية في الشام ، ونركز المرصد عند جبال طوروس حيث جبهة اللقاء الجديدة بين الاسلام والروم ، أو بين الاسلام والعرب من ناحية وأوروبا من ناحية أخرى ، وسيظل المرصد هنا ـ غير بعيد عن جبال طوروس ـ طوال العهد الأموي والعباسي ، نتوغل به أحياناً في الأناضول ونتراجع أحيانا .

ولكن بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر ستهب علينا من الشمال والغرب عواصف عنيفة : إنها الحروب الصليبية . هبت برا وبحرا ،

واستطاعت أولاها الوصول الى بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، وتتابعت الحملات ، وامتدت على الجبهة الاسلامية من الأناضول إلى شمال افريقية ، ولم تستطع الحملة الثامنة على تونس أن تحقق شيئا .

وخلّفت الحروب الصليبية وراءها نظما من الفرسان المحاربين ، كانت عواصف محلية ضمن رياح الشمال .

سننقل مرصدنا الآن في الأناضول متحركين به ، مع السلاجقة ، ومع العثمانيين وأملهم الكبير في الاستيلاء على القسطنطينية ، ذلك الأمل الذي استمر في نفوس المسلمين ثمانية قرون ، منذ الحصار الأول عام ٥٢ هـ ٦٧٢ م في عهد معاوية بن ابي سفيان . وإذا كان محمد الفاتح قد استطاع ان يضع نهاية لهذا الصراع الطويل بالفتح عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، فان هذا لايرجع فقط إلى بسالة الجند وحسن القيادة وعمق الايمان ، فهذه قوة مشتركة بينه وبين المحاولات السابقة ، وقد كان في أولاها بعض الصحابة رضوان الله عليهم ، ولكن الذي حسم الأمر بالاضافة الى قوة العقيدة هو المستوى العلمي للاستعداد العسكري ، خاصة في المدفعية التي أشرف السلطان بنفسه على صناعتها بحيث يكون لها التأثير الفعال على أسوار المدينة ، فضلا عن قوة السلاح البحري والبري وتهيئة الجو السياسي الملائم .

لقد كانت المعركة عنيفة ، خاضها الطرفان ببسالة ، وانتصر فيها الاسلام وركز أعلامه ، وأصبحت استانبول عاصمة الخلافة العثمانية . واذا كانت العاصمة التركية تراجعت بعدما يقرب من خمسة قرون إلى أنقرة قبيل إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤ ، الا أن صورة الاسلام في استانبول بعمارتها ومساجدها وقصورها وطابعها ، تمثل نقطة أمامية حاول العثمانيون التوغل منها إلى شرق أوروبا ووسطها .

ووصل المد إلى فيينا ، وكان الانسحاب من حصارها الأخير عام ١٦٨٣

م ، وبقيت جزائر إسلامية في المحيط الأوروبي ، وأضيفت إليها جزائر جديدة مع اشتداد الهجرة إلى أوروبا .

من استانبول إلى جبل طارق

سننقل مرصدنا الآن إلى أقصى الغرب : إلى جبل طارق وهو بعد المد والجزر شمالا وجنوبا يمثل حدا بين الحضارتين . كان التقدم منه نحو الشمال عام ٩٢ هـ / ٧١١ م ، وتوغل المسلمون ـ من العرب والبربر ـ حتى عبروا جبال البرانس وسجلوا انتصارات ، ثم كانت هزيمة في معركة بواتييه عام ١١٤ هـ / ٧٣٢ م واستشهاد القائد عبدالرحمن الغافقي ، لكن بقي الاسلام بعدها في الأندلس حتى سقوط غرناطة ـ آخر معاقل الاسلام ـ في عام (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) . ولنا هنا وقفة ننقل فيها سطورا ذكرها جفرى باركر في فصل عن الحرب (تاريخ كمبردج الحديث ، الطبعة الجديدة ، مجلد ١٣ ص ٢٠١ عام ١٩٨٠) .

في هذا الفصل عالج تطور الحرب في أوروبا منذ القرن الخامس عشر حتى الآن ، والتحسينات التي أدخلت على الحصون ، ومنها تطوير مدافع الحصار ، وصناعتها من البرونز بعد ان كانت تصنع من الحديد الزهر ، ثم يقول : « إن السبب في سقوط غرناطة بسهولة أمام المسيحيين ـ بعد أن ظلت تقاوم بنجاح سبعة قرون ـ يرجع إلى أن فرديناند وايزابيلا ، استطاعا إحضار قوة تتكون من مائة وثمانية من مدافع الحصار لمقاومة حصون غرناطة » ، وضرب بعد هذا أمثلة أخرى من التاريخ الأوروبي استطاع تفوق المدفعية فيها أن يحسم الهجوم على الحصون القديمة حول المدن .

ألم يكن هذا هو الدرس الذي وعاه محمد الفاتح وغفل عنه أصحاب

غرناطة ، وبين المعركتين نحو أربعين عاما ؟ وكـان هبوب ريـاح الشمال في اسبانيا عاصفا ، فيه قصف المدافع ، وقوة التقدم العلمي ، والهزيمة المحتومة .

والآن : ماذا علينا ؟

مايزال في الموضوع قول كثير : القطاع الممتد من الوطن العربي شرقا إلى المحيط الهادي حتى الفلبين . هنا أيضا تهب رياح الشمال . العاصفة المغولية من وسط آسيا وآثارها المدمرة ، ثم تقبل جزء من المغول الأسلام ديناً .

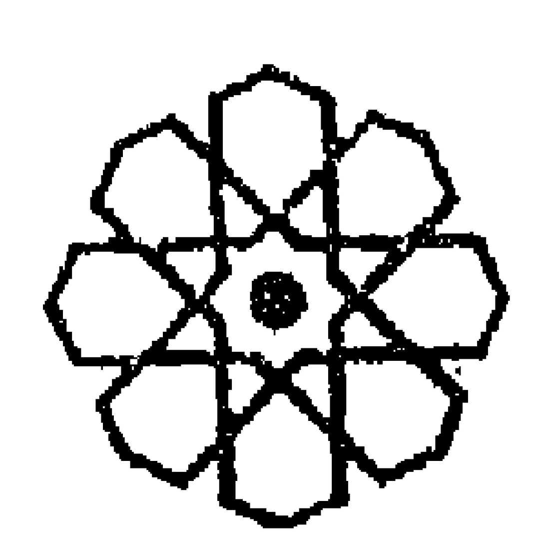
ماذا حدث بعد انسحاب المسلمين من الأندلس ؟ وكيف بدأ ـ في نفس العام ـ نشاط في الالتفاف حول العالم الاسلامي ، ومحاولة الوصول إلى جزر التوابل ؟ إمـا عن طريق الجنوب وإما عن طـريق الغرب ، وأدى هـذا إلى الدوران حول افريقيا وكشف العالم الجديد ، وعالم المحيط الهـادي ؟ وحدث بهذا تطور من أكبر ما مر على الانسانية ، وانفتح امام أوروبا أكثر من مجال أدى إلى تقدم وتراكم وانفجار في المعرفة ، فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، وهو القرن الذي شهد غارة أوروبـا على الـوطن العربي والاسـلامي واستعمار الكثير من أجزائه . واشتد هبوب رياح الشمال إلى منتصف القرن العشرين عندما حصل كثير من الاقطار العربية والاسلامية على استقلالهـا أو استكملت الحصول عليه ، وهدأت رياح الشمال قليلا ، ثم عادت لتشتد في أيامنا هذه .


وجود الحضارتين : العربية الاسلامية ، والأوروبية المسيحية ، حقيقة تاريخية ممتدة ، ونظرة الأجناس الأوروبية البيضاء إلى غيرها من الألوان قائمة ، وإن اختفت أحيانا تحت ستار من المجاملة . ونظرة العالم المتقدم إلى العالم النامي ووجود الفجوة الحضارية والاقتصادية والعسكـرية حقـائق موجـودة . رياح الشمال مستمرة ولكن بعض الدول الآسيوية استطاعت أن تحطم الطوق ، ومن

هذه دول كبيرة كاليابان ، وصغيرة كسنغافورة . إن تغير قوة الرياح حقيقة قائمة ، يدخل فيها مستوانا العلمي ، ومدى قبولنا التحدى الحضارى ، وتكوين القواعد العلمية ، ومكانتنا لن تستطيع أيد غير أيدينا أن تحصل عليها .

ولا طريق سوى اكتساب المعرفة والمشاركة فيها ، ثم الابداع والتفوق . هذا لمن اراد الحياة .

بهذا تقل فروق الضغط الحضاري بين مناطق الهبوب ومناطق الاستقبال . ومع قلة الفروق بين خطوط الضغط الحضاري ستهدأ الرياح وتقل حدة العواصف ولا أريد أن يجمح بنا الأمل لنتصور تغيرا في اتجاه الهبوب ـ وان حدث هذا في أقصى الشرق حيث تهب الرياح من اليابان نحو غرب أوروبا ، وتهب منها على امريكا عبر المحيط الهادي ـ هذه أوائل خريطة جديدة تتكون فلا أقل من أن نمنع هبوب العواصف على ديارنا ، بأن يرتفع عندنا المستوى الحضارى ، فلا تستطيع أيدي الآخرين أن تحجب عنا شمس المعرفة ، ولا أن تحدد صورتنا ، وترسمها كما تشاء ، وتكون حمايتنا بالعلم والابداع ، مع فتح النوافذ على منجزات الانسانية دون انطواء ولا ذوبان .





العلمانية بين الدين والدولة والحياة

العلمانية ، كأي مفهوم واسع الانتشار ، تتعدد فيه التعاريف ، وإن كانت تدور حول محور أساسي هو العناية بأمور الدنيا ، فكرا وعملا ، عناية قد تصل إلى إنكار كل ماعداها ، وقد تعترف به اعترافا جزئيا وتتعايش معه .

لنعد إلى قاموس اكسفورد لنقرأ فيه بعض التعاريف عن العلمانية كمذهب ، تمييزا لها عن الدينية :

١ ـ أن تكون الأخلاقيات لصالح البشر في هذه الحياة ، مع استبعاد أي اعتبارات تأتي من الايمان بالله أو حياة أخرى .

٢ ـ أن يقوم التعليم على أساس علماني بحت (أي دنيوي لا علاقة له بالدين) .

٣ ـ هي الارتباط بالحياة وقضاياها وتمييز ذلك عن الكنيسة والدين .

٤ ـ العلمانية هي اللادين .

٥ ـ هي غير المقدس .

٦ ـ وأحيانا يقصد بها غير المتعلم .

العربي العدد ٣٤٩ ديسمبر ـ كانون الاول ١٩٨٧م .

وذكر القاموس تواريخ هذه التعريفات ، كما تحدث عن « علمنة الكنيسة » ويقصد بها توجيه ممتلكاتها من الخدمة الدينية إلى الخدمة المدنية . وفرق بين رجال الكنيسة « الدينيين » ، وهم المتفرغون لخدمتها ، و « العلمانيين » الذين يعيشون بين الناس ويخالطونهم ، فكأن في الكنيسة دينيا وعلمانيا .

ويمتد التمييز ليشمل آفاق المعرفة : فالعلمانيون هم الأدباء والمفكرون والفنانون غير المعنيين بالشئون الكنسية .

ويمتد أيضا إلى المؤسسات والمباني : فالمنشآت العلمانية هي القصور والمتاحف ودور الأوبرا ، تمييزا لها عن الأبنية الدينية كالكنائس .

من أجل ذلك كان من « المنهجي » الاتفاق - بين المتحاورين - على « المفهوم المقصود » من العلمانية ، وما مجاله وأبعاده . ولهذا القول تفصيل يحسن معه أن نرجع إلى جذور في العلاقة بين الدين والدولة والحياة . . وبين العلمانية أو « شئون الدنيا » .

ولنبدأ باليهودية :

وحين نرجع إلى العهد القديم ، بدءا بأسفاره الخمسة التي تحمل اسم التوراة أو توراة موسى (وهي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) ، والأسفار اللاحقة ، بدءا من يشوع إلى القضاة والملوك والأخبار والأنبياء اللاحقين . . . وإلى كتب تفسيرها (التلمود بقسميه المشناة والجمارة : أي صورة الشريعة وملحقها) ، نرى تعددا في مواقف اليهود منها .

هذه الأصول والشروح كثيرة التفاصيل في أمور الدين والحياة اليومية والرعوية والزراعية والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية . هي أشبه ماتكون بمحيط مائج من الأحداث والأحكام والنصوص الأدبية ، وهي في هذا لاتفصل بين الدين والدنيا .

من اليهود من يقف عند قبول الأسفار الخمسة الأولى ، ومنهم من يقبل العهد القديم كله (على خلاف في عدد الأسفار المعتمدة) . ومنهم من يجعل للتلمود وأقوال الشراح الهيمنة على نصوص التوراة . ويبدو من هذا أنه حين تضيق دائرة النصوص ، تتسع معها دوائر الدنيا أو « العلمانية » ، وإن كان الأغلب عندهم هو الترابط الوثيق بين النصوص والحياة اليومية .

أما المسيحية :

فكان لها موقف آخر :

كان في اليهودية ملوك أنبياء ، أو أنبياء ملوك . وجاء المسيح عليه السلام يتحدث عن مملكة السماء ، وأن الانسان لايستطيع أن يخدم سيدين في وقت واحد : الدين والدنيا . والحواريون الذين اتبعوه تركوا أعمالهم وفرغوا له .

وأراد اليهود أن يختبروه في أمر العلاقة بين الدين والدولة ، وقد مارس اليهود تَوَحُدهما من قبل ، ومارسوا السلطان الدنيوي باسم الدين ، فأرسلوا إليه من يسأله :

« يا معلم ، أيجوز تعطي جزية لقيصر أم لا ؟ فَعَلِمَ يسوع خبثهم . وقال : لماذا تجربونني يامراءون ؟ اعطوا مالقيصر لقيصر ، وما للّه للّه . فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا . . (انجيل متى ٢٢ : ١٥ ـ ٢٢) .

وهذا النص صريح الدلالة على ازدواج السلطة في المجتمع : الدين والدولة . فهذا الفصل أو التمييز ليس طارئا على الفكر المسيحي ، بل هو من صميم تكوينه ، الذي يصل أحيانا إلى التناقض بين خدمة السيدين ، وهي صورة تختلف عما كان في اليهودية وعما سنراه في الاسلام .

ولقد مرت المسيحية أول أمرها في مرحلة استضعاف كانت فيها تحت سيطرة دولة لاتؤمن بها ولا ترضى بوجودها . وهذا موقف الدولتين الرومانية

والبيزنطية في عهودهما الوثنية . وخضع المسيحيون لسلطان الدولة ، وتحملوا كل الأذى والتضحيات ببطولة وإيمان . ثم جاءت مرحلة القوة والظهور عندما آمنت الدولة بالمسيحية وأخذت قوة الكنيسة في الزيادة ، ونفوذها في الامتداد ، وتوسعت في امتلاك الأرض وجمع الأموال ، بل وتكوين الجيوش ومنازعة الحكام ، والسيطرة على الحكم حين يستطيعون ، وشهدت أوروبا هذه الملاحم ، وظلت كنائس الشرق على وفاء للمبدأ الانجيلي « ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه » .

وحدث الضغط على هذا الامتداد الكنسي من جبهتين : جبهة داخلية يمثلها الاصلاح الديني وقيام البروتستانتية في اوروبا وبخاصة في القطاع الشمالي والأوسط (في المانيا على يد لوثر وفي سويسرا على يد كلفن) وارتبط هذا الاصلاح بنمو الرأسمالية والتصنيع ، وقيام الدول القومية التي عاونت كنائسها المحلية على بناء شخصيتها ، وجبهة خارجية تمثلها رغبة الحكام في التحرر من نفوذ الكنيسة البابوية .

وكان الاتجاه العلماني مستفيدا من هذا كله : بتقليص مساحة « المقدس » واحتلال مواقع في ساحته . وحل عندهم الفكر العقلاني والعلمي محل الايمان الكنسي القديم .

وزاد من مكانة هذا الاتجاه الجديد ما كسبه « الانسان » من كشوف العلم ، وما ابتكره من أدوات السيطرة على مكونات البيئة الطبيعية .

وعندما أرادت الكنيسة أن تواجه الزحف العقلاني لم يجد أصحابه (وهم الحكام والعلماء) إلا أن يحاصروا الكنيسة في مواقعها لتدع للعلمانية النفوذ والمجال الأوسع .

وتمضي المؤلفات التي تؤرخ لأوروبا منذ عصر النهضة في تعداد كشوف الانسان وأبطال الكفاح ضد الغموض العلمي .

أعظم حادث

ويذكر « بيتربرك » أن الفرق الكبير بين النظرة في القرن السادس عشر والقرن العشرين يمكن أن نلخصها في هذين الاقتباسين . فلقد وصف فرانشسكو لوبيز (١٥٥٢) كشف أمريكا بأنه أعظم حادث منذ بدء الخليفة . وفي عام (١٩٦٩م) عندما هبط أول إنسان على القمر قال ريتشارد نيكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة : إن هذا هو الاسبوع الأعظم في تاريخ العالم منذ بدء الخليفة .

كما يذكر أن تعبير العلمانية بمفهومه الحديث يرجع استخدامه إلى القرن التاسع عشر ، ولا يلتفت الناس كثيرا إلى التطور الطويل الذي مر فيه التعبير . وأنه ليس من اليسير تحديد الخط الأساسي في اتجاه العلمانية . ولكن يمكن ذكر عوامل منفصل بعضها عن بعض ، وصياغتها في منظومة فكرية . هذه العوامل هي :

١ ـ تدهور سلطان الكنيسة .

٢ ـ زيادة قوة « الآخر » ونعني به غير رجال الكنيسة .

٣ ـ تراجع مكانة « المقدس » .

٤ ـ حلول الأخلاقيات الأكثر مادية محل القيم الروحية (ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ من الدين والعلمانية لبيتر برك وهو الفصل التاسع من المجلد الثالث عشر من الطبعة الجديدة للتاريخ الحديث من اصدار جامعة كمبردج ١٩٧٩) .

فالعلمانية هي الجزء الآخر النامي المقابل لتراجع الكنيسة أو الدين في حياة الغرب .

وللك أن تطبق هذه العوامل على افاق الحياة الغربية الفكرية والمادية : التاريخ . الدين . الكتب السماوية . كل ذلك يدرسونه مع تنحية القداسة عنه . هذا هو المنهج العلماني عندهم لمن شاء أن يتبعه وهم كثيرون ، ومنهم بعض أبناء الاسلام .

وإن التاريخ يتداوله الاستمرار والتغيير ، وإن التغير يزداد سرعة مع تطور الحياة وتوالي الكشوف العلمية . وفي التغير شمول لايدع جانبا من جوانب الحياة دون أن يطرقه . ومن هنا وجد الدين نفسه في حاجة إلى التجدد عندهم والتقدم إلى مواقع الخدمة في الحياة ، تخفيفا لآلامها ، هذا العون هو من الصور الجديدة لدور الكنيسة .

وصفوة القول أنه مع الزحف العلماني في الغرب ، فان الكنيسة تحاول أن توثق روابطها بالمجتمع والحياة ، وذلك بتحديد وتنويع اساليبها ، مستفيدة من معطيات العلم الحديث . والميدان متسع أمام أكثر من اتجاه ، وهو يزداد اتساعا مع سير الحياة .

في المجتمعات الاسلامية

إن مفهوم « الدين » في الاسلام يجمع بين الشمول الزماني والمكاني والموضوعي الذي يمثله قول الله تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِين » (الأنبياء : ١٠٧) . وهو الفطرة في قوله تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدينِ حَنيفاً فِطْرة اللّهِ التي فطَر النَّاسَ عَلَيْهَا » (الروم : ٣٠) .

وإن منهج القرآن في ذكر الأحكام هو « تفصيل مالا يتغير ، وإجمال ما يتغير » وهذا (كما يقول الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر في كتابه الاسلام عقيدة وشريعة ص ٤٨٩ وما بعدها) من ضرورة خلود الشريعة ودوامها . فليس من المعقول أن تعرض شريعة جاءت على أساس من الخلود والبقاء والعموم ـ لتفصيل أحكام الجزئيات التي تقع في حاضرها ومستقبلها . فإنها مع كثرتها الناشئة من كثرة التعامل وألوانه ، متجددة بتجدد الزمن وصور الحياة . فلا مناص إذاً من هذا الاجمال والاكتفاء بالقواعد العامة والمقاصد التي تنشدها للعالم . وبإزاء هذا حثت على الاجتهاد واستنباط الأحكام الجزئية التي تعرض حوادثها من قواعدها الكلية ومقاصدها العامة . وقد مهد النبي صلى الله

عليه وسلم وأصحابه من بعده ، طريق الاستنباط لمن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم ، وبهذا اتضح مقدار سعة هذه الشريعة وتناولها لكل مايجد في الحياة ، وأنها بحق صالحة لتنظيم جميع الشئون ، اجتماعية أو فردية إلى يوم الدين . وقد درس الشيخ شلتوت بعد هذا مكانة السنة في التشريع . وبين أن السنة أقسام ، منها ما هو تشريع وما هو غير تشريع (ص ٤٤٩ ـ ٥٠٥) وميز بين التشريع العام والخاص : ما صدر عن الرسول على وجه التبليغ بصفته رسولا ، وما صدر عنه بوصف الامامة ، وما صدر عنه بوصف القضاء .

أما ما ورد عنه وسبيله الحاجة البشرية كالطعام والشراب ، وما سبيله التجارب كالزراعة والطب ، وما سبيله التدبير الانساني في الظروف الخاصة كتوزيع الجيوش ، فليس شرعا يتعلق به طلب الفعل والترك ، وإنما هو من الشئون البشرية التي ليس مسلك الرسول عليه الصلاة والسلام فيها تشريعا ولا مصدر تشريع . (ص ٤٤٩ ـ ٥٠٠) . -

فعلماء المسلمين متفقون على أن الكتاب والسنة مصدران تستنبط منهما الأحكام الشرعية . ويأتي من بعدهما الاجماع والقياس ، وهما محل اتفاق جمهور المسلمين (وإن خالفت عنهما بعض الفرق) أما المختلف فيه فهو الاستحسان والاستصحاب والمصلحة المرسلة والعرف وقول الصحابي وشرع من قبلنا .

وفي حديثنا هذا سنقف عند حدود المصادر الأربعة المتفق عليها .

بالاضافة إلى ما سبق قوله عن الكتاب والسنة ، فقد درس علماؤنا الاجماع والقياس كما درسوا الأدلة الأخرى . والرسول عليه الصلاة والسلام أمر بلزوم جماعة المسلمين ، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى ، إلا لزوم قول جماعتهم . وأما القياس فحين لا يكون ثمة نص من كتاب ولا سنة ولا إجماع ، والاجتهاد في هذا راجع إلى الكتاب والسنة .

نصل الآن إلى مفرق طرق :

١ ـ من أول الأمر لقي الاسلام أمورا هي من الدين فتناولها بأحكامه ، ولقي أمورا هي من اجتهادات البشر فتركها لا جتهادهم ، ودعا إلى الالتزام بمكارم الأخلاق ، وعدم التعارض مع ما هو مقبول في الدين بالضرورة .

العبادات هي العبادات : وهي من ثوابت الاسلام مع مرونة في التطبيق تقتضيها ظروف الصحة والمرض ، والاقامة والسفر ، والقدرة والضعف .

والمعاملات أكثر إجمالا وأقل تفصيلا ، لما في طبيعتها من تغير . والجسر بينها وبين أصول الاسلام مفتوح ذو اتجاهين ، والحوار بينهما دائم .

كذلك نظم الحكم والاقتصاد : أكثر إجمالا وأقل تفصيلا . الاسلام يكتفي فيها بالمبادىء أكثر من اهتمامه بوضع النظم وتأتي بعد هذا الأنشطة العلمية في افاقها المختلفة المتفتحة ، وهذه يدعو إليها الاسلام ويثيب القائمين بأمرها ، ومرة أخرى نقول : يحدد لها مستواها الأخلاقي وعدم اصطدامها مع نص صريح من الكتاب والسنة ، وهي أمور تقتضي حوارا مشتركا ومن أبرز موضوعاتها الان هندسة الوراثة .

ولقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى مفهوم التجديد في حديثه الشريف :

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . (رواه أبو داود عن أبي هريرة) . والتجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة . وهذا الاحياء يقتضي التعامل مع العصر دون انطواء عنه ولا ذوبان فيه . وفي هذا الضوء نستطيع أن ندرك كيف تعامل الاسلام مع الحضارات الاخرى في عهود ازدهاره ، وكيف استقبل تراثها ترجمة وحفظا وإضافة بروح إنسانية كما ندرك أبعاد مسئولياتنا المعاصرة .

أما العلمانية أو العلمنة فينبغي ـ كما سبق القول ـ الاتفاق على مفهومها :
فإن تكن التوسع في « الأمور الدنيوية » وبحوثها ، فهذا مما يدعو إليه الاسلام ولا تعارض فيه بين الدين والدنيا . فالسعي في الأرض واستكشاف صفحات تاريخها وآفاق معرفتها ، مما يدعو إليه صريح القرآن « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (الملك : ١٥) ويقول تعالى مخاطبا رسوله وهو خطاب إلى كل انسان : « وقل ربي زدني علما » (طه : ١١٤) .

وإن تكن العلمنة صراعا بين الدين والعقل ، فلنحدد المقصود من الدين ومن العقل . ذلك لأن الاسلام يخاطب العقل . والمكلفون به هم العقلاء . ولقد جاء العقل ومشتقاته في القرآن تسعا وأربعين مرة ، هي له تكريم . وجاء العلم ومشتقاته أكثر من سبعمائة وخمسين مرة تضاف إلى المفاهيم القريبة منه كالفكر واللب والسمع والبصر .

والمناهج التي اتبعها المسلمون في المحافظة على القرآن الكريم : كتابة له من عهد النبي ، وحفظا في الصدور إلى أن جمع عثمان رضي الله عنه المسلمين على المصحف الجامع ، وما قام به جيل الصحابة والتابعين وتابعيهم وعلماء الحديث من تحقيق الأسانيد والمتون ، جهود لانجد لها نظيرا في أي حضارة اخرى ، وهي جهود عقلانية أخلاقية تجمع بين عمق العلم وسمو الاخلاص . وأمامي الآن كتاب د . محمد اركون . « تاريخية الفكر العربي الاسلامي » (منشورات مركز الانماء القومي . بيروت ١٩٨٦) وعنوان الفصل الثامن « الاسلام والعلمنة » ص ٢٧٥ ـ ٣٠٠ . . فلنقرأ معا نقولا من بعض اتجاهات العلمنة المعاصرة يقول : إن الموضوع يتدرج ضمن إطار واسع كنا قد أسميناه الاسلاميات التطبيقية ، وهو ليس مفهوما جداليا يناقض الاسلاميات

الكلاسيكية (الاستشراق) . . إن العلمنة تبقى مسألة حاضرة وملحة فيما يخص العالم العربي والاسلامي بشكل عام ، وذلك من أجل تشكيل الدولة بـالمعنى الحديث لكلمة الدولة ، كل القادة المسلمين يتمنون تطبيقها في مجتمعـاتهم . ولذلك فهم يحاولون إدخال الأفكار الحديثة إلى مجتمعات ماتـزال عتيقة البنى والهياكل في معظمها (ص ٢٧٦) ، إن مهمـة الاسلاميـات التطبيقيـة هي أن تؤسس الاطار النظري والفكري الذي يتيح مواجهة كل الصعوبات والمشاكل المعـاشـة حتى الآن بشكـل تجـريبي واقعي ومحسـوس ولكن غـير منـظر لهـا (ص٣٧٧) . ومن هذا التعميم ينتقل إلى التخصيص والتطبيق .

وبعد أن درس مثالي تركيا ولبنان درس موضوع الخلافة وفيها يذكر بكل صراحة ووضوح :

« ينبغي أن نتجنب خطأ شائعا ومنتشرا جدا في الأدبيات الاستشـراقية وعند المسلمين على السواء والذي يقول بأن الاسلام لم يعرف أبدا في تـاريخه التفريق بين الزمني والروحي . هذه فكرة ثابتة منغرسة في نفوس المستشرقين وعند الجمهور الغربي ككل . إذا لم نتخلص فورا من هذه النظرية ، فإنني أقول لكم بصراحة إن لقاءنا هذا لن يكون له أي معنى (ص ٢٨٠) .

وعرض بعد هذا ما أسماه تجربة مكة والمدينة ويقصد بها العهد النبوي من تاريخ الاسلام . ثم أعطى تقييما لعهد الخلافة الراشدة بقوله : « كان المؤرخون السابقون والفقهاء « الثيولوجيون » قد نسجوا حكاية مسلسلة للأحداث التي جرت منذ وفاة النبي مؤكدين على شرعية الخليفة الذي كان عليـه أن يتحمل مسئوليات النبي . وهذا هو الاعتقاد السائد الذي فرض نفسه في حين أننا نجد تاريخيا أن الخلافة بعد ٦٦١م كانت قد اكتسبت سلطتها فعليا وبالقوة على أرض الواقع وليس قانونيا أو شرعيا (ص ٢٨١ ـ ٢٨٢) .

ثم دعا إلى دراسة العصبيات القبلية ودورهـا في الوصـول إلى السلطة وذلك بعد قوله « إن كل الكتابات الأرثوذكسية تعطي صورة نموذجية ومثالية عن الخلفاء الأربعة الأول . إنها لاتقـدم إطلاقـا أي تحليل سـوسيولـوجي تاريخي

للأحداث (ص٢٨٢) . . لنلاحظ هنا أن الاستشراق التقليدي لم يبرز أبدا إلى دائرة الضوء هذا المفهوم (مفهوم ايديولوجيا التبرير) المضاد للشرعية الحقيقية التي لم يتح لها الوجود أبدا (ص ٢٨٣) .

جمع القرآن الكريم

ثم لننظر ما يقول عن القرآن الكريم وكيفية جمعه وإعادة قراءته .

« راح الخليفة الثالث عثمان (أحد أعضاء العائلة المعادية لعائلة النبي) يتخذ قرارا نهائيا بتجميع مختلف الأجزاء المكتوبة سابقا والشهادات الشفهية التي أمكن التقاطها من أفواه الصحابة الأول . أدى هذا التجميع عام ٦٥٦م الى تشكيل نص متكامل فرض نهائيا بصفته المصحف الحقيقي لكل كلام الله كما كان قد أوحى إلى محمد . رفض الخلفاء اللاحقون كل الشهادات الأخرى التي تريد تأكيد نفسها (مصداقيتها) مما أدى إلى استحالة أي تعديل ممكن للنص المشكل في ظل عثمان . . (ص ٢٨٨) .

ثم دعا إلى مراجعة نقدية للنص القرآني وإعادة كتابة قصة تشكل هذا النص بشكل جديد كليا . أي نقد القصة الرسمية للتشكيل التي رسخها التراث المنقول جذريا . هذا يتطلب منا الرجوع إلى كل الوثائق التاريخية التي أتيح لها أن تصلنا سواء كانت ذات أصل شيعي أم خارجي أم سني . هكذا نتجنب كل حذف تيولوجي لطرف ضد آخر . المهم عندئذ هو التأكد من صحة الوثائق المستخدمة . بعدها نواجه ليس فقط مسألة إعادة قراءة هذه الوثائق وإنما أيضا محاولة البحث عن وثائق أخرى ممكنة الوجود كوثائق البحر الميت التي اكتشفت مؤخرا (ص ٢٩٠ ، ٢٩١) .

أما عن النواحي التطبيقية في الشريعة فقد ذكر عن القرآن والحديث النبوي والاجماع والقياس « ان هذه المباديء الأربعة غير قابلة للتطبيق » (ص ٢٩٧) ونقد تطبيقها واحدا بعد الآخر (ص ٢٩٧ ، ٢٩٨) . .

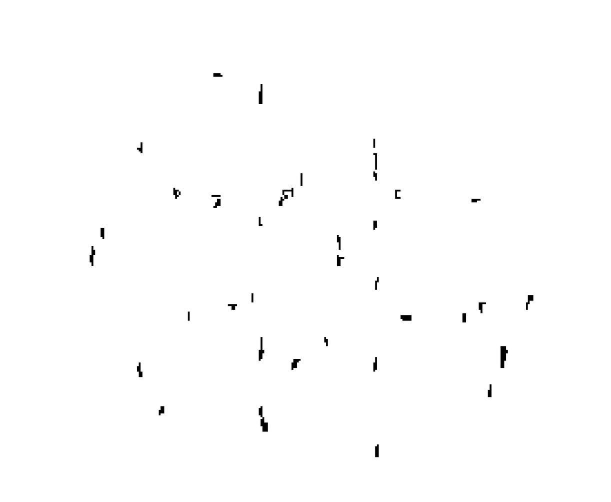
أراني في حدود المساحة المتاحة مضطرا إلى الوقوف ، فهنا علمنة تراجع النص القرآني ، والحديث النبوي ، والخلافة الراشدة وأصول الفقه والتشريع وتصرح باستحالة التطبيق ، وتضيق أو تتلاشى معها مساحة « المقدس » .

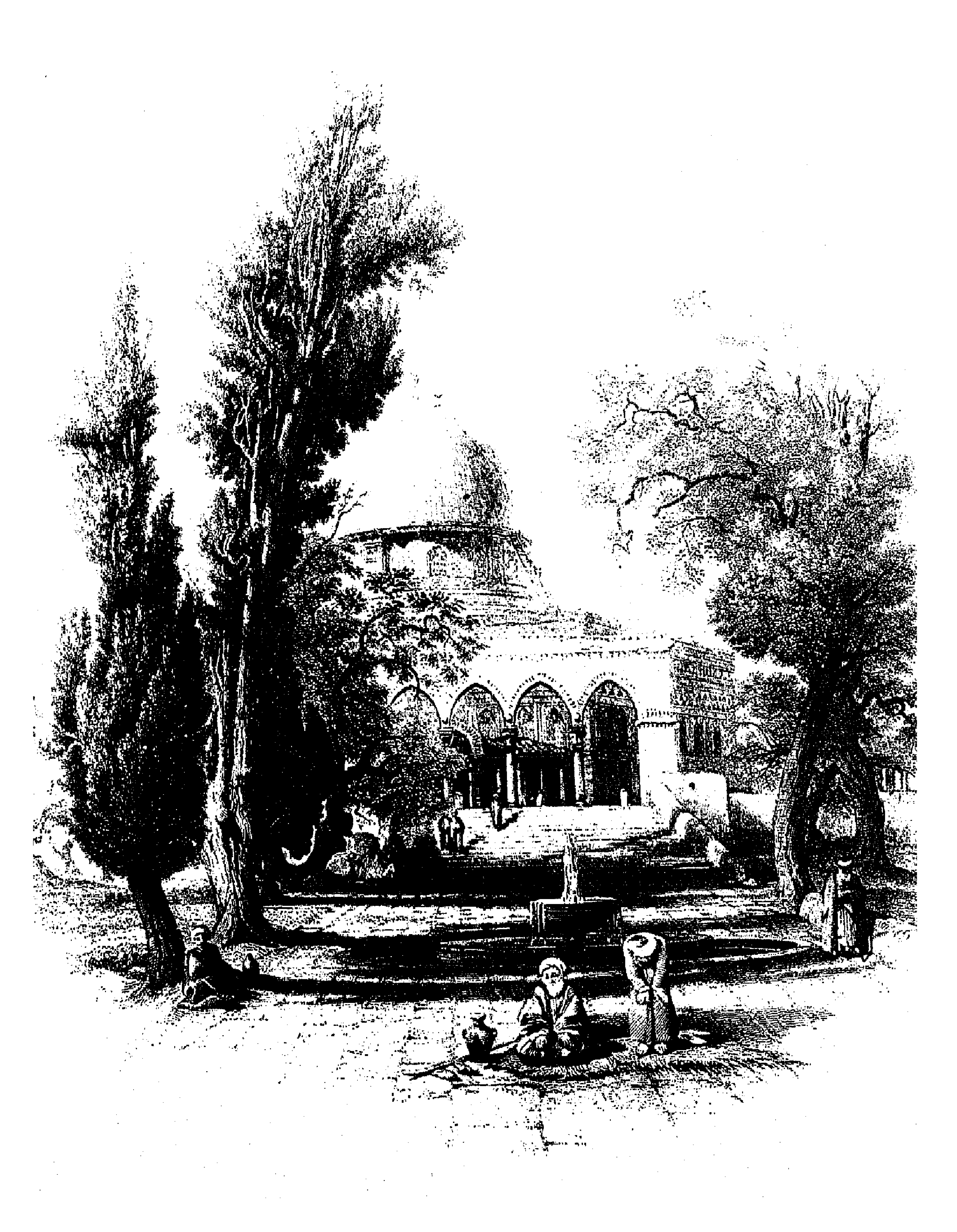
ومن قبلها رأينا تجديدا ، ومن قبله ـ ومعه ـ اجتهادا يدعو إليه الاسلام ، كما رأينا التطور التاريخي للعلاقة بين الدين والدولة في العالمين الغربي والاسلامي ، ورأينا الفجوة الحضارية التي علينا أن نعبرها ، فهل يكون العبور بأن تتجه الجهود إلى بناء الغد ؟ أم إلى هدم الماضي والوصول بالمراجعة حتى إلى نص القرآن الكريم ليصنع « بعض علمائنا » نصا قرآنيا جديدا ؟ !


من الممكن أن نستفيد من مناهج العلوم الحديثة ، وهذا واجب ومسئولية ، وأن نكون على صلة بها وحوار معها ، ولكن هذا لايعني ـ بحال ـ أن ندخل بكل مقدساتنا معامل هذه العلوم فكاً وتركيبا ، وأن نهدر جهود أجيال من العلماء ، تعرضت أعمالهم للجرح والتعديل واستطاعت أن تؤكد مصداقيتها عبر الأجيال .

وإذا كان كل جيل باسم « العلمنة » يبدأ بالشك وإعادة التقييم لكل ماسبق بذله من جهد ، فمتى وكيف يكون البناء ؟ بناء الفرد والمجتمع والحضارة معا ؟

ولعلنا نصل إلى كلمة سواء تتجه بها الجهود إلى الاضافة ، واستكمال ما نحتاج إليه في مجتمعاتنا المتخلفة ، بدلا من هدم ما بقي لدينا من ركائز لم تكن في حياتنا إلا داعية إلى الخير والتقدم .







العلمانية والدين بين الشمال والجنوب

كان أكثر الحديث في تقسيم العالم الى شرق وغرب ، ثم برزت قوة اليابان والشعوب السلافية وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي ، وجذورها آسيوية فأصبح الحديث عن شمال متقدم وجنوب أقل نموا : في الشمال نطاق العلم والقوة والثروة ، وفي الجنوب ـ أو أكثر ـ نطاقات التخلف والضعف والجوع .. ولكل منهما حظ من العلم والدين ، مع اختلاف في أمرين أساسيين : مدى هذا الحظ ، وأسلوب التفاعل بين العلم والدين ، وفي هذا الحديث نماذج تطبيقية من النطاقين ومواقع العلمانية فيهما .

لنبدأ بالنموذج الياباني ، وهو نموذج يجتذب أنظار العالم لأكثر من سبب : قيامه القوى ودخوله المعترك العالمي الذي بدأت خطواته منذ القرن التاسع عشر ، تعاظم قوته في النصف الأول من القرن العشرين .

التفجير الذري وتدمير هيروشيما ونجازاكي عام ١٩٤٥ وهو تفجير غير

مسبوق وغير ملحوق حتى الآن ، كان « هدية » التقدم العلمي الأمريكي الى الشعوب الآسيوية أولا ، ونقطة تحول في النظرة الى آثار العلم على مسيرة الانسان . . ثم كيف استطاعت اليابان أن تعيد بناء قوتها معتمدة على الفكر والابداع ، حتى أصبحت المنافس الاقتصادي الأخطر أمام الولايات المتحدة .

ولقد قامت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية بدراسات متعمقة في العقل الياباني ،تستهدف شيئا وراء مجرد التحليل والمعرفة ، وهو إعادة تركيب هذا العقل ، أو صياغته من جديد ، ليدور في الفلك الأمريكي بخاصة والغربي بعامة . وكان على اليابانيين من ناحيتهم أن يبذلوا الجهد الهادىء والمكثف والمتواصل للمحافظة على هويتهم دون انطواء ، والتقدم في المجال العلمي والتقني والاقتصادي ، بحيث تصبح هذه المجالات الثلاثة ، الركائز التى تقوم عليها الحياة الجديدة . ولابد لها من جذور تنبع من عقائدهم . أقول عقائدهم حيث التعددية عنصر أساسي من عناصر الحضارة اليابانية . وهي التي نتوقف عندها في هذا الحديث .

[illegible]

لم يكن أمام الامبراطور الياباني الميكادو بعد الهزيمة في الحرب العالمية الثانية الا التسليم وكان في ذهنه صيانة « العامل البشري » لأنه الرصيد الأكبر الذي ستقوم عليه اليابان الجديدة . وكان الامبراطور بعيد النظر الى درجة يستطيع أن يرى فيها طريق المستقبل ، رغم التفجير والاشعاع الذري . هكذا قام بالتنفيذ . وهكذا كتب وصيته لولي عهده .

ولانستطيع أن نتصور بعثا حضاريا لا يستند الى مواريثه الذاتية ، والى عناصر من خصوصيته ، والى هذا ذهب المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي عقدته هيئة اليونسكو في مدينة مكسيكو في شهري يوليو واغسطس عام ١٩٨٢ .

والذي أعلن قناعة الاتجاه العالمي المعاصر ، باحترام الثقافات وحقها في التعبير عن ذاتها وتنميتها ، دون أن تكون ظلالا لدول كبرى ، أو توابع لحضارات عملاقة .

كانت اليابان ابرز هذه النماذج القادرة على الجمع بين الأصالة والتطور . فلننظر الى هذا الأمر بتفصيل أكثر ، وبخاصة في زاوية العلاقة بين العلم والدين ، أو بين العلمانية الوافدة والأديان القديمة والجديدة . (وأرجو ألا يظن القارىء بنا خطأ . ففي اليابان أديان جديدة ظهر بعضها بعد الحرب العالمية الثانية) .

وسنرجع الى كتاب ديل ساوندورز عن « البوذية في اليابان » وقد صدرت طبعته الثالثة عام ١٩٨٠ عن دار تشارلس تتل في طوكيو . وفيه فصل عن عهد الميجي (١٨٦٨ -١٩١٢) يليه مسح للبوذية اليابانية ، وفصل عن الأديان الجديدة ، وهي الفصول الثلاثة الختامية للكتاب (من ص ٢٥٥ الى ٢٨٦) .

ففي القرن التاسع عشر حدث تنافس وصل الى شيء من الصراع بين البوذية ، والشنتوية ، والمسيحية الوافدة التي جاءت مصاحبة للتوسع الغربي . ورأت البوذية نفسها في الميزان . ماموقفها من التحدي الغربي وكيف تستطيع تأكيد قيمها ومقابلة المتغيرات الجديدة ؟

ولنذكر أن الحكومة اليابانية أقرت الشنتوية دينا وطنيا عام ١٨٧٠ باسم « دايكو » أو العقيدة الكبيرة . وأنشات إدارة حكومية للدين والتربية ، وأعطت البوذية مكانة رسمية ولكنها دون الشنتوية ، وفي عام ١٨٧٣ سافرت بعثة بوذية الى أوروبا وأمريكا لدراسة التنظيمات الغربية الدينية ، وكيف تعمل . ورأوا هناك مكانة العلم في حياة الانسان ، والعناية المتزايدة بالفكر والحرية والارادة الانسانية . وعادوا ليفسروا البوذية بأنها دين توحيدي ، وأنها أقرب الى روح العلم من المسيحية التي تذهب الى الايمان بقوى علوية لها القدرة على تغيير العلاقات بين الأسباب والنتائج ، وهي العلاقات التي يقوم عليها العلم .

وذهبوا الى أن البوذية ـ كالعلم ـ تعترف بتبادل التأثير بين جميع الأشياء (ص ٢٥٨ من المرجع السابق) وأرسلوا مبعوثا آخر عام ١٨٧٥ م الى جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة ، لمزيد من الدراسة عن أسباب نجاح المسيحية .

الابداع العلمي

لقد أثمر المزيد من الفهم والاتصال بالعالم الخارجي الاحساس بضرورة فصل العوامل الوطنية (الشنتوية) عن العوامل الدينية البحتة (البوذية) مما أدى الى إلغاء « الدايكو » أو العقيدة الكبيرة » .

وأحس الجميع بضرورة قيام سياسة حكومية جديدة تستطيع أن تقابل التغيرات والتطورات السياسية . وتراجعت الصراعات الدينية بين البوذية والشنتوية ، وبرز من وجه الغرب ذلك التحدي الحضاري الجديد ، وبخاصة في العلم والتقنيات وهو الذي خاضت فيه اليابان تجربتين : كانت أولاهما قبل الحرب العالمية الثانية ؛ وهي مرحلة ارتبط فيها العلم بالاقتصاد بالقوة العسكرية بالنظرة التوسعية ، وكانت الثانية علمية اقتصادية سلاحها الأكبر هو الابداع العلمي » على المستوى العالمي ، ورصيدها الأكبر هو العقل الانساني » القادر كل يوم على فتح آفاق جديدة .

وفي هذا « الابداع » يلتقي العلم مع جانب من الفكر البوذي الذي يذهب الى التأمل المؤدي الى « الاستنارة » او « الساتوري » اذا استخدمنا اصطلاح القوم .

والاستنارة هي كشف ذاتي لطريق جديد . . وكانت من قبل في عالم الاشراق وفلسفة الحياة . وهي الآن ـ بالاضافة الى مواريثها ـ أو بتطوير مواريثها ـ في عالم العلم والتقنيات .

والأديان الجديدة التي ظهرت في اليابان تلتقي عند ركيزة الاستنارة أو الكشف . . ونستطيع القول بأنها تكون ـ مع بعضها البعض ، ومع الأديان القديمة ـ مجمعا من الفكر الديني . . « بانثيون » .. لو أخذنا اصطلاحا قديما حديثا مستخدما في الغرب .

واستهدفت الديانات الجديدة ملء الفراغ الروحي الذي نجم عن الصراع بين الأديان وبخاصة ما كان بين البوذية والشنتوية ، وقد تحررت هذه الأديان الجديدة من الطبقة الكهنوتية ، وتجنبت الفصل القديم الدقيق بين رجال الدين من ناحية ، وبين المؤمنين العلمانيين من جهة أخرى . وأي مثقف من هؤلاء وهؤلاء له القدرة ، وله الحق ، في إمامة العبادات أو قيادتها ، وأكثروا جميعا من استخدام وسائل الاعلام الحديثة من الاذاعة المسموعة والمرئية والمطبوعات الجميلة والمبسطة .

وأبرز ما في هذه الديانات أن أحدا منها لا يدعي احتكار الحقيقة كلها . وكل منها يقبل الآخر ويتعايش معه على أساس من المساواة . وقد اتسعت أرض السماحة بينها ـ مع بعض استثناءات ـ بل وصل الأمر بينهم الى تكوين منظمة الأديان الجديدة للتعاون المشترك والاعلام بهذه الأديان . وليس غريبا عندهم أن يجمع فرد بين دينين فتكون له مقدسات شنتوية في داره ، وتردد على معبد بوذي أو أحد معابد هذه الأديان الجديدة .

مقارنة

طبيعة الفكر الديني في الشرق الأقصى ـ وبخاصة في اليابان ـ تختلف اختلافا اساسيا عن التشدد والتعصب والصراعات العنيفة التي نجدها في كل من شبه القارة الهندية الباكستانية) ، وفي ارض العرب حيث الفواصل والحدود ، والتي سبق أن شاهدتها اوروبا في الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، والتي بلغت ابعادها البشعة في محاكم التفتيش التي أقامها الكاثوليك في أسبانيا بعد

سقوط غرناطة واخراج الحكم الاسلامي منها عام ١٤٩٢ م ومطاردة كل من لا يعتنق الدين أو المذهب الكاثوليكي .

لقد تخطى اليابانيون ارض الصراع التي مايزال نفر من مفكرينا رافعا اسلحته الفكرية فيها ، واتجهوا الى قبول التحدي الحضاري،وذهبوا الى تعميق التعددية الدينية والتعايش بين الأديان والعقائد والمذاهب . وأصبح المصنع او « المؤسسة » وحدة اساسية ـ مع الاسرة في بناء المجتمع الجديد ورفع انتاجيته . فحياة اليابان هي في انتاجها وابداعها،والوقت اغلى عندهم من ان يضيع في نقاش نظري مما يأكل أوقات الكثيرين عندنا ، ويستنزف حيوية شبابنا ، دون مردود على حاضر أو مستقبل .

كذلك لم يقف اليابانيون امام الحضارة الغربية الغازية موقف الانبهار ، ولكن موقف الاختيار ثم الابتكار . بدءوا « مقلدين » في بعض الأوقات ، ثم أصبحوا « مجتهدين لم يذوبوا في صراع المذاهب والعقائد ، ولم تضطرب خطاهم في طريقهم الصاعد الذي اختاروه جامعا بين أصالتهم وانفتاحهم حاملا شخصيتهم النامية المتطورة ، قادرا على « الاستنارة » وكشف الجديد .

وأختم هذا الحديث عن التجربة اليابانية بقصة قصيرة ذكرها الفيلسوف الياباني د . ت سوزوكي في كتابه « مقدمة الى مذهب الزن البوذي » (ط ١٩٧٤ عن دار رايدر) وفيه يخصص الفصل السابع عن الساتوري (او الاستنارة) باعتباره كسبا لوجهة نظر جديدة . ويذكر أن راهبا بوذيا كان يبحث عن الاستنارة وصاحَبَه في رحلته معلم صديق ، وقال له « انني راغب في عونك . ولكن هناك أمورا ينبغي ان تقوم بها بنفسك . فأنت اذا كنت جائعا او ظامئا ، هل أستطيع أن آكل او اشرب نيابة عنك ؟ وأنت وحدك الذي تستطيع ان تحمل جسدك وأنت على هذا الطريق » .

وفتح هذا القول بصيرة الراهب في وجوب الاعتماد على النفس في كشف الطريق (ص ٩٠) والاعتماد على الذات ـ عمليا ـ فردى ، كما هو جماعي ووطني . ويبدو عميقا وقويا في مجتمع متجانس كالمجتمع الياباني .

والذين ينادون عندنا بالعلمانية ، انما يلمسون جانبا واحدا من حياة الغرب ، مع تعدد مفاهيم العلمانية هناك .

وفي عرض العلاقة بين العلمانية والدين في أوروبا منذ القرن الخامس عشر حتى الآن ، يمكن الرجوع الى بحث بيتربرك وعنوانه « الدين والعلمانية » وهو الفصل الحادي عشر من الجزء الثالث عشر من الطبعة الجديدة لتاريخ كمبردج الحديث / ١٩٨٠ .

والغرب سوق مركزي للمذاهب : ترى فيه الذين ينكرون الدين أساسا وكأنهم - في جوهرهم - يذهبون الى ماذهب اليه قدامى العرب وسجله القرآن الكريم « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ان هم إلايظنون » (الجاثية : ٢٤) . وقد لقيت من هؤلاء علماء كبارا لاعلاقة لهم بأصل الوجود ولا حساب الآخرة ، وحياتهم وجودهم ، وهما محصوران بين مولد وموت ، لا يعنيهم غير ذلك قبل ولا بعد .

وترى هناك الذين يتمسكون بنصوص ونبوءات العهد القديم والجديد تمسكا حرفيا ، حتى فيما يتعلق بالحروب المدمرة التي ينتهي بها عالمنا الى خراب . وأمامي الآن كتاب الصحفية الامريكية جريس هالسل .

وعنوانه « النبوءة والسياسة : الانجيليون المناضلون على طريق الحرب النووية »(وهو صادر عن دار لورنس هل - كنكتكت - الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٨٦) ويبشر هؤلاء المناضلون الانجيليون بأن الدمار الذري لا يمكن تجنبه ، وتتجه رسالتهم الى اقناع كبار المسئولين الحكوميين في الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل وغيرهم بذلك . وتصل اصواتهم وبخاصة عبر التلفاز الى أكثر من ستين مليونا من المشاهدين . . ويتبنى اليمين المسيحي الجديد ، والحزب الجمهوري - بنجومه الجديدة الصاعدة - هذا الاتجاه . ويبدو أن لهم موارد مالية غير محدودة . ولهم موقع في فلسطين حيث الكيان الاسرائيلي

« للمعركة الكبرى الاخيرة ، لأن هذه ارادة الله » . . وهؤلاء يحبذون المزيد من دعم الترسانة الحربية الأمريكية ، وبالتالي دعم « اسرائيل » ووصلت بعض نبوءاتهم الى كلمات رئاسية في الولايات المتحدة . وفي هذا المجال الاعلامي تبرز اسماء بات روبرتسون ، جيمي سواجارت ، جيري فالول . . هؤلاء وغيرهم يبشرون بأن الحرب النووية هي التي تمهد لعودة المسيح الى الأرض . .

هذه هي معركة « هرمجدون » وقد جاءت في الاصحاح السادس عشر عدد ١٤ -١٦ من رؤيا يوحنا اللاهوتي . وفيها يتنبأ كاتب الرؤيا أن هذا الموقع سيتحول الى ساحة للرب . ويجتمع فيه كافة ملوك الأرض في يوم قتال الرب ! وتقع مجدو في مرج ابن عامر ، وهي على خط المواصلات بين القسمين الشمالي والجنوبي من فلسطين ، ولها مكانة استراتيجية من قديم .

لقد أهدت المؤلفة كتابها الى الذين يبحثون عن السلام . وذكرت تجربتها في رحلتها الى الأرض المقدسة من جيري فالول ، وخصصت فصلا عن جهود « اسرائيل » في التحالف مع اليمين المسيحي الجديد (ص١٤٥ -١٦٠) وثلاثة فصول عما تجنيه اسرائيل من هذاالتحالف (ص ١٦١ - ١٨١) وهى ثلاثة مكاسب : المال ، مزيد من الأرض ، مزيد من « زراعة » الدعم المسيحي في الأرض الأمريكية . . !

وتحدث الكتاب أن هذه الجماعات -من اليمين المسيحي الأصولي الجديد المؤيد لاسرائيل - وصل عددها الى مائتين وخمسين ، وذكر اسماء وابرز هذه المنظمات ونماذج من الأدوار التي قامت بها تأييدا « لاسرائيل » وعونا لها على تحقيق النبوءات . وخصصت الكاتبة الفصل الأخير عن مزج الدين والسياسة (ص١٨٥ - ١٩٤) . وتختم الكتاب بفقرة جاء فيها :

« وفي عظات جيري فالول وغيره من التلفازيين الانجيليين افتقدت حديثهم عن الموعظة على الجبل (وهي اروع عظات المسيح الانسانية) وافتقدت ان يخبرونا ان المسيح اختار طريقا غير قائم على القوة الحربية . ان طريقه لم يكن

الغـاء لحق الفرد في الملكيـة ، ولا الغاء للبحث عن الحكم السيـاسي في هذه الأرض . لقد جاء داعيا الى التقدم بالحياة واثرائها . لقد جاء برسالة السلام . وبالسلام علمنا ان نحافظ على الحياة وان نزيدهاجمالا (ص ٢٠٠) . . !إن بين الذين رأيناهم ينكرون الدين ومصدره الالهي نكرانا تاما ، ولا يرونه الاظاهرة اجتماعية ، وبين الأصوليين الذين يتمسكون بحرفيـة النصوص الـداعية الى الحرب الكونية هؤلاء وهؤلاء في الغرب ينتشر حشد من المذاهب والآراء بين أقصى العلمانية واقصى الحرفية النصية في الدين .

والآن : أين الطريق ؟

أردت بهذا الحديث أن أؤكد أربعة مبـادىء هي : التعدديـة ، التعايش ، الاختبار ، الابداع . . والتعددية تقتضي حسن دراسـة التراث اولا ، وفهم الحاضر واستشراف المستقبل ، والقدرة على التحليل اولا ، والتركيب ثانيا ، لتكوين صيغة تستطيع ان تستجيب لمسئوليات الحاضر وهو في طريقه الى بناء المستقبل .

والتعايش يقتضي ان تتسع آفـاقنا لنـدرك أننا لسنـا وحدنـا في هذا العـالم العريض ، واننا لكي نمارس حق الاختيار ، علينا ان نعترف به لغيرنا ، ومن الاختيار علينا ان نصعد الى مستوى الابداع .

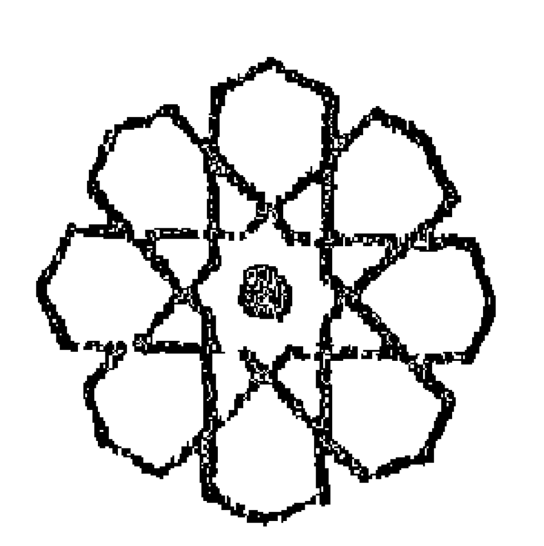
ولا أود أن نبدأ من بعيد . . وليكن البدء بوطننا العربي ومن حوله عـالمنا الاسـلامي . . ففي ارض الحضارات العـريقة من الـطبيعي ان تتعدد الآراء والمذاهب ، فماذا علينا لو كان للفرد معتقده الذي يحترمه الآخرون ، كما يحترم هو معتقدهم فتكون صلته بمعتقده(دينا) وتكون نظرته الى معتقد غيره ثقافة . وليس هناك ما يدعو الى نزول الخلافات المذهبية والعقائد الى صراعات الحياة

اليومية . لتكن دراسة الخلافات « علمية » للمعرفة ، وليكن التعاون فيما نلتقي فيه ، وهو كثير .

وعلى الذين يعيشون في وطن واحد واجبات نحو هذا الوطن : ان يحافظوا على ارضه وعلى وحدته الوطنية ، وان يقبلوا التحدي الحضاري الداعي الى التقدم ، وان يبذلوا الجهد متعاونين .

وعلى الذين يعيشون في أوطان متجاورة وتجمعهم لغة اوعقيدة او حتى مجرد الحوار ، ان يؤمنوا بالتعايش . واذا كانت بينهم فروق مذهبية فلا يذهب معها الود . وان يحاولوا الاشتراك في مشروعات اوسع لمقابلة مسئوليات الحياة وليدعوا أحقاد التاريخ للتاريخ ، وليدعوا التقليد في كل من العلمانية والتعصب الممقوت . وليكن لهم الحق في أن يصنعوا لأنفسهم تاريخا جديدا يقوم على التعددية والتعايش والاختيار والابتكار . . ولتكن هذه الأربعة وجوها لكعبة الفكر الصاعد الى الغد .

ان الاختيار بين الثنائيات في ذاته قيد ، فلعل وراء الثنائية فكراً ثالثا او رابعا ، هو استثمار افضل ما في الحاضر لبناء المستقبل . ومن أجل ذلك ذكرت النموذج الياباني بشيء من التفصيل ، وأشرت الى هذا الحشد الهائل من الافكار والفلسفات ، لتكون لدينا القدرة على استنبات الأفكار ، لا مجرد استيرادها ، دون مراعاة للعوامل الطبيعية والبشرية .



الإسلام بين الإخاء والدّماء

حاول غيرنا من أصحاب الأديان أن يقيم فوق أخاديد الصراع القديمة جسورا من الاخاء والتعايش ، ونجحوا في ذلك . ومازالت أخاديد الصراع الاسلامية تحتاج الى جسور الاخاء .

لنبدأ بنماذج مما بين المسيحية واليهودية في القرن العشرين ، وقد اقتربنا من خواتيمه ، ونقارن بين هذا وبين ماكان بينهم من قديم . ولعل أبرز انجازات الفكر المسيحي فيه ، ان لم يكن أبرزها جميعا ، أعمال :

المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني

بدأت فكرته عام ١٩٦١ ونشرت قراراته في عام ١٩٦٥ . وصدرت له ترجمة عربية في مصر ، وبعدها بثلاث سنوات صدرت ترجمة عربية ثانية من بيروت « ١٩٦٩ » ، وهي التي أمامي الآن عند كتابة هذا المقال .

العربي العدد ٣٦٠ نوفمبر تشرين الثاني ١٩٨٨م .

وتهمنا هنا نصوص جاءت في الجزء الثاني تحت عنوان « تصريح في علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية » (ص . ٣٨١ - ٣٩٥) .
النص الأول عن الاسلام ، والثاني عن اليهودية ولكن لنقف قليلا عند مدخل القسم الثاني من التصريح وعنوانه « الأفكار الرئيسية » . يقول : « لم يسبق لأي من المجامع المسكونية أن تطرق الى علاقة الكنيسة بسائر الديانات . وان حدثت محاولات في هذا المعنى ، فلقد ظلت فردية ، دون أن تؤدي الى نتائج عملية جماعية » ثم تاتي اشارة الى امانة السر الخاصة التي انشئت في الفاتيكان عام ١٩٦٤ ، والى وثائق أخرى تدعو الى الحوار مع كل المؤمنين وذوي الارادة الصالحة « كل ذلك هو بداية لفجر جديد في العلاقات التي يجب أن تنمو بين الكنيسة والديانات الاخرى القائمة في العالم » .

فهنا تأكيد على أن هذا « نهج جديد » في تاريخ الكنيسة . وهو « نهج نابع من سلطة مركزية » أحست بالمتغيرات التي يمر بها العالم . وتجاوبت معها .

وعرض القسم الثاني بعد هذا للمقطع الخاص بالاسلام ، وبيَّن العقائد المشتركة بين الاسلام والمسيحية من ناحية الايمان ومن ناحية الأخلاق - وسنذكر النص بعد قليل - ثم انتقل الى القضية المحورية في التصريح وهي « قضية تبرئة اليهود من قتل المسيح » ويذكر أن الكنيسة عمدت قبل المجمع الى نزع كل قول من كتبها الطقسية يكون منافيا للحقيقة التاريخية والكتابية فيما يتعلق باليهود . وهذا مادفعها ايضا الى أن تعالج في « المجمع » قضية تبرئة اليهود من قتل المسيح . ماذا تعني هذه التبرئة التي كان لها صدى كبير في الأوساط المسيحية ، وخاصة في الاوساط العربية ، نظرا لمابين هذه الأوساط « واسرائيل » من نزاع وعداء ؟ .

فهناك تعديلات طرأت على الكتب الطقسية رفعت منها ماكان يراه اليهود اساءة لهم وهي نصوص ظلت الكنائس ترددها قرنا بعد قرن ، وكان لها أثرها في رسم صورة اليهودي في العالم المسيحي وهو يسمعها في كنائسه .

والآن فلننظر الى النصوص :

عن الإسلام :

« وتنظر الكنيسة بعين الاعتبار أيضا الى المسلمين الذين يعبدون الاله الواحد الحي القيوم الرحيم الضابط الكل ، خالق السماء والأرض المكلم البشر وانهم يجلون يسوع كنبي ، وان لم يعترفوا به كإله ويكرمون أمة العذراء . . وعلاوة على ذلك انهم ينتظرون يوم الدين عندما يثيب الله كل البشر القائمين من الموت ، ويعتبرون أيضا الحياة الاخلاقية ، ويؤدون العبادة لله لاسيما بالصلاة والزكاة والصوم .

واذا كانت قد نشأت ، على مر القرون ، منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين ، فالمجمع المقدس يحض الجميع على أن يتناسوا الماضي ، وينصرفوا باخلاص الى التفاهم المتبادل ، ويصرفوا ويعززوا سوية العدالة الاجتماعية والخيور الاخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع الناس . »

هذا أبرز ما جاء في هذا المقطع من التصريح ، وقد جاءت من بعده . على المستوى العملي . خطوط متقاطعة أبرزها :

خط يستهدف الحوار واللقاء والمزيد من الفهم ، ومهدت له الفاتيكان باصدار كتب عن أصول الحوار ، منها كتاب خاص بالاسلام . وقامت الامانة المختصة بالشئون الاسلامية بالاتصال بالدول والمؤسسات الاسلامية لاجراء الحوار ، وكان بعضه في عواصم اسلامية ، وبعضه في عواصم في اوربا والعالم الجديد ، ومازال بعض ذلك مستمرا ، كما أن الحوار مستمر مع مجلس الكنائس العالمي الذي ينظم الكنائس البروتستانتية على الصعيد العالمي ، ويجري المجلس حواره مع الأديان الكبرى في العالم ، وله كتبه ومطبوعاته الدورية كالفاتيكان .

خط تبشيري يعمل في قلب العالم الاسلامي وفي أطرافه وبخاصة في مناطق الفقر والحاجة ، ومدخله المدرسة والمستشفى وتعليم الحرف اليدوية ، ثم فتح أبواب التعليم الأرقى لمن يقبلون العلم والتبشير معا ، ولهذا الخط خططه العالمية ، ومنها خطط محددة للعالم الاسلامي ، وللأديان الكبرى الاخرى .

وعن اليهودية

يقول التصريح « وبما أن للمسيحيين ولليهود تراثا روحيا مشتركا وساميا يريد هذا المجمع المقدس أن يوحي بالمعرفة والاعتبار المتبادلين وأن يعززهما بين الاثنين ، ويحصل ذلك خصوصا بالدروس الكتابية واللاهوتية وبالحوار الأخوي .

وان تكن سلطات اليهود وأتباعها هي التي حرضت على قتل المسيح « راجع يوحنا ٦/١٩ » لايمكن مع ذلك أن يعزى ما اقترف أثناء آلامه ، الى كل اليهود الذين كانوا يعيشون آنذاك دونما تمييز ، ولا الى يهود اليوم . وان تكن الكنيسة شعب الله الجديد ، يجب مع ذلك ألا ينظر الى اليهود كمن رذلهم الله ولعنهم ، كما لو كان ذلك ناتجا من الكتب المقدسة . فليحرص الجميع اذا في التعليم المسيحي وفي الوعظ بكلام الله على ألا يعلموا شيئا لايتلاءم مع الحقيقة الانجيلية ومع روح المسيح » .

ثم يضيف المقطع تأكيدا يتعلق باللاسامية ، هذا المصطلح الذي حاول اليهود اشاعته ، كأن أي اضطهاد أو عداوة لفرد منهم لأي عمل قام ، انما هي عداوة لأبناء سام بن نوح . . وكأنهم وحدهم الذين انحدروا من ذريته . . !!
ولكن هذا موضوع آخر .
نذكر المقطع التالي ونكتفى به :

« علاوة على ذلك ان ألكنيسة التي تشجب الاضطهادات كلها ضد الناس ايا كانوا تتأسف للبغضاء وللاضطهادات ولكل مظاهر مقاومة السامية التي استهدفت اليهود في أي زمن كان ، وأيا كان مقترفوها . والكنيسة لاتدفعها الى ذلك الدوافع السياسية ، بل محبة الانجيل الدينية متذكرة التراث المشترك مع اليهود »

كان هذا التصريح نقطة تحول خطيرة في تاريخ العلاقات بين اليهودية والمسيحية . وكان من بعده اصرار من اليهود ، واستقصاء لرفع أي مذمة لهم

في أي كتاب ديني أو صلاة من صلوات القوم في كنائسهم ، وامتدت هذه الرقابة والمراجعة الى الكثير من آفاق الحياة العامة .

سطور من إنجيل متى :

ولكن ماذا كان موقف اليهود من المسيح عليه السلام كما تذكره الأناجيل ؟ نقرأ سطورا من انجيل متى :

« وكان رؤساء الكهنة الشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه » « ١٦ : ٥٩ »

« ودبر هؤلاء جريمتهم وحركوا الجمع ليطالب بقتل المسيح على الرغم من ان بيلاطس كان يعلم أنه بريء ولما أصروا على أن يطلق أسيرا آخر هو باراباس « وكان الوالي معتادا أن يطلق لهم أسيرا واحدا في عيدهم » أخذ بيلاطس ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا اني بريء من دم هذا البار . أبصروا أنتم فأجاب جميع الشعب وقالوا : دمه علينا وعلى أولادنا . حينئذ أطلق لهم باراباس . وأما يسوع فجلده ـ ليصلب » « ٢٧ : ٢٤ ـ ٢٦ »

نظرة اسلامية :

ونحن ـ المسلمين نؤمن بقول الله تعالى عن علاقة اليهود بعيسى عليه السلام وأمه الطاهرة التي ضربها الله مثلا كريما في كتابه « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه . ماهم به من علم الا اتباع الظن . وماقتلوه يقينا . بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما » « النساء : ١٥٦ . ١٥٨ » . هذا بعد أن أدانهم الله في الآية قبل ذلك : بنقض الميثاق ، والكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق .

نحن ـ المسلمين ـ نؤمن بطهارة مريم ونبوة عيسى ، ونقرأ في كتاب الله

قوله عن النصارى « لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون . واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » « المائدة : ٨٢ ـ ٨٣ » .

نحن ـ المسلمين ـ فتحنا أرضنا وقلوبنا لكل صاحب دين اضطهده قومه لخلاف مذهبي أو اضهده أهل دين آخر ، ووصل أهل الكتاب في ديار الاسلام الى مناصب رفيعة ، وعاملهم المسلمون كمواطنين لهم حقوق المواطنة الكاملة مع حرية العبادة كما تنص على ذلك آيات القرآن والاحاديث الشريفة ، وكما وضحته كتب الفقه الاسلامي .

نحن ، بعد هذا كله ، تنصب علينا العداوات من العالم الغربي ويتعاون هناك بعض أهله من يهود ومسيحيين .

كيف استطاع العقل اليهودي أن يصل الى تحقيق هذه الاهداف ؟ مع أن اليهودية لاتعترف لا بالمسيحية ولا بالاسلام ، ولاتؤمن بنبوة عيسى ولا طهارة مريم البتول ؟

الواقع أن المعابر أقيمت في العالم الغربي بين اليهودية والمسيحية على الرغم من كل الأحقاد والثارات والنصوص الواضحة في الأناجيل على دور اليهود وقت قيام المسيحية ، هذا فضلا عن المعابر بين المذاهب المسيحية ، ثم بين المسيحية والعالم من حولها .

والواقع أن المعابر ضعيفة ومتقطعة بيننا وبين أنفسنا قبل أن تكون بيننا وبين غيرنا .

ولقد حاولنا الحوار مع العالم المسيحي ، وكانت ـ وما تزال ـ هناك جهود مبذولة في هذا السبيل ، ولكن هذا الحديث الطويل الذي أسوقه اليوم يستهدف :

الحوار بين المسلمين :

صحيح أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة رضي الله عنهم لقوا ربهم شهداء : عمر بن الخطاب قتله فيروز أبو لؤلؤة وهو من سبايا حروب الفرس وهو غلام المغيرة بن شعبة ، وكانت له صلته في المدينة بالهرمزان . وكان من ملوك الفرس ، ثم أقام في المدينة كواحد من الناس لافضل له على واحد . . ولما تكاثر الصحابة على القاتل ليمسكوا به ، أصاب عددا منهم بجراح ، ثم طعن نفسه طعنة قاتلة لما أيقن بوقوعه في أيديهم .

عثمان بن عفان قتله ثائرون عليه من أبناء المدينة ومن البصرة والكوفة ومصر . ولم يحاكم من أجله أحد وانفتح بمصرعه باب الفتنة .

علي بن أبي طالب قتله عبد الرحمن بن ملجم في مؤامرة ثلاثية . ونجا من القتل معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص . ولم يقتل بالخليفة الرابع أحد الا قاتله .

فاذا أحصينا من وقع عليهم حكم القتل في استشهاد الخلفاء الثلاثة ، كانوا رجلين . . لا أكثر . . !

ولكن شلال الدم انحدر بعد هذا عنيفا من عام ٦٠هـ ولم يهدأ نسبيا الا بعد ربع قرن شهد أشد مامر على الاسلام من المآسي بأيدي أبنائه :

- في الخط الأموي كان الخلفاء بعد معاوية : يزيد ومعاوية الثاني ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان .
- وفي خط أهل البيت وبني هاشم كان الحسن ثم الحسين بن علي
- وفي خط قريش كان عبد الله بن الزبير

وكانت أبرز المآسي :

- استشهاد الحسين والكثير من أهل بيته في كربلاء عام ٦١هـ
- انتهاك حرمة المدينة المنورة واستباحتها عام ٦٣هـ بعد موقعة الحرة
- حصار مكة عام ٦٤هـ ورمي البلد الحرام بالمنجنيق .

ـ الحصار الثاني لمكة عام ٧٢ هـ ورميها مرة ثانية بالمنجنيق واستشهاد عبد الله بن الزبير .

أضف الى هذا الصراعات بين الخلفاء وبعض القادة أو فيما بين القادة كما حدث بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبد الرحمن بن الأشعث . ومن قبل ذلك ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي ، وثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي باسم محمد بن الحنفية « ابن الامام علي كرم الله وجهه » . . هذا الى ثورات الخوارج .

ولك أن تنظر ، وان كنت لاتستطيع ان تحصى ، كم سال فيها من دماء ، مضافة الى ما أريق منذ الفتنة الكبرى في عهد عثمان .

طريق الاخاء بعد الدماء :

يستوقفني تعقيب الشيخ محمد الخضري على مصرع سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، في كتابه « تاريخ الامم الاسلامية : الدولة الاموية »« ٢ : ٤٦ » .

« ولو نظرنا الى المسألة بنظر صحيح لقلنا : خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته ، بعضهم سيىء القصد ، والبعض الآخر تابع لهم ، ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لايتفق مع أصول الاسلام ، ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيما ، ثم ذهبوا الى من له الحق أن يدينهم . ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده ، أو تبيين الصواب له لخطئه . وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هوالاستفادة مما كان . فالعاقل كل همه أن يتعلم ويفهم ، لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية » .

في مصارع الخلفاء الراشدين الثلاثة أو في مصارع الطالبيين « وقد أفرد لهم أبو الفرج الاصفاني كتابا برأسه يحمل هذا الاسم تقطر صفحاته دما » .

من نحاسب الآن ؟ وهل يحمل كل المسلمين ، أو كل أهل مذهب بعينه عقاب جريمة حدثت من حاكم أو قائد ؟ وهل يحمل أبناؤهم من بعدهم ذنب السابقين ، دون ان يشارك الأبناء في هذه الدماءأو يرضوا عنها ؟ من نحاسب الآن على هذه المصارع العزيزة على قلوبنا جميعا ؟ ألسنا في حاجة الى تبرئة الأجيال اللاحقة من جريرة دماء أريقت في أجيال سابقة ، ولم يرض عن هذه الجرائم أهل ذلك العصر ؟ ولمصلحة من تزرع الأحقاد القديمة في النفوس الغضة الجديدة ؟ اننا في حاجة الى « نهج جديد » يدرس الماضي لما فيه من عبرة ، ويتوقى المزالق التي أوقعتنا فيها الصراعات السياسية ، وتنازع السلطان ، ورؤية كل فريق أنه أحق بالأمر من غيره .

من جسور الاخاء

نحن بحاجة حقيقية الى تبرئة الأجيال الجديدة أولا من هذه المآسي ومد جسور الاخاء فوق أخاديد الدماء .

أين بنو أمية الآن ؟ وبعضهم مسئول عن هذه الدماء تماما كمسئولية فيروز أبي لؤلؤة وعبدالرحمن ابن ملجم ، ويزيد بن معاوية ، وقادته الذين انتهكوا حرمة المدينة ومكة ، ومسئولية أي قائد قاد جنوده الى معركة خاسرة ، دون ان يستعد لها ، ولكن هذه كلها أجيال مضت وحسابها عند الله تعالى .

فكيف نتخذ مما حدث « أمصالا » نتقي بها نكسات الفتنة وأوبئتها ، وقد أخذت تنتشر مع الصحوة الاسلامية المعاصرة ؟

ثم لو تركنا هذه الدماء القديمة ، لوجدنا دماء جديدة وثارات بين بعض الحكومات والأنشطة الاسلامية ، تكاد أن تكون تجسيدا لبعض الصراعات القديمة ، حين يظن كل فريق أنه يمتلك الحق . وأن غيره على الباطل . ويبدأ العدوان بين حاكم ومحكوم أو بين جار وجار . وأحيانا ترتدي الثارات القديمة ثيابا جديدة . وكأنك تشهد ـ من جديد ـ صراعات مذهبيا أو نزاعا

على سلطان باسم الدين بين الأمويين والعباسيين وأهل البيت والخوارج في محيط من الملل والأهواء والنحل .

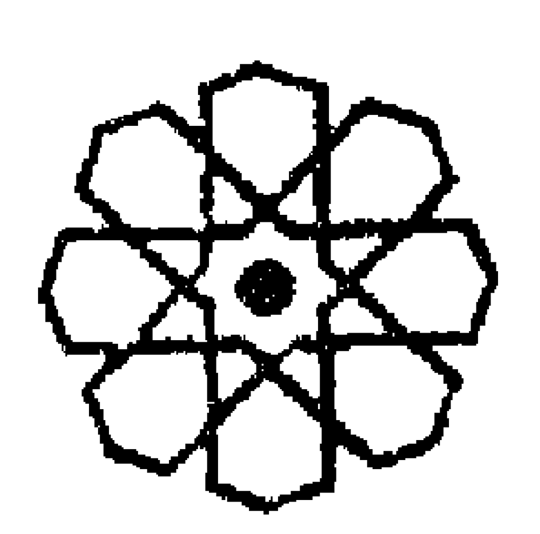
وقد تنتهي الصراعات العنيفة الى حين ، وتضع الحروب أوزارها . ولكن اذا لم نحاول وقت الهدنة أن نعيد النظر في تبرئة الأجيال الجديدة من وزر الجرائم القديمة ، واذا لم نحاول تربية الأبناء على الاخاء والحب ، واذا تركنا توجيه الشباب خاضعا لأسلوب الحقد والكراهية ـ فإن بذور الحقد تعود الى تثبيت جذورها في القلوب والعقول وتمد سوقها وفروعها ، وتسعى الى ايقاد الحروب والصراعات متى استعادت قوتها واستطاعت التعبير عن نفسها .

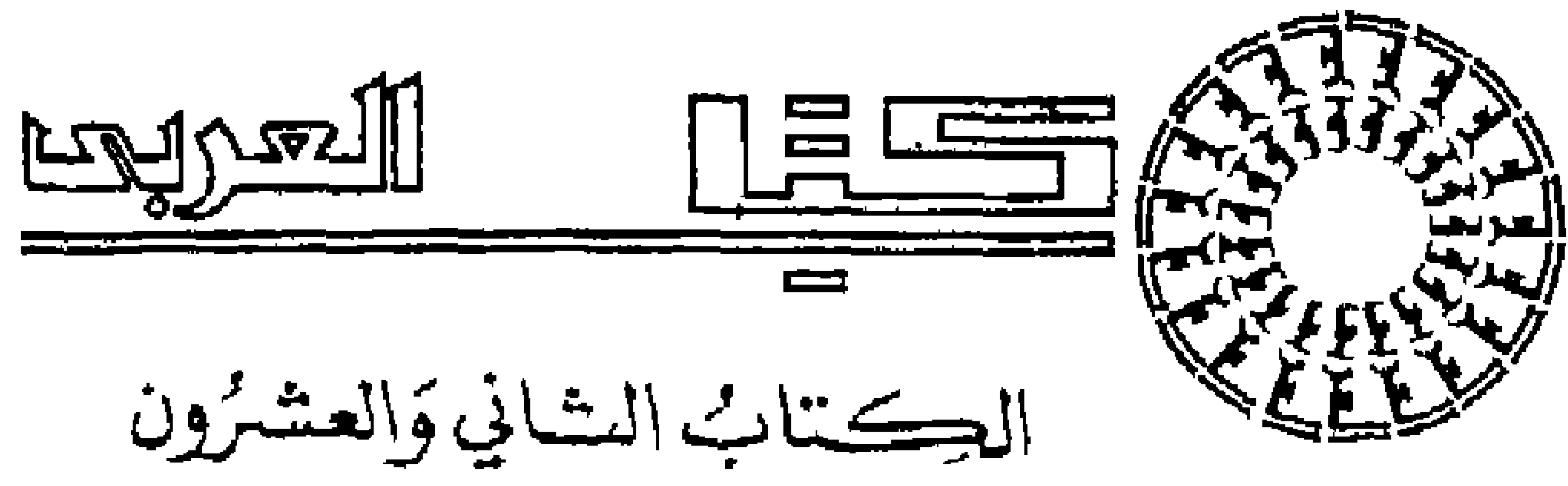
وهذه كلمة الى علماء المذاهب الاسلامية ، ودعوة الى اعادة النظر ، في مناهج التاريخ الاسلامي والتربية الاسلامية ، دعوة الى جامعاتنا ومجامعنا ، أن تتعاون جميعا على تأكيد ركائز ثلاث :

- تبرئة الأجيال اللاحقة من دماء الأجيال السابقة .
- دراسة هذه المآسي لتأكيد ضرورة الاخاء وأخطار الصراع والأحقاد ، وتطهير أرض الاسلام وعقول أبنائه من تلك الالغام الفكرية .
- دعم الجهود المشتركة الجامعة بين المذاهب الاسلامية لبناء حاضر الاسلام ومستقبله ، بناءً يقوم على سماحة العقيدة ومتطلبات العصر . ونحن في ذكريات المولد النبوي الشريف « ١٤٠٩هـ » نذكر حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ، عسى أن يكون لنا على طريق الاخاء نورا :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

« رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنهم أجمعين » .





الكتاب الثاني والعشرون
١٥ يناير ١٩٨٩

الإسلام والعروبة
في عالم متغير

الفهرس

الفهـــرس

صـــدر مـــن

كتاب العربي*

● الكتاب الأول
الحرية .... د. أحمد زكي (يناير ١٩٨٤)
● الكتاب الثاني
العلم في حياة الإنسان .... د. عبدالحليم منتصر (أبريل ١٩٨٤)
● الكتاب الثالث
المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة .... (مجموعة كتّاب) (يوليو ١٩٨٤)
● الكتاب الرابع
مراجعات حول:
العروبة والإسلام وأوروبا .... د. محمود السمرة (أكتوبر ١٩٨٤)
● الكتاب الخامس
العربي ومسيرة ربع قرن مع:
الحياة .. والناس .. والوحدة
في دول الخليج العربي .... (مجموعة كتّاب) (نوفمبر ١٩٨٤)
● الكتاب السادس
طبائع البشر .. دراسات نفسية واجتماعية ... د. فاخر عاقل (يناير ١٩٨٥)
● الكتاب السابع
حوار .. لا مواجهة
دراسات حول الإسلام والعصر ... د. أحمد كمال أبو المجد (أبريل ١٩٨٥)
● الكتاب الثامن
آراء ودراسات في: الفكر القومي ...... (مجموعة كتّاب) (يوليو ١٩٨٥)

---

* تطلب من موزعي العربي

● الكتاب التاسع

أضواء على لغتنا السمحة .... محمد خليفة التونسي (أكتوبر ١٩٨٥)

● الكتاب العاشر

الكويت ربع قرن من الاستقلال .... (مجموعة كتّاب) (يناير ١٩٨٦)

● الكتاب الحادي عشر

نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر ... د. حازم البيلاوي (أبريل ١٩٨٦)

● الكتاب الثاني عشر

السلوك الإنساني .... الحقيقة والخيال د. فخري الدباغ (يوليو ١٩٨٦)

● الكتاب الثالث عشر

آراء حول قديم الشعر وجديده .... (مجموعة كتّاب) (أكتوبر ١٩٨٦)

● الكتاب الرابع عشر

المسلمون والعصر .... (مجموعة كتّاب) (يناير ١٩٨٧)

● الكتاب الخامس عشر

من أسرار الحياة والكون .... د. عبدالمحسن صالح (أبريل ١٩٨٧)

● الكتاب السادس عشر

دراسات حول الطب الوقائي .... (مجموعة كتّاب) (يوليو ١٩٨٧)

● الكتاب السابع عشر

خطاب الى العقل العربي .... د. فؤاد زكريا (أكتوبر ١٩٨٧)

● الكتاب الثامن عشر

المسرح العربي بين النقل والتأصيل .... (مجموعة كتّاب) (يناير ١٩٨٨)

● الكتاب التاسع عشر

الفلسطينيون من الاقتلاع الى المقاومة ... (مجموعة كتّاب) (أبريل ١٩٨٨)

● الكتاب العشرون

أندلسيات .... محمد عبدالله عنان (يوليو ١٩٨٨)

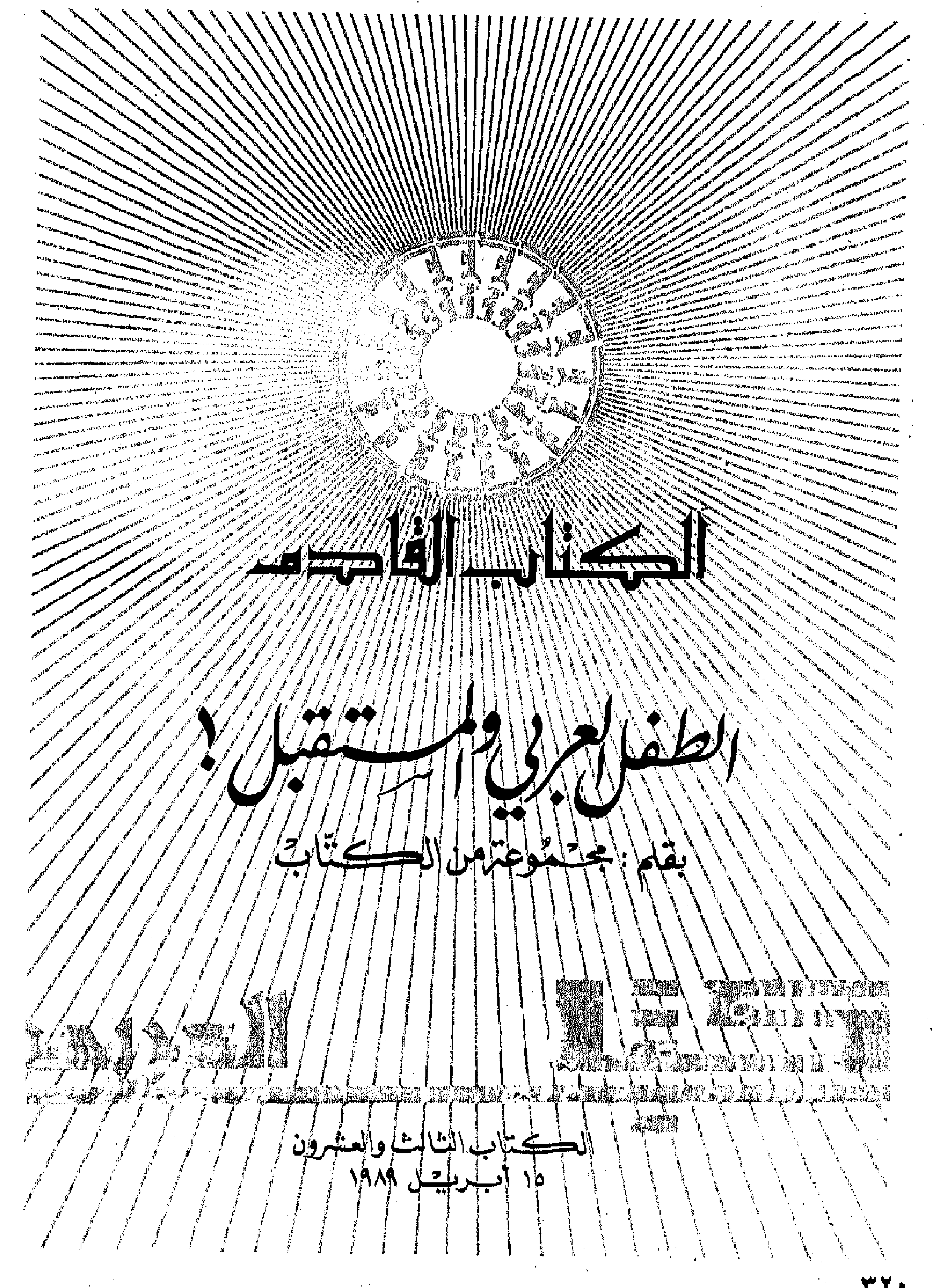
● الكتاب الحادي والعشرون

ماذا في العلم والطب من جديد؟ .... (مجموعة كتّاب) (أكتوبر ١٩٨٨)

● الكتاب الثاني والعشرون

الاسلام والعروبة في عالم متغير .... د. عبدالعزيز كامل (يناير ١٩٨٩)

....


الكتاب القادم
الطفل العربي والمستقبل!
بقلم: مجموعة من الكتاب
الكتاب الثالث والعشرون
١٥ أبريل ١٩٨٩

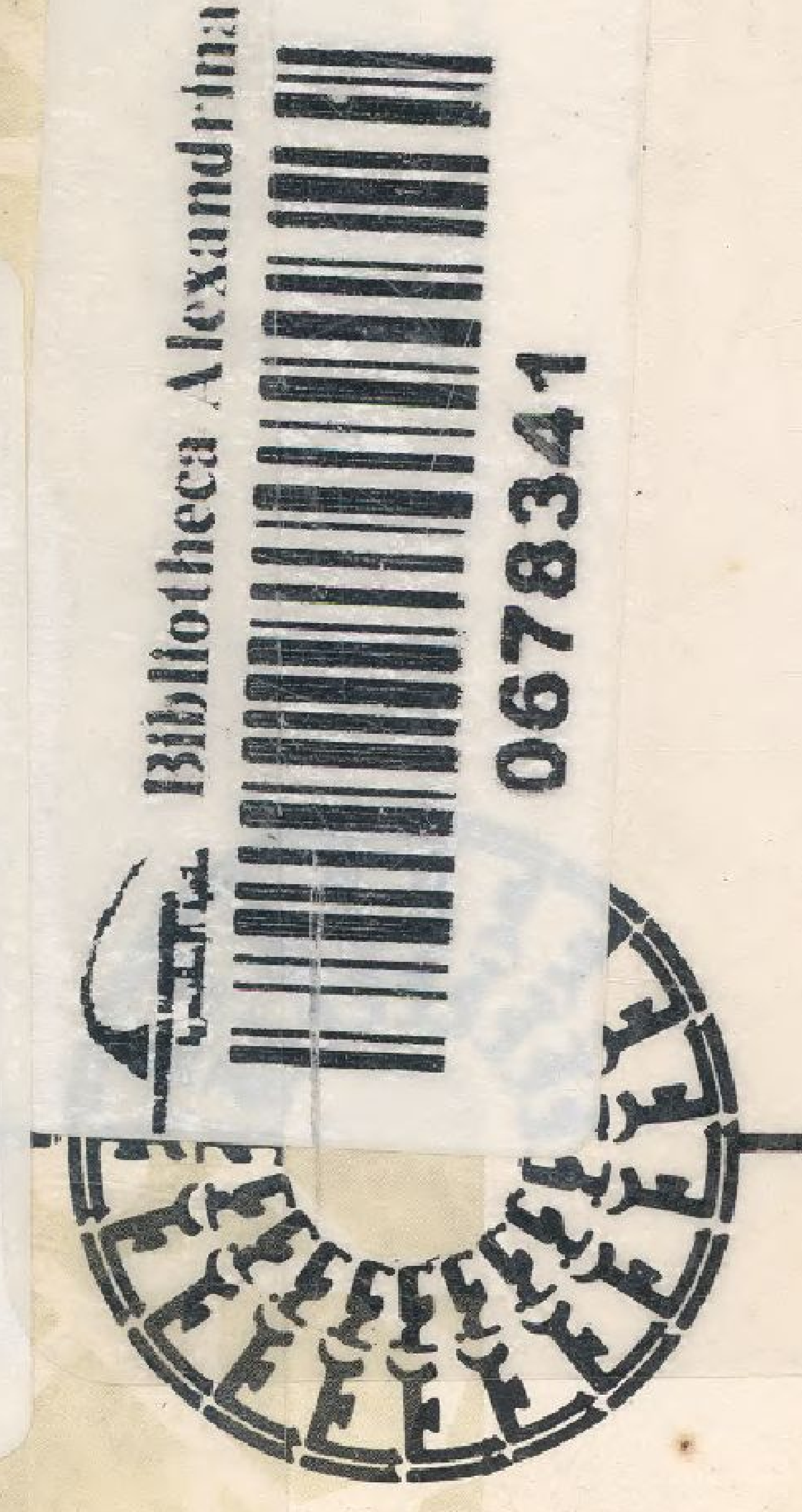
هذا الكتاب

إن الدعوة إلى العروبة - كما هي الدعوة إلى الإسلام في عالمنا اليوم - تأخذ أشكالاً جديدة تؤكد فهمنا للإسلام بدعوته الحضارية الشاملة. من هذا المنطلق جاء هذا الكتاب يؤكد الإسلام ديناً لمن يؤمن به وثقافة لمن لا يؤمن به.

كما يؤكد العروبة لأهلها أصالة وامتداداً، ولغيرهم مشاركة في الحضارة العالمية.

إن الحراب الموجهة إلى العروبة هي نفس الحراب الموجهة إلى الإسلام..

وهذا الكتاب يؤكد أنه ليس هناك تناقض بين العروبة والإسلام، ويؤكد ما يجمعنا عرباً ومسلمين أكثر مما يشير إلى ما يفرقنا وهو قليل.



كتاب العربي

مرآة العقل العربي

الأسعار بالداخل

طبع في
مطبعة حكومة الكويت